حجة الله البالغة

في تصحيح التصور الاعتقادي في سورة الأنعام

د أحمد نصير

تمهيد :-

يتمحور المضمون العام لسورة الأنعام حول **دلائل التوحيد** وإثباتاته ، وإخلاص العبادة لله تعالى وحده ، ودحض شبهات المشركين ومناقشتهم ومناظرتهم وإقامة الحجة عليهم ... وقد ناسب ذلك البدء بالحمد وذكر الدليل الأول على وحدانيته سبحانه وتعالى بأن الخلق كلهم يشهدون له سبحانه ببديع الصنعة ، بدلالة خلقه للنور مصدرا واحدا ، يعبر به عن الحق ، وخلقه الظلمات في أماكن متعددة نتيجة غياب النور ، كناية عن التخبط في ظلمات الباطل عند غياب نور الحق .

وقد جاء ذكر الأنعام في السورة للاستدلال بها على **خالقها** باعتبارها أنسب الأشياء للتدليل على **قدرة الله في الإيجاد من عدم** ، لأن في إيجاد الأنعام بل السماوات والارض وبقاء الكائنات لدليل على تفرد الله بالخلق ، وهذا المعنى لا يجادل فيه أحد بل يصل إليه كل إنسان بشيء من التدبر والتأمل ، بيد أن إفراد الله بالألوهية هو ما اختلف فيه الناس ، بعضهم انتقص من حق الله في التشريع ، وآخرين جعلوه وفق أهوائهم ، والأنعام خير مثال على ذلك فقد حرموا بعضها وأحلوا بعضها بأهوائهم بغير تشريع من الله .

فالمشركون ولأنهم أهل جاهلية **اتخذوا من الأنعام قربانًا لشركائهم مع الله** ، فجعلوها مظهرا من مظاهر الكفر والشرك بالله ، وهم في الحقيقة يتقربون بها للشيطان ، فإذا كانت سورة المائدة قد تضمنت شعائر الإسلام ، فإن سورة الأنعام تضمنت **شعائر الذين كفروا وأشركوا بالله** ، لاسيما وأن التناقض واضح وظاهر بين شعائر الإسلام وشعائر أهل الكفر والإلحاد ، فهم لا يذكرون **اسم الله** على ذبائحهم ، ويحرمون منها ما تهواه أفئدتهم افتراءً على الله ، وإرضاءً لشياطينهم ، وقد أبطل القرآن الكريم كل صور الشرك بالله ، ورد على شبهاتهم ، **وأصَّلت السورة معنى توحيد الألوهية** ، **واختصاص الله وحده بالحل والتحريم** ، وأنه لا يجوز أن يعدله أحد في ذلك ، لا شريك له ، فحصرت المحرمات إبطالا لكل تحريم لم يحرمه الإسلام ، وتأكيدا على أن الله المتفرد بالإلوهية ولا ينازعه في ذلك أحد من خلقه .

وبينت مفهوم الإخلاص لله في العبادة ، وميزان الأعمال ، واختتمت بتذكير الإنسان باستخلاف الله له على نعمه ليقوم على دينه ، وليعلم أنه مبتلى بالتفاضل في الدنيا ، وذلك هو محل الاختبار ، لينظر الله ماذا نحن عاملين قبل أن يأتي يوم الحساب والجزاء على ما كنا نعمل .

وعليه يمكن إجمال محاور السورة في ثلاثة

الأول : صبر الرسل على المستهزئين

الثاني : تحديد مهمة الرسل إلى قومهم

الثالث : تصحيح العقيدة وتأصيل حق الألوهية بمنهج دعوي بليغ

المحور الأول : صبر الرسل علي المستهزئين

أولا : مدى عناد المعرضين عن الدعوة أول الأمر
ثانيا : تلقين النبي ﷺ كيف يحاج قومه بعد أن كذبوه
ثالثا : مقارنة بين حال المشركين من الدعوة وحالهم يوم القيامة
رابعا : تثبيت الرسل إزاء مجادلة قومهم لهم في الآيات
خامسا : سنن الله الربانية في المكذبين
المحور الثاني : تحديد مهمة الرسل إزاء قومهم
أولا : أسس المنهج الدعوى
المسألة الأولى : البشارة والنذارة : وذلك هو (البلاغ العام)
المسألة الثانية : تنزيه الرسالة عن مطامع المشركين ، وتوضيح مكانتها الراقية عن ذلك
المسألة الثالثة : الإحاطة بالمؤمنين والحفاظ عليهم من مكر الماكرين
المسألة الرابعة : تبرؤ النبي من عبادة قومه إلى حد المفاصلة
ثانيا : فحوى الخطاب الدعوى
المسألة الأولى : الله يصرف الكون عبرة لعباده الشاكرين
المسألة الثانية : تحذير النبي قومه من عذاب الله النازل بأشقيائهم
المسألة الثالثة : الجهاد السلبي مع المشركين
المسألة الرابعة : الإشعار بنعمة الإسلام
ثالثا : محاججة النبي قومه
المسألة الأولى : الاستشهاد بنموذج عملي (محاججة نبي الله إبراهيم قومه) :
المسألة الثانية : الحجة تتوارث ولا تنقطع عند جيل
المسألة الثالثة : طلب "الأجرة" مبطل "للحجة"
المسألة الرابعة : الاقتصاد في الحجج ، وعدم الاستغراق في الرد على الشبهات
المسألة الخامسة : القرآن هو الحجة المباركة للناس كافة
المسألة السادسة : جزاء الظالمين والمفترين على حجة الله
المحور الثالث : تصحيح العقيدة ومنهج الدعوة وتأصيل حق الألوهية
مطلب تمهيدي "توطئة" : استظهار دلائل القدرة الإلهية كاف لإبطال شبهات الملحدين
أولا : سرد ضلالات المشركين في الاعتقاد
ثانيا : تصحيح التصور عن الله
ثالثا : ترشيد الجهد الدعوى إزاء عناد المشركين مجادلتهم
رابعا : إظهار شعار الإسلام أبلغ وسيلة لتصحيح التصور الاعتقادي في الله
خامسا : الرسل حجة الله علي قومهم
سادسا : مناظرة المشركين في مسألة أن التشريع حق خالص لله ولا لأحد سواه
سابعا : إرشاد الناس للصراط المستقيم باستظهار علة التحريم
ثامنا : استمرار توارث الدعوة رغم صدوف المكذبين وتشيعهم فرقا
خاتمة سورة الأنعام إخلاص التوجه لله

مقدمة سورة الأنعام

(الحمد على نعمة الإيجاد وتعريف الله نفسه)

قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي **خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ **وَجَعَلَ** الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ **يَعْدِلُونَ** (1) هُوَ الَّذِي **خَلَقَكُمْ** مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ **تَمْتَرُونَ** (2) **وَهُوَ اللَّهُ** فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ **يَعْلَمُ** سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ **وَيَعْلَمُ** مَا تَكْسِبُونَ) (3)

استهلت السورة بحمد الله على نعمة الإيجاد أي خلق السماوات والأرض ، وأنه جعل من آثار خلقه تباين الظلمات عن النور ، فاستبان بذلك أن طريق الحق واحد وغيره طرق للباطل ، واستبان بذلك أن خالق الكون هو المستحق وحده بصفات الكمال والجلال ، بينما الذي يعدلون مع الله غيره هم الكافرون ، وليس أشد ظلما أن يساوي الإنسان نفسه بربه فنصب نفسه إلها بهواه ، وهو مخلوق من طين ، كما استهلت السورة بتعريف الله نفسه بما يستحق ، فهو الإله الحق في السماوات وفي الأرض ، وهو الذي يعلم سرنا وعلانيتنا ، ويعمل ما تكسب كل نفس من عمل هي مجازية به .

قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..) (1) استفتحت سورة الأنعام **بتوجيه الحمد لله** تعالى ، وقد تكرر هذا الاستهلال في القرآن خمس مرات :-

- في أم القرآن (الفاتحة) "الحمد لله رب العالمين" .
- وفي سورة الأنعام "الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور" .
- وفي سورة الكهف "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب" .
- وفي سورة سبأ " الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ".
- وفي سورة فاطر " الحمد لله فاطر السماوات والأرض".

وقد ناسب الاستفتاح بالحمد التذكير **بنعمة الإيجاد** ، نقل السيوطي عن تَفْسِيرِ الْخُوَيِّيِّ يقول : (ابْتُدِئَتِ "الْفَاتِحَةُ" بِقَوْلِهِ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فَوَصَفَ بِأَنَّهُ **مَالِكُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ** ، وَفِي الْأَنْعَامِ وَالْكَهْفِ وَسَبَأٍ وَفَاطِرٍ لَمْ يُوصَفْ بِذَلِكَ ؛ بَلْ بِفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ صِفَاتِهِ ، وَهُوَ "**خلق السموات وَالْأَرْضِ**" وَجعل "الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ" فِي الْأَنْعَامِ، "وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ" فِي الْكَهْفِ ، وَ"مِلْكِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ" فِي سَبَأٍ ، "وَخَلْقِهِمَا" فِي فَاطِرٍ .. لِأَنَّ "الْفَاتِحَةَ" أُمُّ الْقُرْآنِ وَمَطْلَعُهُ فَنَاسَبَ الْإِتْيَانَ فِيهَا بِأَبْلَغِ الصِّفَاتِ وَأَعَمِّهَا وَأَشْمَلِهَا)[1]، أما الإتيان بفرد من أفراد صفاته ، في سورة الأنعام وهي أن الله سبحانه خلق "السموات وَالْأَرْضِ " وَجعل "الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ" ، فذلك ترسيخا لمعنى أن الله سبحانه هو محدث الكون ومبدعه ، **توطئة للحديث عن المشركين** الذين يعدلون أنفسهم وشركاءهم بربهم الذي فيه يمترون.

---

1) الاتقان في علوم القرآن ج2 ص 302 فوائد منثورة 5265

قوله (..وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ..) (1) قال ابن عاشور (خص بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين، وهما: "الظلمات" و"النور" فقال: "وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ" (**لاستواء** جميع الناس في **إدراكهما** والشعور بهما)[1]..... والاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه **الأربعة** (السماوات والأرض والظلمات والنور) **تعريض بإبطال عقائد كفار العرب** فإنهم كانوا بين مشركين يعبدون آلهة أرضية ، وصابئة يعبدون الكواكب السماوية ، ومجوس يعبدون النار ، ونصارى يعبدون عيسى ومريم وهما بشر مثلهم فما أضلهم وقد عدلوا الإنسان بربهم فهذا من أشد صور الظلمات ، ؛ قال ابن عاشور : – (فكلهم أثبتوا آلهة غير الله..

- ف "المشركون" أثبتوا آلهة من الأرض بعبادة الأصنام
- و"الصابئة" أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية .
- و"النصارى" أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية .
- و"المجوس" وهم المانوية ألهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم .

وقد أخبرهم الله تعالى أنه خالق السماوات والأرض، أي بما فيهن، وخالق الظلمات والنور)[2] .

وقد جمع الله لفظ الظلمات ، وأفرد النور ، للعلم بأن طريق الحق واحد ، وطرق الباطل مظلمة ، وفي ذلك لطيفة ألمح إليها الشيخ الشعراوي فقال (**الظلمات تتعدد أسبابها لكن النور ليس له إلا سبب واحد** ، والحق سبحانه وتعالى يقول : " **وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** " [الأنعام : 153] ، والسبل هي جمع ، وسبيل الله مفرد لأنه واحد ، كأن سبل الشيطان متعددة ، وسبل الناس كذلك متعددة حسب أهوائهم ، لكن سبيل الله واحد ؛ لذلك يجعل الهداية نوراً والضلال ظلمات)[3]

وفي **التضاد بين الظلمات والنور** يقول صاحب الظلال (لمستان متقابلتان في الهمود والحركة كتقابل "الطين" الهامد والخلق "الحي" في النشأة . . **وبين كل متقابلين مسافة هائلة في الكنه والزمن** . . وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله ، واليقين بلقائه)[4].

قوله تعالى (..ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (1) أي (يُسَوُّونَ غَيْرَهُ بِهِ فِي العِبَادَةِ)[5] ، فالذي يعدل مع الله أحد ، (يجعل غيره مساويا له)[6]، أي يشركه في صفاته أو أسمائه أو أفعاله .

---

[1]) التحرير والتنوير ج6 ص 10
[2]) التحرير والتنوير ج6 ص 10
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2423
[4]) في ظلال القرآن ج2 ص 462
[5]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 791
6) صالح بن فوزان :الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص1

وهذا من أعظم أبواب الكفر بالله ، أن تجعل لله ندا ، وأن تعدل أحدًا مع الله ، والله سبحانه لا ند له ولا شريك له ، ولا يعدله شيء من خلقه ، وفي ذلك انتقاص من حق الله على العباد ، وإساءة في التصور العقدي لله ، قال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)(91) ، وقال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى 11) ، أبعد أن يرى الإنسان خلق الله في هذا الكون البديع ، هل يعقل أن يساوي معه غيره من معبودات ؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال ، بل (ذلك هو الكفر الصراح ، أن يجعلوا لله عدلا أي مثلا)[1].

ويترتب على ذلك أنهم يصرفون له كافة أشكال العبادة من الخوف والرجاء والخشية والدعاء ..الخ، قال ابن القيم أي (يجعلون له عدلا –أي مساويا– في العبادة والمحبة والتعظيم)[2]والخوف ، قال تعالى(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)(البقرة 150).

ومن صور ذلك **الخوف** من بطش البشر ، فالمؤمن لا يخاف إلا الله ، كما في قوله (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ **فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا** وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (ال عمرن 173)

كذلك **طلب الرزق** من العبد ، والله تعالى يقول (**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (العنكبوت 60)

كذلك **محبة الأغراض** مثل محبة الله ، كما في قوله سبحانه (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا **يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ** وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (البقرة 165) .

قوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ **تَمْتَرُونَ**) (2) أي أن الإنسان الذي خلقه الله من هذا الطين **له أجل** يصير إليه إذا جاء أجله فلا يستأخر ساعة ولا يستقدم ، فعن مجاهد في قوله " ثم قضى أجلاً " قال : **أجل الدنيا الموت** " وأجل مسمى عنده " قال : **الآخره البعث**)[3] ، ولا يزال الإنسان يماري ويجادل في أن الذي خلقه وقدره رزقه وحياته حتى أجله قادر على أن يبعثه ليحاسبه على ما عمل .

فتلك إيماءة لأن يتعقل الإنسان ويتأمل في (**آية خلقه من طين**)[4]، وإشارة إلى فهم متطلباته الفطرية التي جُبل عليها ، فالطين هو المادة التي خلقت منها الكائنات الحية ، والنظريات العلمية التي تحدثت عن تاريخ نشأة الحياة على الأرض أثبتت وجود علاقة وثيقة بين الطين وتطور البروتينات ، فالمعادن الطينية كان له حافز أساسي في المراحل المبكرة لتكوين الحياة على الأرض[5] ، (فعناصر الطين هي المادة الأولى لتخليق الكائن الحي)[6]، ما يعني أن **الكائن الطيني له متطلبات** لكي يحيى ويعيش منها **التنفس والغذاء والإخراج والنوم والتكاثر** ...الخ ، وتلك الأمور هي أسباب إبتلائه على الأرض .

---

[1]) غلام الثعلب : يقوتة الصراط ص 217
2) إغاثة اللهفان ج1 ص 61
[3]) الدر المنثور ج4 ص 31

[4])https://antitansseer.wordpress.com/2013/02/11/تناقض-القرآن-في-مادة-خلق-الإنسان

[5]) https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC8880559/ **Clays and the Origin of Life: The Experiments**
وحاليا يتم تخليق البروتين الحيواني كيميائياً داخل الخلايا الحية بناءً على الشفرة الوراثية (DNA) بواسطة عضيات تُسمى "الريبوسومات"

[6]) http://www.natureworldnews.com/articles/4784/20131106/life-evolved-clay-researchers-find.htm?fbclid=IwAR2tS250tk-uJ5QLbwHk0chkMc-nt_8jRop_HJptEk49qicfTOFgwFgN074

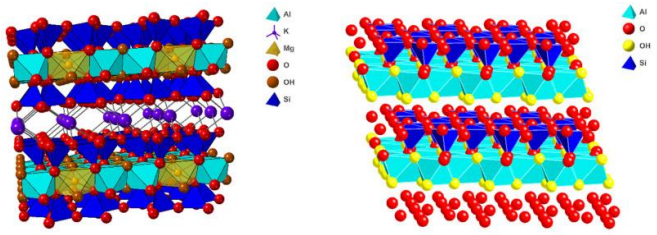

(a) (b)

Clay minerals mentioned in this article, clay mineral type, and ideal chemical composition.

Clay Mineral	Type	Chemical Composition
Allophane	Short-range-order clay	$(Al_2O_3)(SiO_2)1.3–2·2.5–3H_2O$
Kaolinite	1:1 clays, dioctahedral	$Al_2Si_2O_5(OH)_4$
Lizardite	1:1 serpentine, trioctahedral	$Mg_3Si_2O_5(OH)_4$
Antigorite	1:1 serpentine, trioctahedral	$Mg_3Si_2O_5(OH)_4$
Chrysotile	1:1 serpentine, trioctahedral	$Mg_3Si_2O_5(OH)_4$
Talc	2:1 clay, trioctahedral	Mg3Si4O10(OH)2
Montmorillonite	2:1 clays, dioctahedral	$(M^+_y.nH_2O)(Al^{3+}_{2-y}Mg^{2+}_y)Si^{4+}_4O_{10}(OH)_2$
Beidellite	2:1 clays, dioctahedral	$(M^+_x.nH_2O)Al^{3+}_2(Si^{4+}_{4-x}Al^{3+}_x)O_{10}(OH)_2$
Nontronite	2:1 clays, dioctahedral	$(M^+_x.nH_2O)Fe^{3+}_2(Si^{4+}_{4-x}Al^{3+}_x)O_{10}(OH)_2$
Hectorite	2:1 clays, trioctahedral	$(M^+_y.nH_2O)(Mg^{2+}_{3-y}Li^+_y)(Si^{4+}_4O_{10}(OH)_2$
Saponite	2:1 clays, trioctahedral	$(M^+_x.nH_2O)Mg^{2+}_3(Si^{4+}_{4-x}Al^{3+}x)O_{10}(OH)_2$
Sauconite	2:1 clays, trioctahedral	$(M^+_x.nH_2O)Zn^{2+}_3(Si^{4+}_{4-x}Al^{3+}x)O_{10}(OH)_2$
Stevensite	2:1 clays, trioctahedral	$(Ca,Na)_xMg_{3-x}(Si_4O_{10})(OH)_2$
Vermiculite	2:1 clays, trioctahedral	$Mg_{0.7}(Mg,Fe,Al)_6(Si,Al)_8O_{20}(OH)_4.8H_2O$
Corrensite	1:1 regular	$(Mg,Fe)_9((Si,Al)_8O_{20})(OH)_{10}·nH_2O$

Clay Mineral	Type	Chemical Composition
	interstratified [1]	
Chlorite	2:1 clays, interlayer octahedral sheet	$([Mg^{2+}Fe^{2+}]_5Al^{3+})(Si^{4+}{}_3Al_3)O_{10}(OH)_8$

ولأجل استجابة الإنسان لهذه المتطلبات –أي المادة الطينية– فإنه ينتهج أحد نهجين :–

الأول : **الاسترسال** في تلبية حاجاتها دون ضابط مثل الحيوانات التي تلبي حاجتها بكل طريقة ووسيلة وإن ترتب عليها الافتراس لغيره أو الاعتداء على أنثى غيره ما نسميه باختصار (شريعة الغاب) حيث يأكل القوي الضعيف .

الثاني : أن يفهم أن تشابهه مع الحيوان في أصل مادة الخلق هو من قبيل الابتلاء له ، ليدرك عندئذ أن الواجب عليه أن **يُقَوِّم مادته بمنهج الله تعالى** ، بحيث يغلب جانب العقل الذي يحجر على رغباته وشهواته وأهوائه ، والروح التي تزكي متطلباته ، فلا يتثاقل الجسد إلى الأرض راضيا بالحياة الدنيا .

إذن الأمر يحتاج **لمجاهدة هذا الجسد ومتطلباته** حتى يقضي الله للإنسان أجله ، فإذا انفصلت الروح عن الجسد ، فإن الأجساد المتثاقلة بالمادة الطينية لا تستطيع أرواحها أن تصعد إلى السماوات ، بل تنزل إلى سبع أرضين ، كما ورد بالحديث (إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ .. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ .. فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ .. **فَيَصْعَدُونَ بِهَا** فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا **بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا** فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا **إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ** فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ **فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ** .. الحديث)

(وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ ... ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ ... فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا **حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ** لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي **سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى** فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)..فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ .. الحديث)[1]

[1]) رواه أحمد ج37 ص 490 رقم 17803 وصححه الألباني : أحكام الجنائز ج1 ص 156 ، صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص219

قوله تعالى (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) (3) **يُعَرِّف اللهُ نفسَه** لعبادِه ليعلموا أنه الإله المستحق للعبودية وحده بإخلاص، قال تعالى: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي **يَعْلَمُ السِّرَّ** فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الفرقان 6] ، قال أبو حيان (التنبيه على ما تقدم من **أوصاف الخالق** يدل على القدرة المطلقة والاختيار التام والعلم الشامل)[1] ، ما يجعلهم منتبهين **لصفات خالقهم** ومستعدين لأداء حقه عليهم ، فيشرعوا في الخشية منه سبحانه ، والإذعان لأوامره ، والسعي لإرضائه ، قال العلماء (من **دلائل ألوهيته** أنه يعلم جميع ما تخفونه –أيها الناس– وما تعلنونه، ويعلم جميع أعمالكم من خير أو شر; ولهذا فإنه –جلَّ وعلا– وحده هو الإله المستحق للعبادة)[2]

يقول صاحب الظلال (كانت المشكلة دائماً في تاريخ البشرية هي مشكلة **عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقة**؛ ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود إله!ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة؛ بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه ، وبأنه الخالق الرازق ، المالك ، المحيي المميت . . إلى كثير من الصفات – كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم ، وفي حكاية أقوالهم – ولكن **انحرافهم** الذي وصمهم بالشرك هو **أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك : من تحكيم الله** – سبحانه – في أمرهم كله؛ ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم؛ واتخاذ شريعته وحدها قانوناً ، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة ، **هذا هو الذي وصمهم بالشرك وبالكفر؛ مع إقرارهم بوجود الله سبحانه** ، ووصفه بتلك الصفات ، التي من مقتضاها أن يتفرد سبحانه بالحكم في شأنهم كله ، بما أنه الخالق الرازق المالك ، كما كانوا يعترفون ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله هذه من الخلق للكون وللإنسان ، ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان؛ ومن علمه وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم .. إنما هو **المقدمة التي يرتب عليها ضرورة إفراده سبحانه بالحاكمية والتشريع**)[3].

وفي قوله تعالى (..وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) قال الرازي (يجب حمل (الكسب) على ما يستحقه الإنسان على فعله من **ثواب وعقاب**)[4]، لينتبه الإنسان إلى مصدر كسبه ونوعه وكيفية اكتسابه ، لأنه سوف يحاسب عليها ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُّهَا النَّاسُ **إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا** وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ) فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ **كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ** وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) ، وَقَالَ (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ)[5].

---

[1]) تفسير البحر المحيط لأبو حيان الأندلسي ج5 ص 76
2) التفسير الميسر ج2 ص 298 مجموعة من العلماء - عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
[3]) في ظلال القرآن ج2 ص 463
[4]) الرازي ج6 ص 220
[5]) رواه مسلم ج5 ص 192 رقم 1686

ومن الأحاديث التي جمعت صور كسب الإنسان ما روي عن سهل بن سعد قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي فقال ﷺ : (يا محمد **عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به** ثم قال : يا محمد شرف المؤمن قيام الليل **وعزه استغناؤه عن الناس)** [1]، ويمكن استخراج بعض الفوائد من هذا الحديث على النحو التالي :-

- التهوين من شأن الدنيا ، وعدم زيادة الأمل فيها ، والاغترار بها ، والاستعداد دائما ليوم الرحيل عنها
- العلم بأن علائق الحب جميعا في الدنيا سوف تؤول إلى فراق ، وفي الآخرة يجتمع المحبون في الله ، ويتخاصم المحبون لأجل الدنيا ، ليخلص قلب المؤمن لله ، فلا يتعلق بشيء غيره ، فلا يعدل حبه لله شيء .
- الحذر من سوء العمل ، فالجزاء رديف العمل ، بما يستلزم مراقبة الله تعالى في السر والعلانية ، واليقين بأن الله لا يضيع أجر المحسنين
- اليقين بشرف العبادة والخلوة مع الله ، فهي رأس ماله الحقيقي في الآخرة
- العلم بأن كرامة المؤمن وعزته في توحيد الطلب من الله ، وعدم احتياجه للآخرين فيذلوه ، ما يعني الاعتماد على الله وحده في قضاء الحوائج، والتعفف عما في أيدي الناس، فذلك يحفظ للمؤمن هيبته وعزته.

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 360 رقم 7921 وصححه الذهبي في التلخيص وحسنه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 8 رقم 73

المحور الأول

صبر الرسل علي المستهزئين المكذبين

وفيه خمس مطالب :-

الأول : مدى عناد المعرضين عن الدعوة أول الأمر

الثاني : تلقين النبي ﷺ كيف يحاج قومه بعد أن كذبوه

الثالث : مواساة النبي ﷺ في تكذيب الكافرين له ، باستظهار حالهم يوم القيامة

الرابع : تثبيت الرسول إزاء مجادلة قومه له في الآيات

الخامس : سريان سنن الله الكونية في المكذبين

المطلب الأول

مدى عناد المعرضين عن الدعوة أول الأمر

قال تعالى (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ **آَيَةٍ** مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا **مُعْرِضِينَ** (4) فَقَدْ **كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ** فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ **أَنْبَاءُ** مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) أَلَمْ يَرَوْا **كَمْ أَهْلَكْنَا** مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ **مَكَّنَّاهُمْ** فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ **وَأَنْشَأْنَا** مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ (6) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ **فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ** لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ **وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا** لَقُضِيَ الْأَمْرُ **ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ** (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (9) وَلَقَدِ **اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ** مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (10)

الأصل أن تكون الآية التي يأتي بها الله وسيلة تدليل على الحق ، فيزداد الناس بها إيمانا ، ولكن الحاصل هو العكس تماما ، إذ يزداد بعض الناس بها إعراضا وتكذيبا ، ولذلك يتهددهم الله تعالى بالهلاك كما حصل للذين من قبلهم ، وقد اغتروا بتمكين الله لهم أسباب المعاش في الدنيا ، فلما أهكلهم الله خلف بعدهم قوم آخرين يحملون واجب الدعوة في سبيله ، فلو أن الخلف أعرضوا عن الحق كما فعل أسالفهم وأنهم ماطلوا في الحق واقترحوا الآيات لما حققوا الإيمان الذي يريده الله منهم ، فقد مضت سنة الله في الساخرين من الدعوة بأنهم هم المستهزئ بهم .

قوله تعالى (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا **مُعْرِضِينَ** (4) فَقَدْ **كَذَّبُوا** بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (5) استظهرت الآيات ثلاث مواقف للناس حين بلغتهم الدعوة الإسلامية أول مرة ، فأول عمل علموه أن **أعرضوا عنها** وعن آيات ربهم لما جاءتهم رغم أنها بينات على الحق ، ولم يقفوا عند مرحلة الإعراض وعدم التصديق الذي هو صورة من صور عدم الإهتمام وحسب ، ولكنهم وقفوا أمام الدعوة **الإسلامية** موقف الخصم المكذب بها المشوه لحقيقتها بأن كذبوا أصحاب الحق ووقفوا لهم **بالمرصاد** في كل كلمة يبلغونها عن الله ، وأطلقوا **حملات التكذيب** والتشويه لأصحاب كلمة الحق ، ثم انتقلوا إلى **مرحلة ثالثة** أشد تصديا للحق وانحيازا للباطل ، وهي مرحلة **الاستهزاء** بأهل الحق ، فيقفون ساخرين مما يقولونه لاسيما إذا كانوا يذكرونهم باليوم الآخر ،فإذا **حصل منهم** "الإعراض" و"التكذيب" و"الاستهزاء" بالتتابع ، كان الواجب **تحذيرهم** ، **وإخبارهم** بحال من سبقهم من المكذبين والمستهزئين مثلهم ، وفي ذلك كله (تأكيد لوعد المؤمنين بالنصر وإظهار الإسلام على الدين كله وإنذار للمشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم الذين كذبوا رسلهم)[1].

قوله (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ) (6) و**هكذا تفعل الذنوب بأصحابها** ، حيث

[1]) التحرير والتنوير ج6 ص 18

يتبدل حال أهل المعصية فبعد أن كانوا ممكنين في الأرض يرزقون من مطر السماء وأنهار الأرض يهلكهم الله فيزيلهم من على وجهها ليكونوا سكانا لقبورها .

قال الشنقيطي (ذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان **لمعنى القياس** وهو ذنوبهم، فهم **الأصل** ونحن **الفرع**، والذنوب **العلة** الجامعة، **والحكم** الهلاك ، فهذا محض قياس العلة، وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى)[1]

وسبب الإهلاك إما عظم الذنب كـ "الشرك بالله" المقترن بصور الاستهزاء السالف ذكرها كما في السياق أو وقوع "الظلم" كما في قوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا **أَخَذَ الْقُرَى** وَهِيَ **ظَالِمَةٌ** إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود 102) أو "بكثرتها" كما في قول النبي ﷺ (**إياكم ومحقرات الذنوب** كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى انضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها **تهلكه**)[2].

قوله (..وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) فسنة الله الكونية أن يتبع الهلاك إحلال وتبديل ، فيأتي الله بقوم آخرين خير من الذين هلكوا ، يقيمون شرعه ، وتلك هي سنته في الظالمين ، بتطبيق قانون الاستبدال عند التولي عن حمل أمانة الدين ، كما في قوله تعالى (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، **ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ**، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) (المؤمنون: 41-43) ، فهي سنة مطردة ، يقول شيخ الإسلام معلقا على هذه السنة (وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ قُرُونِ الْأُمَّةِ .....فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْهُ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ – **لَا يَضُرُّونَ الْإِسْلَامَ شَيْئًا ، بَلْ يُقِيمُ اللَّهُ مَنْ يُؤْمِنُ** بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ وَيَنْصُرُ دِينَهُ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ)[3] .

فليس معنى أن الله يهلك الظالمين أن تهلك الدنيا ، بل إنه سبحانه **يخلق خلقا آخرين ليحلوا محل الهالكين**، فيبتليهم الله بما ابتلى به من كان قبلهم ، فإن أحسنوا جوزوا بالحسنة حسنة ، وإن أساءوا أهلكهم الله مثلما أهلك من قبلهم ،والعلة من ذلك هو أن **يتحقق الإتزان الكوني في الأرض** ، فالأرض ليست جنة نعيم ، بل هي **موطن ابتلاء** .

ولكي يتحقق مراد الله من ابتلاء للإنسان لابد وأن يكون الإنسان حرا مختارا ، و**الظالمون يصادرون حرية الإنسان** في الاختيار ، ولذلك يهلكهم الله تعالى إذا ما صادروا هذه الحرية ، ليقيم بعدهم أمة يتحقق فيها **الاختيار** الذي هو **مناط التكليف** ، قال ابن عاشور (والمقصود من هذا تعريض بالمشركين بأن الله مهلكهم ومنشئ من بعدهم قرن المسلمين في ديارهم ، **ففيه نذارة بفتح مكة وسائر بلاد العرب على أيدي المسلمين**)[4].

قال تعالى (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ **فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ** لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا **سِحْرٌ** مُبِينٌ) (7) هذه الآية إيذان بالتماس البشر للآيات المعنوية للاستدلال بها على الله الخالق المدبر بدلا من انتظار المعجزات المادية التي جاء بها

---

[1]) أضواء البيان ج4 ص 185
[2]) رواه أحمد في مسنده ج5 ص 331 رقم 22860 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج9 ص 30رقم 3102
[3]) مجموع الفتاوى ج18 ص 300
4) التحرير والتنوير ج6 ص 22

الرسل من قبل ، أي الاستدلال على الإله بكتابه الذي أنزله ، فهي تصرف الناس عن الانشغال بالآيات المادية والانبهار بالمعجزات مثل التي أنزلت على موسى عليه السلام ، فتلك يضعف تأثيرها على عقول الناس ، لأن المعجزة المادية وإن أتى بها الرسول **تحيلها العقول البشرية إلى ظاهرة السحر** الذي استشرى بين الناس ، **فيخلطوا بينهما** ، لأنه يتعذر التفرقة كثيرا بين المعجزة والسحر ، ولا يزال الناس يتخوفون من السحر والساحر ، فالظ**واهر الخارقة للعادات ليس بمعول عليها في إثبات النبوة لاشباهها مع السحر** ، ولذلك جاء النبي محمد ﷺ بمعجزة خارج هذا النطاق ، فأيده الله بمعجزة بالقرآن ، **فالقرآن هو ذاته منهجه ومعجزته** ، فأضحت المعجزة منهجا والمنهج معجزة ، فمعجزة النبي ﷺ في منهجه ، لكونه أصلح حياة الناس بعد فسادها ، فصاروا من جاهلية بغيضة إلى قادة للأمم ،وبهذا بطلت شبهة السحر التي ألقت بظلالها على البعض .

قوله (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ **لَا يُنْظَرُونَ** (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا **يَلْبِسُونَ**) (9) نفت الآيات صحة تصور أن يكون **النبي** المبلغ للبشر **ملكا** ، لأن في ذلك **إهدار للمنهج** التطبيقي في الإسلام ، بمعنى أن الإسلام ليس مجرد دين نظري يلقي به ملك كريم للبشر وحسب ، بل هو منهج تطبيقي **يطبقه نبي بشر مثلهم** تعتريه ما يعتري البشر من ابتلاءات ، ويحتاج ما يحتاجه البشر من مقومات للعيش ، بهذا تكون ظروف تطبيق المنهج متساوية بين الرسول البشري والناس المكلفين بهذا المنهج بلا فرق ، **وهكذا يحتج الله على البشر بأن منهجه لا يستعصي أن يلتزم به بشر** .

فهذه الآية تلفت الناس إلى حياة الرسول محمد ﷺ لينظروا إليها على أنها سنة يقتدون بها ، قال سبحانه (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب 21) ، وهكذا يكون تطبيق المنهج – كذلك– معجزة أخرى ، **فحياته ﷺ هي معجزة هذا الدين من الناحية التطبيقية** ، فقد رأينا بمنهجه وسنته كيف اتبعه السواد الأعظم من الناس ، وكانوا من قبل يحاربونه ويصدونه عن السبيل .

وعليه فإن التماس الناس **أن يكون الرسول ملكا من الملائكة يبطل أن يكون لهذا الدين إعجاز تطبيقي** في حياتهم ، إذ يستعصي عليهم أن يتبعوا ملكا رسولا لا يأكل ما يأكلون ولا يلبس مما يلبسون ولا يعيش كما يعيشوا ، فأنى لهم تطبيق المنهج وليس عندهم قدوة من البشر يعيش ذات ظروفهم ويحتاج لذات متطلباتهم المادية (الطينية) ، فيأمرهم بصيام شهر رمضان كاملا وهو في الأصل ملك لا يأكل ولا يشرب ، ويأمرهم بالصلاة خمس مرات ، وهو في الأصل ملك لا ينقطع عن الذكر والتسبيح والصلاة ؟ إذن المنطق السليم يقضي بأن يكون **المتبوع من جنس التابع** ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى (**قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً**ً) (الإسراء 95) .

قال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ **يَسْتَهْزِئُونَ**) (10) الاستهزاء بالرسول ينطوي في ذاته استهزاء بالمنهج التطبيقي للقرآن الكريم ، أي أسلوب حياته وسيرته ، ويتضمن تبعا لذلك استهزاء

بكتاب الله العظيم الذي هو المنهج المتبع ، فرغم أن بشرية الرسول معجزة هذا الدين التطبيقية ،ودليل على أن منهج الله صالح للتطبيق العملي على البشر كما طبقه النبي ﷺ على نفسه وأصحابه ، فإنهم —وبالرغم من ذلك – يستهزئون ويستعجبون عن كبر وغرور ، قال تعالى (**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا) (الفرقان 7) .

والغرض من مواجهة الدعوة بمثل هذا الاستهزاء **إشغال الناس عن التعامل مع دين الإسلام بجدية** ، فمع اعترافهم بحق الربوبية لله ، فإنهم ينكرون حقه في الألوهية ، أي يريدون أن **يفرغوا الدين من مضمونه** ، ليصير مجرد شعائر تعبدية ، وإن شئت قلت "اختيارية" ، خالية من أي منهج تكليفي .

فإذا كان هذا هو مكرهم ، فإن الله تعالى يمكر بهم ، وينزل عليهم عذابه ، ففي الآية **مجاز بتصوير العذاب** وكأنه جنود تحيط بالمستهزئين ، فينقلب حالهم إلى وبال عليهم ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ كي لا يحزن من سخريتهم واستهزائهم به ، فنصر الله قريب والغلبة للمؤمنين ، وقد بشر الله نبيه بالنصر فقال (**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (الأنعام 34).

المطلب الثاني

تلقين النبي ﷺ كيف يحاج قومه بعد أن كذبوه

قال تعالى (قُلْ **سِيرُوا فِي الْأَرْضِ** ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) **قُلْ لِمَنْ** مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **قُلْ لِلَّهِ** كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) **وَلَهُ** مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا** فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) **قُلْ إِنِّي أَخَافُ** إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) **وَإِنْ يَمْسَسْكَ** اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً** قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ** الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (21)

قوله تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(11) « ثم » تعني (طول المسافة الزمنية الفاصلة بين "المعطوف" و"المعطوف عليه")[1]، فالسير في الأرض المقصود به السعي على طلب الرزق والاجتهاد في المعاش وبصفة عامة حركة الحياة ، فمصير المكذبين يحتاج لفترة زمنية لكي يتحقق ضمن مجريات الحياة ، فلا يستعجل **صناع الحياة أن يزيل الله الباطل عنهم** ، بل عليهم أن يمضوا في سعيهم وإصلاحهم ، ولا ينتظروا إزاحة الباطل .

ومن جهة أخرى فإن السائر في ضروب الحياة يرى ألوانا شتى من العبر والدروس ،فقريش تسير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن ما يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم ، ليأخذوا العبرة في أثناء سعيهم لتجارتهم ، فهذه الآية تحض على **قراءة التاريخ** واستقراء العبر من بين السطور ، أي قراءة تحليلية ، وليس مجرد سرد حكايات الغابرين .

قال صاحب الظلال (السير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث والوقائع أمور كلها كانت **جديدة على العرب** ، لقد كانوا يسيرون في الأرض ، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش ، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي . . **أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي** . . فهذا كان جديداً عليهم ، كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار ، مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث ، كما يحدد الترابط بين النتائج والمقدمات ، وبين المراحل والأطوار ... **فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق**؛ ويشرع لهم منهج **النظر في أحداث التاريخ الإنساني** ، والذين يأخذهم الدهش

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2443

والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب **في خلال ربع قرن من الزمان** على عهد الرسالة المحمدية ، وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية ، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب ، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية؛ **ليبحثوا عن السر** في هذا المنهج الرباني الجديد ، الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله العليم الخبير . . **ففي هذا المنهج تكمن المعجزة)** [1] .

قال تعالى (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ..) (12) حضت الآيات النبي ﷺ أن يُذَكِّر قومه بصنع الله ولكن بصيغة السؤال والاستفهام حتى يحرك عقولهم إزاء هذه الآية فيتفكروا في ظروف المكان التي تحيط بالإنسان .

والغرض من السؤال معرفة **هل عندهم شبهة تمنعهم من أن ينسبوا ما يرونه** مما يحيط بهم من ظروف المكان **لله** تعالى خالق كل شيء ، فالسماء فوقهم والأرض تحتهم ، فمن الذي فعل ذلك ؟ فإن كان عندهم علم غير الله فليأتوا به ، وإن لم يجيبوا ، فأجبهم أنت بقولك الله هو الذي خلقهما ، فمن غيره يقدر على ذلك ؟

قال تعالى (..كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ..) (12) أي (قضى بها وأوجبها على نفسه) – فضلا منه ومنة على خلقه –، وذكر رحمة الله في معرض السؤال عمن ما في السماوات والأرض ، تضمن سؤالا ضمنيا ، هل تعرفون ربكم باسم الرحمن ، قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ **قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ** أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)(الفرقان60) ، قال تعالى (**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**)(الرعد30) .

(**ومظاهر رحمة الله متجلية** في الناس أنه يطعمهم ويسقيهم ويكلؤهم ويحفظهم لكنهم يكفرونه ويعصونه ، وما حمدوه ولا شكروه حق شكره)[2] ، فهي رحمة أوجبها على نفسه ، وهي من السعة بأن تسع الخلائق كلها ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ **فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ** فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ **طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ** ؟ قُلْنَا لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**)[3].

---

[1]) في ظلال القرآن ج2 ص 483
[2]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 392
[3]) رواه مسلم ج13 ص 314 رقم 4947

ومع سعة رحمة الله بعباده في الدنيا فإن النصيب الأكبر من رحمته مدخر للآخرة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ **وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا** وَأَخَّرَ اللَّهُ **تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ** بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1].

ومن الملاحظ أن عبارة (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) [الأنعام: 12] جاءت في سياق التهديد الشديد للمستهزئين ، **لطمأنة القلوب، وفتح باب الأمل والتوبة** ، فرغم شناعة فعل المستهزئين والتهديد المخيف بعذابهم، بيّن الله تعالى أنه أوجب الرحمة على ذاته لئلا ييأس عاصٍ، ولكي يدرك العباد أن عقوبته تأتي بعد إقامة الحجة، وليس تعجيلاً للانتقام

وقد تكررت الآية في السورة في قوله (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام54)

قوله (..لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ..) (12)يقول الشيخ أبو بكر الجزائري (ومن مظاهر رحمته جمعه الناس ليوم القيامة ليحاسبهم ويجزيهم بعملهم **الحسنة بعشر أمثالها** ، أما السيئة فبسيئة مثلها فقط وهو ما دل عليه قوله : (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه " أى الكائن الآتى بلا ريب ولا شك)[2].

ولذلك فإن أهل التوحيد وإن عصوا فإنهم يعلمون أن الله يجمعهم يوم القيامة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَالَ رَجُلٌ **لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ** لِأَهْلِهِ إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ثُمَّ قَالَ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ **مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ** فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ) [3]، ولعله أمر بفعل هذا ليرحمه الله عندما يرى خشيته منه ، وقيل أنه فعل ذلك (تَحقيرًا لنَفسِه، وعُقوبةً لها بعِصيانِها، وإسرافِها، وتَذلُّلًا ورَجاءً أن يَكونَ هذا سَببًا إلى رَحمَتِه، ولَعلَّه كان مَشروعًا في مِلَّتِه)[4] .

قال ابن عبد البر (وذلك دليل على إيمانه إذ الخشية لا تكون إلا لمؤمن بل لعالم قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (فاطر28) ويستحيل أن يخافه من لا يؤمن به وقد روى الحديث قال رجل لم يعمل خيرا قط إلا التوحيد، وهذه اللفظة ترفع الإشكال في إيمانه والأصول تعضدها (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (النساء48) ، وقد (قال فغفر له) ، ولأبي عوانة من حديث حذيفة عن الصديق أنه آخر أهل الجنة دخولا)[5].

وقال ابن تيمية تعليقا على هذا الحديث (هذا جهل قدرة الله على إعادته ورجا أنه لا يعيده بجهل ما أخبر به من الإعادة ، ومع هذا لما كان مؤمنا بالله وأمره ونهيه ووعده ووعيده خائفا من عذابه ، **وكان جهله بذلك جهلا لم تقم عليه الحجة التي توجب كفر مثله غفر الله له)**[6]

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 311 رقم 4944
[2]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 392
[3]) رواه مسلم ج13 ص 316 رقم 4949
[4] https://dorar.net/hadith/sharh/) 73650
[5]) شرح الزرقاني ج2 ص 118
[6]) الصفدية ج1 ص 233

قوله (..الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ **لَا يُؤْمِنُونَ**) (12) قال ابن عاشور (معنى "خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم وهو **العقل والتفكير**، وذلك أنهم لما **أعرضوا عن التدبر** .. فقد أضاعوا علي أنفسهم أنفع سبب للفوز في العاجل والآجل، .. ، فعدم الإيمان مسبب عن حرمانهم الانتفاع بأفضل نافع)[1] .

فإهمالهم التدبر من جهة ، وتعطيل أجهزتهم التي أنعم الله عليهم بها من جهة أخرى حال بينهم وبين **فهم مراد الله** ، وما عنده من الثواب والعقاب ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**)[2] .

يقول الشيخ ابن العثيمين (فالواجب على الإنسان أن يكون **طبيب نفسه** في كونه يغلب الخوف أو الرجاء إن رأى نفسه تميل إلى الرجاء وإلى التهاون بالواجبات وإلى انتهاك المحرمات استنادا إلى مغفرة الله ورحمته ، فليعدل عن هذه الطريق وإن رأى أن عنده وسواسا، وأن الله لا يقبل منه فإنه يعدل عن هذا الطريق إلى ما يصلحه في حال الصحة وفي حال المرض)[3]

ويقول صاحب الظلال (إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين ..لابد أن تكون **أجهزة الاستقبال** والاستجابة الفطرية في كيانهم **معطلة** مخربة أو محجوبة مغلفة ، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال .. ، ومن ثم فهم لا يؤمنون .... وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم . . وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم . وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم!) [4] .

قال تعالى (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (13) أراد الله أن **ينشط أجهزة الاستقبال** والاستشعار والإحساس بالكون **لدي هؤلاء المعرضين** ، وذلك **بأسلوب تقرير خبري عن ظرف الزمان** الذي يعيش فيه الإنسان ، فلا حاجة لتكرار السؤال لمن عجز عن أن يقر بملكية الله للسماوات والأرض ، ولذلك جاء التقرير – هنا – مباشرا بأن **الله هو الذي خلق الزمان** ، وأية ذلك تعاقب الليل والنهار ، يقول الشعراوي (**ما دام الحدث قد وُجد فلابد له من زمان ولابد له من مكان** ، أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما ، وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار ، إذن فالحق قد **تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لنا أنه خالق المكان**)[5].

---

[1]) التحرير والتنوير ج6 ص 34
[2]) رواه مسلم ج13 ص 315 رقم 4948
3) شرح رياض الصالحين ج1 ص 508
[4]) في ظلال القرآن ج2ص 489
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2445

قال البغوي في قوله (مَا سَكَنَ) أي: (**استقر**)، قيل: (أراد ما سكن وما تحرك)، كقوله:(سرابيل تقيكم بأسكم) أي: (الحر والبرد) (هذا من باب الاستغناء بذكر أحد الضدين عن الآخر)[1] ، وقيل: (إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر)[2] ، والسكون في الليل كناية عن الخفاء والاختباء ، وعطف النهار عليه من باب الشمول والعموم[3]، كما في قوله (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) (الرعد 10)

والمقصود **عموم ملكه**[4] سبحانه **وإحاطته بالمكان والزمان** ، قال ابن عاشور (وتخصيص الليل بالذكر لأن الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء،فهو كقوله: (وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ) [الأنعام:59] ، وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول،لأن الليل لما كان مظنة الاختفاء فيه قد يظن أنه لا يقصد إلى الاطلاع على الساكنات في النهار، فذكر النهار لتحقيق تمام الإحاطة بالمعلومات)[5].

فنعمة السكن من أظهر نعم الله على عباده ، يقول النبي ﷺ **(مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)** [6].

وذكر هذه النعمة التي أنعمها الله على عباده بأسلوب الاختصاص بتقديم (المسند) خبر شبه الجملة "الجار والمجرور" في قوله (وله) على المسند إليه (ما سكن) ، تأكيد على أن الله وحده هو المنعم على الجميع بتلك النعم ، فلا يشاركه في هذا الفضل أحد ، أفلا يختص –كذلك – بحقه في الألوهية والتشريع والحكم؟ ، فلا يشاركه فيه أحد .

---

1) تفسير ابن عثيمين
2) تفسير البغوي ج3 ص 131
3) البحر المحيط ج 5 ص 101
4) ابن جزي : التسهيل ج1 ص 404
5) التحرير والتنوير ج6 ص 35
6) رواه ابن ماجة ج12 ص 171 رقم 4131 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه 408/5 ، صحيح ابن ماجة 399/2 وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 112 رقم 300

قوله (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..) (14) أي (معبودًا أُوَالِيه بالعبادة والمحبة)[1]غير الله ، وهو أسلوب استنكار كما في قوله (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) [الزمر:64]، قال الرازي (هذا يقتضي **تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله** تعالى ، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى)[2] .

يقول الشعراوي (تطرأ علي الإنسان أحداث تؤكد له أنه ضعيف ، **وساعة ضعف الإنسان لا بد وأن يأوي إلى من هو أشد منه قوة** ، قال تعالى (**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**) [الشورى: 9] ، إن الولي – وهو الله – قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل ، إنه مُغيِّر ولا يتغير ، ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه وليّاً لهم)[3].

قال ابن القيم (كثير من الناس يرضى بالله ربا ولا يبغي ربا سواه لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرا بل يوالي من دونه أولياء ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك وهذا عين الشرك بل التوحيد : أن لا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء .

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد : أن لا يتخذ سواه ربا ولا إلها ولا غيره حكما)[4].

وقال ابن القيم (وحقيقة التوحيد وحقيقته إخلاص الدين كله لله ، بمعنى أن يفنى العبد في هذا التوحيد ، وهو فناء مقرون بالبقاء ، بإثبات ألوهية الحق في القلب ، وتنفي الإلهية عما سواه ، بذلك يجمع العبد بين النفي والإثبات ، فالنفي هو الفناء ، والإثبات هو البقاء ، وذلك تفصيل قوله (لا إله إلا الله) ، وحقيقته أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبمحبته عن محبة ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وكذلك بموالاته وسؤاله والاستغناء به والتوكل عليه ورجائه ودعائه والتفويض إليه والتحاكم إليه واللجوء إليه والرغبة فيما عنده)[5].

قوله (..فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..) (14) أي أن الاستدلال بالله خالق السماوات والأرض كاف بتوحيده وقطع الموالاة عما سواه ، ونظير ذلك قوله تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (إبراهيم 10) .

---

[1]) البحر المديد ج2 ص 131
[2]) تفسير الرازي ج 6 ص 335
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2447
[4]) مدارج السالكين ج2 ص 181
[5]) مدارك السالكين ج3 ص 483

وقد كان النبي ﷺ يدعو ربه بهذه الصفة ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ كَانَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ **فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1]

قوله (..وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ..) (14) أي : (يَرْزُق ولا يُرْزَق) ، أي (المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع)[2]، قال تعالى (**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**) (الشعراء 79) ، وخص الطعام من مجمل النعم لأنه رزق مباشر من الله للإنسان ، وهو المقوم الأساسي للحياة ، فنعمة الطعام من أظهر النعم ، قال تعالى (**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ** * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (عبس 24-32)

قال ابن عثيمين في الشرح (لولا أن الله تعالى يسر لك هذا الطعام ما حصل لك كما قال تعالى: (**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) فالإنسان ، لولا أن الله ييسر له الطعام من حين أن يبذر ثم ينبت ثم يحصد ثم يحضر إليه ثم يطحن ثم يعجن ثم يطبخ ثم ييسر الله له الأكل ما تيسر له ذلك)[3].

وشكر الله على هذه النعمة عظيم الثواب ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**)[4]

كما يقتضي إقرار العبد بنعمة ربه عليه أن **يتحرر من عبادة أسباب الرزق ، ولكن يعبد الله المسبب المباشر وحده** ، وهو الله سبحانه ، فلا يسأل أحدا غيره ، قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ, مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ, **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**) ، فإذا استيقن المسلم ذلك لم يذل لنفسه لغير الله تعالى ، فعن النبي ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ (يَا عِبَادِي **كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ** يَا عِبَادِي **كُلُّكُمْ**

---

[1]) رواه أبو داود ج2 ص 421 رقم 653
[2]) محاسن التأويل للقاسمي
[3]) العثيمين : شرح رياض الصالحين ج1 ص 814
[4]) رواه الترمذي ج11 ص 359 رقم 3380 وحسنه الألباني : صحيح الترمذي ج 3 ص 150 رقم 2751

عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي)[1] ، قال المناوي (فاستطعموني) اطلبوا مني الطعام (أطعمكم) أيسر لكم أسباب تحصيله) [2].

يقول ابن تيمية (**الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ** ، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ **وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ** ؛ فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى سَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ وَاَللَّهُ يُيَسِّرُ لَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ مَا يُصْلِحُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،فَإِنْ كَانَتْ الْأَسْبَابُ مَقْدُورَةً لَهُ وَهُوَ مَأْمُورٌ بِهَا فَعَلَهَا مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ،كَمَا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَكَمَا يُجَاهِدُ الْعَدُوَّ وَيَحْمِلُ السِّلَاحَ وَيَلْبَسُ جُنَّةَ الْحَرْبِ وَلَا يَكْتَفِي فِي دَفْعِ الْعَدُوِّ عَلَى مُجَرَّدِ تَوَكُّلِهِ بِدُونِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الْجِهَادِ ، **وَمِنْ تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا فَهُوَ عَاجِزٌ مُفَرِّطٌ مَذْمُومٌ**)[3] .

قوله (..وَلَا يُطْعَمُ..) (14) فكما كشفت الآيات عن مدى حاجة العبد إلى الطعام ، ومن ثم افتقاره لخالقه ورازقه ، فإذا كان ذلك هو شأن العباد ، فإن هذه الصفة ممتنعة على الله ، فحاشا لله تعالى أن يفتقر إلى مطعم ومشرب وما يحتاجه الإنسان من تنفس وتناسل ...الخ ، فهذا كله ممتنع عن الله ، وحاشا لله أن يكون به مثل هذا النقص ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (**مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**)[4] .

لكنها تضاف إلى الله سبحانه على **سبيل المجاز** كما جاء في الحديث القدسي (يقول الله **استطعمتك فلم تطعمني** قال فيقول يا رب وكيف استطعمتني ولم أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن **عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه** أما علمت أنك **لو كنت أطعمته لوجدت ذلك عندي** ، ابن آدم استسقيتك فلم تسقني فقال يا رب وكيف اسقيك وأنت رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا استسقاك فلم تسقه أما علمت أنك لو كنت سقيته لوجدت ذلك عندي)[5].

قوله (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ..) (14) وهذا يدل على أنه انقاد لأمر الله دون انتظار لأن ينضموا هم لهذا الأمر ، **فأمر إسلامه متأصل في قلبه ، لا علي سبيل التبع** ، فهو أول المسلمين في زمانه ، وذلك دليل على عظم المسئولية لأن **أول الشيء دليله** ، فكون أن النبي ﷺ أول من أسلم من أمته ، فإنه بذلك **يكون دليل لها ومرشدها وناصحها الأمين** ، وكل نبي أرسل إلى قومه كان يقول (**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**) ، أي أمين لإرشادكم وهدايتكم ، فبدلالة هذه الآية تأكد أن **النبي ﷺ قدوة لأمته** ، فبسيرته وحياته نقتدي ، وعلى سنته نقتفي أثره ، متبعين غير مبدلين .

وتضمنت الآية مبادرة إلى تكوين النواة الصلبة من المسلمين الذين يكونوا قدوة لمن بعدهم ، وهو ما فعل النبي ﷺ مع أصحابه الذين جاهدوا معه ونصروه كل غزواته ، حتى قال النبي ﷺ فيهم (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 455 رقم 4674
[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 359
[3]) مجموع الفتاوى ج8 ص 528
[4]) رواه البخاري ج22 ص 371 رقم 6830
[5]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 182 رقم 517 ومسلم في صحيحه ج12 ص 440 رقم 4661

نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)[1]، فأضحوا هم كذلك قدوة بعد النبي ﷺ ودليلا ومرشدين لنا على الطريق .

قوله (...وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (14) هو خطاب مباشر من الله لنبيه محمد ﷺ ناهيا له عن الشرك بكل صوره ، فتضمن إثبات عصمة النبي ﷺ من الشرك الأكبر والأصغر ، فضلا عن الرياء وحب السمعة ، ومن اتبع النبي ﷺ كان من عباده المخلصين والموحدين ، وهذا من باب المسارعة في سد أكبر أبواب المنكر وهو الشرك بالله تعالى ، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من الشرك ، فعن معقل بن يسار يقول : انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال يا أبا بكر "**للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**" فقال أبو بكر :وهل الشرك إلا من جعل مع الله الها آخر؟ قال النبي ﷺ "**والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل** ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره قال قل : "**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم**") [2].

قال الغزالي : (ولذلك **عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلا عن عامة العباد** ، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها **وإنما يبتلى به العلماء والعباد** المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح **فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم فوجدت مَخْلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فنازعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى إطلاع الخلق ولم تقنع بإطلاع الخالق** ،وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات وتوقيه للشبهات وتحمله مشقات العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء —الاعتزاز– ونظروا إليه بعين الاحترام وتبركوا بلقائه ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة وقدموه في المجالس وأكرموه في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين ، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات ، وشهوة هي أغلب الشهوات ، **فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية** ، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين ، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة)[3].

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 369 رقم 4610
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 250 رقم 716 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 259
[3]) إحياء علوم الدين ج3 ص 275 ، وانظر المناوي : فيض القدير ج4 ص 228 ناقلا عنه لكن هناك خطأ في النقل

فمن عصمه الله من الشرك الخفي فقد فاز ونجى ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ **مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ** قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ)[1] ، قال العلماء أي (من الشرك الجلي)، (أما الخفي وهو نحو الرياء فغير مانع من دخول الجنة)[2]، أي (وإن ارتكب كل كبيرة فلا بد من دخوله إياها إما ابتداء إن عفي عنه أو بعد دخوله النار حسبما نطقت به الأخبار)[3]، قال النووي (أما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها دخل الجنة أولا وإن كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة ، فإن عفى عنه دخل أولا وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد فى الجنة)[4].

ومن جهة أخرى فإن **من نجا من فتنة "الشرك الأكبر" فإنه لا يأمن من فتنة "الدنيا"** التي هي نوع آخر من الشرك ، حين تكون محبتها معادلة ومساوية لمحبة الآخرة ، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ (صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ فَقَالَ إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ "أَيْلَةَ" إِلَى "الْجُحْفَةِ" **إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي** وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا وَتَقْتَتِلُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[5]، أي (**أن رسول ﷺ في تلك الساعة كان لا يخشى على أمته الشرك**)[6] ، والمعنى أنه كان يتحدث مع أصحابه الذين جاهدوا معه في غزوة "أحد" ، وقد ثبتوا بعدما انخزل المنافقون وتركوا الجيش ، فلم يثبت معه غير الصادقون ، وهؤلاء لا يُخشى عليهم من الشرك"–أي الأكبر– ، لأنهم ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ولم يهابوا الموت ، وإنما خشي عليهم النبي ﷺ من أن تأتيهم الفتنة من جانب آخر ، وذلك حين يُمكنهم الله تعالى فتُفتح عليهم الدنيا ، فيصيرون للشرك من جهة أخرى ، أي من جهة تفضيل الدنيا على الآخرة .

قوله (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (15) جمع مخاوفه كلها في كلمة واحدة (معصية ربه) فالخوف من المعصية دليل علي الحرص على الطاعة والتوبة ، وعاصم من الوقوع في المعصية ، فالمؤمن يشمئز من المعصية لأنه يجد لذة القرب من الله ، والعكس كذلك صحيح ، قال ابن القيم (**يجد المذنب نفسَه مستوحشًا** قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه وبين نفسه ، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة ، وأمَرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين ، **وأطيب العيش عيش المستأنسين**)[7] .

والنجاة من المعصية يكون بالخوف من شؤمها الذي يؤدي إلى الحرمان من الطاعات والاستزادة منها ، قال ابن القيم (**المعاصي تزرع أمثالَها وتُولّد بعضها بعضا حتى يعِز على العبد مفارقتها والخروج منها** ، .. فمن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها أعملني أيضا ،فإذا عملها

---

[1]) رواه البخاري ج4 ص 457 رقم 1161
[2]) محمد بن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج4 ص 258
[3]) محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج7 ص 337
[4]) شرح النووي على مسلم ج2 ص 97
[5]) رواه مسلم ج11 ص 416 رقم 4249
[6]) محمد بن صالح بن عثيمين : شرح رياض الصالحين ج1 ص 2237
[7]) ابن القيم : الجواب الكافي ج1 ص 50

قالت الثانية كذلك وهلم جرا ،فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات ، وكذلك كانت السيئات أيضا حتي تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة)[1].

(**فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه** وضاقت عليه الارض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتي يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه ، **ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه** وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتي يعاودها حتي أن كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية اليها إلا لما يجد من الالم بمفارقتها)[2].

يقول الأعشى :- وَكَأسٍ شَرِبتُ عَلى لَذَّةٍ ..... وَأُخرى تَداوَيتُ مِنها بِها [3]

وقال آخر : - وكانت دوائى وهي دائي بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وخير علاج لمن اقتراف المعاصي هو الانشغال بالطاعات لتكون دليله ومرشده ، ذلك أن التزود بالصالحات ينهى عن الآثام ، قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ **الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت 45) ، فمن استيقظ لصلاة الفجر وقرأ قرآن الفجر وجد همة لأن يستكمل اليوم على ما بدأه من خير ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ)

والنصيحة لمن يخاف المعصية أن يدلج في السير ، فيجتهد في الطاعات قدر استطاعته ، قال ﷺ (**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ**)[4]، قال ابن عثيمين ("أدلج" يعني مشي في "الدلجة" وهي أول الليل ، ومن أدلج بلغ المنزل لأنه إذا سار في أول الليل فهو يدل على اهتمامه في المسير وأنه جاد فيه ، ومن كان كذلك بلغ المنزلة)[5]، قال المناوي (**المراد التشمير في الطاعة**، فمن خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالعمل الصالح خوف القواطع والعوائق ، وقيل هو حث على قيام الليل ، جعل قيامه من علامات الخوف لأن الخائف يدلج أي منعه الخوف من نوم كل الليل)[6] .

قوله (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)(16) ، من ذلك نفهم أن الذي يستوجب الدخول في رحمة الله اجتناب نواهيه وأخصها الشرك بالله ، فإن زل العبد فليبادر بالتوبة كي يقي نفسه مس النار ويظل في رحمة ربه ، قال المولى سبحانه (**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**) [طه:82] ، فإن حظي بذلك فقد فاز ، قال تعالى (**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ** وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) (آل عمران 185) .

---

1) الجواب الكافي ج1 ص 36
2) الجواب الكافي ج1 ص 36
3) الديوان : https://www.aldiwan.net/poem21912.html
4) رواه الترمذي ج8 ص 489 رقم 2374 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج5 ص 442 رقم 2334 وقال صحيح بشواهده
5) شرح رياض الصالحين ج1 ص 470
6) فيض القدير ج6 ص 159

قوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (17) ذلك من باب التسليم بالقضاء والقدر والرضى والإيمان به ، قَالَ تَعَالَى (**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**) ،قال رسول الله ﷺ (**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ** رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[1]، وقد جاء لفظ "الضر" في مقابلة "الخير" ، عدولا عن لفظ "الشر" لأنه ليس من شر يأتي من الله ولا ينسب إليه ، بل إن الضر قد يأتي بالخير كذلك ، ذلك أن مع العسر يسرا ، وأن النصر مع الصبر .

والإتيان بلفظ (**يمسسك**) في الضر والخير **دليل على سرعة تبدل الحال** ، ولابد أن يحصل ذلك ، فلا يغرق أحد في الخير مطلقا ، ولا في الضر أبدا ، بل لابد وأن تعتريه المتغيرات كلها ، قال تعالى (**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء 35) ، وقال (**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الأعراف 168)، يقول النبي ﷺ (**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**)[2].

قوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ..) (17) قال الشوكاني : والمعنى : (أن الله سبحانه هو الضار النافع . فإن أنزل بعبده ضراً لم يستطع أحد أن يكشفه كائناً من كان ، بل هو المختص بكشفه كما اختصّ بإنزاله)[3]

والحكمة من الابتلاء بالضر عظيمة ، فأيوب عليه السلام ابتلاه الله بالمرض ثم شفاه ، فكانت حكمته أن يبتليه ثم يشفيه ليعطى من الثواب العظيم ، والخير الكبير ، قال رسول الله ﷺ (**يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ**)[4]

ولا أحد يكشف الضر إلا الله ، كما في قوله (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) (الشعراء 80) ، ولا ينبغي للعبد أن يستعجل كشف الضر عنه ، لأن الله تعالى يكشفه عندما يحين أجله ، وكل شيء عنده بمقدار ، ولذلك قال نبي الله أيوب على استحياء (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ **أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ)(الأنبياء).

فإذا كان هذا الضر في الدنيا فأمره هين ، وإن كان في الدين فمصيبته عظيمة ، قال ابن القيم (ومن أعظم الضر حجاب القلب عن الرب وهو أعظم عذابا من الجحيم)[5] ، واستشهد بقوله (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم) ، وهذا الضر لا يكشفه كذلك إلا الله ، قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الحديد17) ، وقال (..وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص 56)

---

[1]) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 2440 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج 6 ص 16 رقم 2516
2) رواه الحاكم في المستدرك ج3 ص 623 رقم 6303 والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني الجامع الصغير ج1 ص 528 رقم 5272
3) فتح القدير للشوكاني ج3 ص 421
4) رواه الترمذي ج8 ص 422 رقم 2326 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدت ج5 ص 205
[5]) ابن القيم : مدارج السالكين ج3 ص 220

قوله (..وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (17) ذلك المساس أن يتلقي العبد نفحة من رحمات ربه ، فعن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال : (**اطلبوا الخير** –وفي رواية افعلوا الخير[1]– **دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم و يؤمن روعاتكم**)[2]، فعلى العبد أن يتلمس المواطن التي أخبرها عنها النبي ﷺ التي تنزل فيها رحمات الله ، كيوم عرفة ..، والمقصود هو استغلال الفرص كالتي تغلغل فيها الشياطين في شهر رمضان ، وأوقات السجود حيث يكون العبد أقرب من ربه وهو ساجد ، وأوقات الصلاة ، وتحين مجالس العلماء حيث تحفها الملائكة ..الخ .

قال المناوي (والمعنى اطلبوا الخير متعرضين لنفحات رحمة ربكم بطلبكم منه) ، فقيل (التعرض للنفحات الترقب لورودها بدوام اليقظة والانتباه من سنة الغفلة حتى إذا مرت نزلت بفناء القلوب)[3] ، قال الغزالي (والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة)[4]

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها الثلث الأخير من الليل ووقت السحر ، قال رسول الله ﷺ (قَالَ **يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ**)[5] ، ويقول النبي ﷺ (إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ)[6].

ومن صور المساس بالخير أن يسمع العبد وهو سائر آية من آيات الله تتلى عليه فتناله بركتها ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[7].

وخير خير يمس المؤمن أن يفقه مسألة في الدين ، فإذا أراد الله بعبده خيرا يفقه في الدين ، لقول رسول الله ﷺ(**مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**)[8] ، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا ذَرٍّ **لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ** ، وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَابًا مِنْ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ)[9]، ويعضده قول النبي ﷺ (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)[10]

قوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (18) القَهَّارُ من صفات الله عز وجل [11]، قال أهل اللغة (**القَهْرُ الغَلَبة** ، والأَخذ من فوق)[12]، قال الفراهيدي (يُقالُ **أخذهم قَهْراً** أي من غير رضاهم) [13]، قال الأَزهري (والله القاهرُ القَهّار قَهَرَ خَلْقَه بسلطانه وقدرته وصَرَّفهم على ما أَراد طوعاً وكرهاً والقَهَّار للمبالغة)[14].

---

1) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج1 ص 250 رقم 724 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 389 رقم 1890
2) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج2 ص 42 رقم 1121 وحسنه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 511 رقم 1890 ، المجلدات389/4
3) فيض القدير ج1 ص 691
4) إحياء علوم الدين ج3 ص 9
5) رواه أحمد ج34 ص 103 رقم 16147 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 34
6) رواه مسلم ج4 ص 135 رقم 1259
7) رواه أحمد ج17 ص 180 رقم 8138 وضعفه الألباني
8) رواه ابن ماجة ج1 ص 256 رقم 216 والبخاري في صحيحه ج1 ص 126 رقم 69
9) رواه ابن ماجة ج1 ص 354 رقم 215 (ضعيف الإسناد) ولكن معناه صحيح لأن الأحاديث الصحيحة تدل على هذا الفضل .
10) رواه الترمذي ج9 ص 299 رقم 2609 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوي ج1 ص 67
11) لسان العرب ج5 ص120

فصفة القهار تليق به سبحانه ، فما من ملك من ملوك الدنيا إلا قهره الله بمرض وبسلب ملكه ثم قهره بالموت ، (ولم يأت اسم الله القاهر في السنة إلا في حديث حصر الأسماء الحسنى عند ابن ماجة)[1]

والفوقية صفته وتقتضي علو الشأن وتنفي المماثلة مع خلقه ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الشورى 11) ، أي (وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله كل شيء وذل لعظمته وكبريائه كل شيء ، وعلا بذاته على عرشه فوق كل شيء وعلو الشأن ، فتعالى عن جميع النقائص والعيوب المنافية لإلهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى)[2].

قال العلماء (اجتماع "علو القهر" مع "علو الفوقية" يعني أنه الملك من فوق عرشه الذي علا بذاته فوق كل شيء والذي قهر كل شيء وخضع لجلاله كل شيء وذل لعظمته وكبريائه كل شيء)[3]

قال السهيلي (ولا يستحيل وصفه تعالى بالفوق على المعنى الذي يليق بجلاله، لا على المعنى الذي يسبق إلى الوهم من التحديد الذي يفضي إلى التشبيه)[4]، معنى كلامه إثبات صفة "الفوقية" لله جائزة ومعقولة إذا كانت تدل على **فوقية القهر والقدر** والعلو المطلق الذي يليق بجلاله، بينما تُمنع وتُستحيل إذا كان يُقصد بها الفوقية المكانية المادية (التحديد والتحيز) التي تؤدي إلى التشبيه بالمخلوقات ، قال أبو حيان (وأبعد من قال أن "فوق" تدل على أنه تعالى حال في الجهة التي فوق العالم ، إذ يقتضي هذا القول التجسيم ، والجمهور ذكروا أن الفوقية هنا مجاز)[5].

قال الشيخ البراك :قول السهيلي: "ولا يستحيل وصفه تعالى بالفوق :" ..... هذا يتضمن أن الفوقية منها ما يستحيل على الرب سبحانه فيجب نفيه، ومنها ما لا يستحيل عليه فلا مانع من إثباته، وعليه يحمل ما جاء من وصف الله تعالى بالفوقية. وهذا التفصيل مبني على نفي علو الله تعالى بذاته على خلقه واستوائه على عرشه؛ فالفوقية ثلاثة أنواع:-

1- فوقية الذات

2- فوقية القدر

3- فوقية القهر

ونفاة العلو من الجهمية ومن تبعهم يثبتون فوقية القدر والقهر دون فوقية الذات

وأهل السنة والجماعة **يثبتون له سبحانه الفوقية بكل معانيها**؛ كما قال تعالى" :وهو القاهر فوق عباده"، كما يقولون مثل ذلك في العلو؛ فعندهم أن الله سبحانه فوق سماواته على عرشه[6].

---

12) الخليل بن أحمد كتاب العين ج3 ص 365
13) كتاب العين ج3 ص 366
14) لسان العرب ج5 ص 120
1) السيد محمد بن علوي المالكي : منهج السلف في فهم أسماء الله الحسنى ج22 ص 2
2) معارج القبول ج1 ص 144
3) منهج السلف في فهم أسماء الله الحسنى ج32 ص 69
4) فتح الباري لابن حجر ج7 ص 412
5) تفسير البحر المحيط ج5 ص 97
6) تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية ج1 ص 35

قوله (..وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (18) ذكر صفتي (الحكيم الخبير) يدل على أن الله تعالى **يقهر عباده بحكمة ، لا من باب العبث** ، بل هو خبير بأحوال عباده ، **فيقهرهم بالكيفية وفي الوقت المناسب لأحوالهم** .

قال ابن كثير " هو الذى خضعت له الرقاب ، وذلت له الجباه، وعنت له الوجوه ، **وقهر كل شيء** ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء ، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه " ، فقوله (وَهُوَ الْحَكِيمُ) أي: (في جميع ما يفعله) ، وقوله (الْخَبِيرُ) أي : (بمواضع الأشياء ومحالها، **فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق**) [1]

قوله (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) (19) بعدما انتهت الآيات من تعريف الذين كفروا بالإله الحق وبينت صفاته وعظمته شرعت بعد ذلك في الإتيان بدلائل النبوة ، ذلك أنه لما كان كل نبي مؤيد بمعجزة من الله تشهد له بصدق نبوته ، كان السؤال **أين معجزة النبي ﷺ** ؟ فأحالت الآيات إلى القرآن المنزل عليه الذي هو **كلام الله** فهو أكبر شهادة لنبوته .

فقوله (..اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ..) (19) أي كلامه المنزل على عبده وهو "القرآن الكريم"، **فالقرآن هو معجزة هذا الدين** ، قال المفسرون (سألت قريش شاهداً على صحة نبوة محمد ﷺ فقالوا : أي دليل يشهد بأن الله يشهد لك؟ فقال : هذا **القرآن تحديتكم به فعجزتم عن الإتيان بمثله** أو بمثل بعضه)[2]، وعليه كان لزاما أن يتضمن الخطاب الدعوي شيئا من القرآن الكريم حتى يكون للخطاب شاهد عليه ودليل علي صدقه .

قوله (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)(19) أي (لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر به أيضاً جميع من بلغه هذا الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم) [3]، قال الشنقيطي (صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائناً من كان)[4]، قال ابن تيمية (**فكل من بلغه القرآن فهو مخاطب به** يتناوله خطاب القرآن)[5] ،وقال (**فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه**) [6].

فإذا كان الأمر كذلك فإن بلاغ هذا القرآن للكافة فرض على الكفاية لقول رسول الله ﷺ (**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**)[7] ، أي على مجموع الأمة ، وقال ابن تيمية (فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنْ إنْسِيٍّ وَجِنِّيٍّ فَقَدْ أَنْذَرَهُ الرَّسُولُ بِهِ)[8].

فقوله (..وَمَنْ بَلَغَ..) يقصد بهم على وجه الخصوص أهل الكتاب الذين يعرفون صفة النبي ﷺ في كتبهم ، بل ويستفتحون على مشركي مكة قرب قدومه .

---

[1]) تفسير ابن كثير ج3 ص 244
[2]) البحر المحيط ج5 ص 108
[3]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1317
[4]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج1 ص 475
5) الجواب الصحيح ج2 ص 239
6) الجواب الصحيح ج2 ص 293
[7]) رواه البخاري ج11 ص 277 رقم 3202
[8]) مجموع الفتاوى ج16 ص 149

لكن المعنى العام للآية أي "ومن بلغه القرآن" : (**فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه فهو منذر به**) [1]، قال ابن تيمية (والأحاديث التي رويت في امتحان الأطفال والمعتوهين والهالك في الفترة إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم لم تبلغهم الدعوة ولم يعقلوا الاسلام ..، وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ لا يدل على عدم ترتيبها عليهم في الآخرة)[2]

أما **من لم يبلغه القرآن** دون تقصير منه **فهو معذور ، ولم تقام عليه الحجة حتى يبتلى بالعلم فيعمل بما علم** ، فعن النبي ﷺ قال (أربعة يوم القيامة يدلون بحجة أصم لا يسمع ورجل أحمق ورجل هرم ومن مات في الفترة فأما الأصم فيقول : يا رب جاء والصبيان يقذفوني بالبعر وأما الهرم فيقول : لقد جاء الإسلام وما أعقل وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني رسولك فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار) قال : (فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما) [3].

قوله (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)وهذا هو بيت القصيد ، إذ يبين إشكالية كل نبي مع قومه ، وهي أنهم يشركون بالله ، ويشهدون بذلك زورا وبهتانا ، وهو يؤمن بالله ويكفر بما يشركون به ، ويدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، ويتبرأ من شركهم .

فحال النبي ﷺ معهم كحال مؤمن آل فرعون من قومه قال تعالى (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) (42) .

وحال قريش مع نبيها محمد ﷺ مثل حال بني إسرائيل مع موسى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (الأعراف 138) .

وأكثر صور الشرك شيوعا في العبادة هي الالتفات إلى الأسباب ، واعتقاد أن السبب بذاته ينفع أو يضر ، والله سبحانه قادر على أن يعدم هذه الأسباب فاعليتها فلا تنفع ولا تضر ، مثال ذلك الأجير لدي صاحب العمل قد يطيعه في معصية الله حتى لا يفصله عن العمل فيظن أنه مضطر لذلك حتى لا ينقطع رزقه ، فإن اعتقد ذلك فهو مشرك بالله ، لأنه اعتقد أن العمل هو الذي يرزقه ، فصار عبدا للعمل وما هو إلا سبب للرزق ، والله هو الرزاق بلا سبب ، قال ابن تيمية (**الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ** .. . وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ الِالْتِفَاتَ إلَى السَّبَبِ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ وَرَجَاؤُهُ وَالِاسْتِنَادُ إلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شُرَكَاءَ وَأَضْدَادٍ وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ لَمْ يُسَخَّرْ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ)[4] .

---

[1]) تحفة المودود بأحكام المولود ج1 ص 296
[2]) تحفة المودود بأحكام المولود ج1 ص 296
3) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج1 ص 287 رقم 845 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 89 رقم 883
[4]) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج8 ص 169

قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (20) التفات إلى من بلغهم علم الكتاب المشار إليهم بقوله سبحانه (وَمَنْ بَلَغَ) ، فهم أهل الكتاب – على وجه الخصوص – الذين يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم لشدة معرفتهم بعلاماته ، قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ **مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**) (الأعراف 157) ، فهم يشهدون لنبيهم بالصدق لأنهم أُخبروا بعلاماته في كتبهم .

لكن بعضهم ولأنهم عبدوا الأسباب أي (الدنيا) باعوا دينهم بثمن بخس ، فخسروا أنفسهم ، وحال ذلك بينهم وبين شرف تصديق النبي ﷺ ونصرته ، ولأجل ذلك حرفوا التوراة والأنجيل لتوافق أحكامهما المزيفة أهواءهم ، بذلك حذفوا منهما ما يصدق النبي ﷺ افتراء على الله وتكذيبا لنبيهم ﷺ .

قال الشيخ الشعراوي (خسروا أنفسهم؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . **وخسارة النفس تفوق خسارة المال**؛ لأن خسارة المال مردودة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير ...لكنَّ بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنتين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة) [1] ، قال ابن عاشور في قوله تعالى (خسروا أنفسهم)أي عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم وهو **العقل والتفكير**) [2]، قال السيوطي في قوله تعالى (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (لأنهم **كفروا به بعد المعرفة**)[3].

قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (21) الظلم المنسوب لأهل الكتاب الذين ذمهم القرآن الكريم كان بسبب تحريفهم التوراة والإنجيل وافترائهم الكذب على الله ، ومثلهم من كذب بالقرآن ولم يصدق به ، فكلاهما سواء في الذم ، ويشبههم في ذلك من يحرف أحكام الله تعالى عن مواضعها ، ويؤولها على غير تأويلها .

وهؤلاء يخبرنا الله تعالى بخسرانهم ، وفشلهم في خططه (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) قال صاحب الظلال (والله – سبحانه – يقرر الحقيقة الكلية؛ ويصف **الحصيلة النهائية للشرك والمشركين** – أو للظلم والظالمين – فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، في الأمد القريب ، فلاحاً ونجاحاً . . فهذا هو **الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار**)[4] .

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2471
[2]) التحرير والتنوير ج6 ص 34
[3]) الدر المنثور ج4 ص 41
[4]) في ظلال القرآن ج3 ص 1

المطلب الثالث

مواساة النبي ﷺ في تكذيب الكافرين له ، وكثرة المنافقين والمرائين ، باستظهار حالهم يوم القيامة

قال تعالى (وَيَوْمَ **نَحْشُرُهُمْ** جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا **أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ** الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَمِنْهُمْ مَنْ **يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ **يَفْقَهُوهُ** وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ **يُجَادِلُونَكَ** يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ **يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ** عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ **وُقِفُوا عَلَى النَّارِ** فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ **وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ** قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ **كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ** حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا **الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ **لَيَحْزُنُكَ** الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (33)

قوله (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)(24) قال حقي (يروى أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد قال بعضهم لبعض **تعالوا نكتم الشرك** لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر فلا يفلحون)[1].

فعن ابن عباس قال في قوله (ثم لم تكن فتنتهم) قال : حجتهم ، وقوله (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) يعني المنافقين والمشركين قالوا وهم في النار : هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا . فقال الله (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم) في القيامة (ما كانوا يفترون) يكذبون في الدنيا)[2]

كما (تصف الآيات حال أناس ظنوا أنهم في الدنيا، بعيدين عن الشرك، خالية قلوبهم من آثاره، وإذ بهم يجدون أنفسهم يوم القيامة من المشركين)[3]، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ "ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" ، يَعْنِي:"**الْمُنَافِقِينَ الْمُشْرِكِينَ**، وَإِنَّمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ مُنَافِقِينَ، لأَنَّهُمْ كَتَمُوا الشِّرْكَ، وَأَظْهَرُوا الإِيمَانَ، فَقَالُوا وَهُمْ فِي النَّارِ: هَلُمُّوا فَلْنَكْذِبْ هَاهُنَا، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَنْفَعَنَا كَمَا نَفَعَنَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّا كَذَبْنَا فِي الدُّنْيَا فَنَفَعَنَا، حَقَّنَّا دِمَاءَنَا وَأَمْوَالَنَا، فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا مَا

---

[1]) إسماعيل حقي الاستانبولي : تفسير روح البيان ج3 ص 16
2) الدر المنثور ج4 ص 43 ، تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 207
3) مدونة عبد الله السُكرُمي : خاطرة من أحد رواد منتدى ملتقى أهل الحديث : https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=255076

كُنَّا مُشْرِكِينَ"[1]، وقيل (هم **أهل الرياء من أهل التوحيد** يزعمون أنهم على اليقين وكمال الاخلاص وأفعالهم الصادرة عن جوارحهم تدل على خلاف ذلك)[2].

فعن معقل بن يسار يقول : انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل فقال أبو بكر وهل الشرك إلا من جعل مع الله الها آخر قال النبي ﷺ (والذي نفسي بيده **للشرك أخفى من دبيب النمل** ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره قال قل **اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم**)[3]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ قَالَ قُلْنَا بَلَى فَقَالَ **الشِّرْكُ الْخَفِيُّ** أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)[4] .

وقَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ **الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ** قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ **كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا** فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً)[5] .

وقال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ **كَذَبْتَ** وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ **يُقَالَ جَرِيءٌ** فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ **كَذَبْتَ** وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ **لِيُقَالَ عَالِمٌ** وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ **كَذَبْتَ** وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ **لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ** فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ)[6].

قوله تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى **قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)(25) قال الحسن البصري (**ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يُعلم في ماذا أنزلت وماذا عنى بها**)[7] ، لكن هؤلاء المشركين حالهم على العكس من ذلك تماما ، فمنهم من يستمع لكلام رسول الله ﷺ ، ولكنهم لا يفهمون شيئا مما قيل ، حيث حال بينهم وبين فهم كلام الله ورسوله أن طال الزمان على حواسهم المعطلة ، فقد صدأت من عدم الاستعمال ، لانشغالهم بحياة البهائم ، ولم يدركوا أهمية تغذية الروح كما اهتموا بتغذية الأجساد ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: " أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 205
2) إسماعيل حقي الاستانبولي : تفسير روح البيان ج3 ص 16
3) الأدب المفرد ج1 ص 350 رقم 716 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 259 رقم 552/712
4) رواه ابن ماجة ج12 ص 246 رقم 4194 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 410 رقم 4489
5) رواه أحمد ج48 ص 123 رقم 22523 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 25 رقم 951
6) رواه مسلم ج10 ص 9 رقم 3527
7) محاسن التأويل للقاسمي الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية ج1 ص 13 ، مجموع فتاوى ابن تيمية في التفسير ج2 ص 247

آذَانِهِمْ وَقْرًا " ، قال:"يَسْمَعُونَهُ بِآذَانِهِمْ، وَلا يَعُونَ مِنْهُ شَيْئًا، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي تَسْمَعُ النِّدَاءَ، وَمَا تَدْرِي مَا يُقَالُ لَهَا"[1]، قال ابن تيمية (ذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص لكن **حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم** لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح)[2] .

ولذلك تراهم لا يؤمنون بالآيات وإن رأوها بأعينهم ، لأن قلوبهم لا تصدق ، وأمثال هؤلاء يحتاجون لإيصال الخطاب الدعوي لهم ما يزيل عن قلوبهم الأكنة ، وما يزيل عن آذانهم الوقر ، فيجب عليهم الانتهاء فورا عن التلبس بالمعاصي ، ليتسنى لهم رؤية نور الشرع ، فالمتلبس بالزنا والسرقة لا يمكن له أن يرى نور الإيمان إلا أن ينتهي .

فسبب حالتهم هذه الإسراف في المعاصي ، وعدم المبادرة بالتوبة حتى تراكمت الذنوب فحالت بينهم وبين الإيمان بالله ، ف عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ **الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ** فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا **حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ** الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

وعنْ حُذَيْفَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا [3]**لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا** إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ) [4] ، سئل سَعْد يَا أَبَا مَالِكٍ مَا أَسْوَدُ مُرْبَادًّا قَالَ شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ قَالَ قُلْتُ فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا قَالَ مَنْكُوسًا[5]، قال ابن القيم : (شبه عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير ، وهي طاقاتها شيئا فشيئا وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس .

فالأكنة هي الغشاوة التي تغلف القلب ، وهي داء الكبر ، قال ابن القيم (هي التي ضربها الله على قلوبهم عقوبة له على **رد الحق والتكبر عن قبوله** ، .. فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولى أصحابها على أدبارهم نفورا)[6] ، والقلب هو مركز الشعور والأحاسيس ، لذلك فهو محل الفتنة ، المشار إليها في قوله (لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) .

وقوله (..أَنْ يَفْقَهُوهُ..) (25) قال الشعراوي أي (**كراهية أنْ يفقهوه**؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم ، **بل برضاهم** وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، **فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع ، بل يريد قلوباً**

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 208
2) ابن تيمية : أمراض القلب وشفاؤها ج1 ص 10
3) المربد والمرباد الذي في لونه ربدة وهي بين السواد والغبرة ، كالكوز مجخيا : أي مائلا عن الاستقامة منكوسا انظر/ محمد بن أبي نصر الحميدي : تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ج1 ص 22
4) رواه مسلم ج1 ص 349 رقم 207
5) رواه مسلم ج1 ص 349 رقم 207
6) إغاثة اللهفان ج1 ص 11

تخشع ، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته)[1] .

قوله (..وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..) (25)كناية عن تعطل ألة الاستقبال عندهم ، لا لعطب في الآلة ذاتها ، بل هي سليمة ، ولكن لوجود عائق يحول دون وصول الموجات الصوتية لطبلة الأذن ، وقد يكون هذا العائق هي أصابعهم أنفسهم ، إذ استمعوا ابتداء فلم يعجبهم القول فوضعوا أصابعهم في آذانهم تكبرا وإعراضا كقوم نوح ، وقد يكونوا لووا أعناقهم يمينا ويسارا استكبارا عن سماعه .

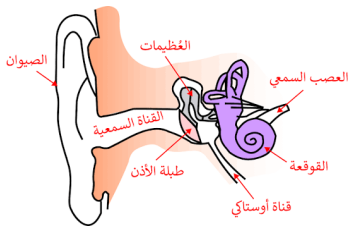

فعدم الاستماع القلبي صفة كل متكبر ، لأنه المتكبر يرى نفسه على صوابه وغيره على خطأ ، فلا يفترض العكس ، ولو بطريقة منهجية في التفكير ، فهو يعيش في وهم مطلق ، فهو من هذا المنطلق يزدري الناس ، ولا يزن لقولهم قيمة ، يستخف بهم ، ولذلك قال رسول الله ﷺ (**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**)[2] ، قيل غمط الناس (الاستخفاف بالناس) ، وقيل (احتقارهم وازدراؤهم)[3] ، فالمتكبر يريد أن يتكلم هو وغيره هو الذي يستمع ، لأنه يرى أنه إذا استمع لغيره نزل عن برجه العالي لمن هو دونه .

قوله (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا..) (25) يعني يصير قلبه "كالكوز مجخيا" أي مكبوبا منكوسا .

قال ابن القيم (فإذا اسود وانتكس عرض له مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك :-

أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا والسنة بدعة والبدعة سنة والحق باطلا والباطل حقا .

الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى واتباعه له)[4] .

قوله (..حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ..) (25) قال ابن كثير أي (يحاجونك ويناظرونك في الحق **بالباطل**)[5]، قال ابن عاشور (يخيلون للدهماء أنهم قادرون على مجادلة الرسول ﷺ وإبطال حججه ثم ينهون الناس عن الإيمان).

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5215

2) رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131

[3]) ابن حجر : فتح الباري ج10 ص 260 غريب الحديث لابن سلام ج1 ص 317 ، عبد المحسن العباد : شرح سنن أبي داود ج23 ص 126

4) إغاثة اللهفان ج1 ص 11

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه وقوته والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات فتن الغي والضلال فتن المعاصي والبدع فتن الظلم والجهل فالأولى توجب فساد القصد والإرادة والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد فقوله : قلب أجرد أي متجرد مما سوى الله ورسوله فقد تجرد وسلم مما سوى الحق و فيه سراج يزهر وهو مصباح الإيمان : فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغى وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان

قال ابن القيم (أشار بالقلب المنكوس وهو المكبوب إلى قلب المنافق كما قال تعالى : (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا) [النساء : 88] أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه **بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة** ، وهذا شر القلوب وأخبثها ، فإنه **يعتقد الباطل حقا ويوالي أصحابه ، والحق باطلا ويعادى أهله**)[1] .

قوله تعالى (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) قال ابن كثير أي: (ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم)[2]، وذلك لأنها **أقرب شبهة تنطلي على عقول الدهماء** ، وذلك لقربهم من أهل الكتاب ، فلما حرفوا كتبهم فقد الناس الثقة في أهل الدين ، وعندما ينسبون ما جاء به النبي ﷺ من القرآن إلى ما كان سطره المحرفون من أهل الكتاب بغية إهدار قيمته في أعينهم ، فإنهم يحولون بذلك بين النبي ﷺ وأن يصدقه أحد من الناس ، وهكذا يصير الدين في مفهوم الناس **ثقافة موروثة وتقاليد متبعة عن "الأولين"** ، وليس في ظنهم "**الأولين**" بخير من "**الآخرين**" الذي يعيشون بثقافات متنوعة وتقاليد جديدة ، وقد عفا الزمان عن تقاليد وثقافات آبائهم القديمة .

قوله (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ..) (26) قال الشعراوي (والكافر من هؤلاء إنما **ينأى عن مطلوب** رسول الله ﷺ – **أي يبتعد**– ولا يريد أن يهتدي ، ويمعن في طغيانه **فينهى غيره** عن الإيمان ، فكأنه ارتكب **جريمتين** : جريمة كفره ، وجريمة نهي غيره عن الإيمان ، لقد كانت قريش على ثقة من أن الذي يسمع القرآن يهتدي به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره (**وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**) [فصلت : 26] ، إنهم واثقون من أن القرآن **يقهرهم بالحجة** ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران ،وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً في الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة في البلاغة العربية ، ومع ذلك **ظل الكافرون على عنادهم** بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، .. ، وقد عارضوا دعوة النبي ﷺ لأنها **ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء** ، وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها)[3] .

قوله (..وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (26) قال ابن عاشور (يظنون بالنهي والنأي عن القرآن أنهم يضرون النبي ﷺ لئلا يتبعه الناس)[4] فهذا الجهد الذي يبذلونه في نهي الناس عن سماع القرآن والاقتراب من محمد وأصحابه سوف يذهب سدى ، ، بما يسمى **الإسلاموفوبيا** –أي الرهاب من المسلمين أو من أي مظهر إسلامي دون مبرر منطقي –، ولا

---

[5]) تفسير ابن كثير ج3 ص 247
[1]) إغاثة اللهفان ج1 ص 11
[2]) تفسير ابن كثير ج3 ص 247
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2482
[4])

طائل من أفعالهم في تخويف الناس من الإسلام ، بل الذي سوف يحصل هو العكس من ذلك ، فعلى المدى البعيد أثبتت التجربة أن ظاهرة الإسلاموفوبيا بدأت تنحصر وتقل ، وأصبح إقبال الناس على الإسلام وتعلم أحكامه في ازدياد[1].

قال صاحب الظلال (لقد كانوا على يقين من أنه ليس أساطير الأولين ، وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تجدي لو ترك الناس يسمعون! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم... وهذا الجهد كله الذي كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن؛ ومن التأثر به والاستجابة له ... هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه في الحقيقة لإهلاك أنفسهم – كما يقرر الله – سبحان)[2].

فعلي سبيل المثال : نشرت مبادرة (Tracking Hate Lab) "وهي مبادرة بحثية تشترك فيها عدة مؤسسات" تقريرًا حول تحولات ظاهرة "معاداة الإسلام" في أستراليا في خلال المدة من يناير 2023 حتى يناير 2026، بعنوان: "من الصدمة إلى التنظيم: تصاعد معاداة الإسلام في أستراليا

" (From Shock to System: The Rise of Anti-Muslim Hate in Australia)

ويمثل هذا التقرير، المعتمد على تقنيات البيانات الضخمة وتحليل أكثر من مليون منشور عبر الإنترنت ومئات الحوادث الواقعية، وثيقة بالغة الأهمية تكشف عن تطور بنيوي خطير؛ حيث تحولت كراهية المسلمين من مجرد ردود أفعال عشوائية وفردية عقب الأزمات إلى شبكات "منظمة وهرمية" تمتلك القدرة على الحشد السريع وإحداث أضرار مجتمعية بالغة[3].

قوله (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (28) قال الشنقيطي (هذه الآية الكريمة تدل على أن الله جل وعلا الذي أحاط علمه بكل موجود ومعدوم، **يعلم المعدوم الذي سبق في الأزل أنه لا يكون لو وجد كيف يكون**، لأنه يعلم أن رُد الكفار يوم القيامة إلى الدنيا مرة أخرى لا يكون، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون)[4] ، ومن الآيات الدالة على المعنى المذكور قوله تعالى (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ **وَكَشَفْنَا** مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ **لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ** يَعْمَهُونَ) [المؤمنون 75] ، قال الرازي (المقصود من الآية بيان غلوهم في الإصرار على الكفر وعدم الرغبة في الإيمان)[5] ، قال حقي (الإيمان عند **المعاينة إيمان يأس** ، فلا يقبل)[6].

---

[1]) د دحمان عبد الحق : إشكاليات ترسيم الإسلاموفوبيا في الفكر والواقع السياسي المعاصر : الوحدة السياسية – مركز المجدد للبحوث والدراسات
مصطفى بن تمسك، الإسلاموفوبيا: مقاربة جيوسياسية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للأبحاث والدراسات، 2017.
هدى العبادي، مكافحة صناعة رهاب الإسلام نحو استراتيجية أكثر فعالية، ماي 2018.
https://almojaded.com/2022/03/03/fdree/

[2]) في ظلال القرآن ج3 ص 6

[3] This text was copied from: https://azhar.eg/observer/
بوابة الأزهر الالكترونية : تقرير صادم يكشف تحول معاداة الإسلام من ردود فعل عشوائية إلى شبكات منظمة في أستراليا

[4]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج1 ص 476 ، القشيري ج2 ص 222

[5]) تفسير الرازي ج6 ص 258

[6]) تفسير حقي : روح البيان ج1 ص 173

قال ابن عاشور (نفوسهم التي كذبت فيما مضى **تكذيب مكابرة** بعد إتيان الآيات البينات، **هي النفوس** التي أرجعت إليهم يوم البعث ، فالعقل هو العقل والتفكير هو التفكير ،وإنما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول **فتوهموا التخلص منه** بهذا التمني فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من ذلك الهول **لغلبت أهواؤهم رشدَهم** فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة، وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس ، فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه **انفعال العجماوات من الزجر والسوط** ونحوهما ، ويزول بزواله حتى يعاوده مثله)[1].

وما كانوا يخفونه من قبل هو كتمان الإيمان والإصرار على المعصية والعودة إليها ، لعشقهم لها ، قال ابن القيم (فمعنى الآية – والله أعلم بما أراد من كلامه – أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله ، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا ، فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين **معنى الاضراب بـ "بل"** وتبين معنى الذى بدا لهم **والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم** يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ، فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم **أخفوه** ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه ، **فلم يكن الحامل لهم** على تمنى الرجوع والايمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل وأن الرسل على الحق، **فعاينوا ذلك عيانا** بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه ، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل **وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب** الذى لا طاقة لهم باحتماله) [2]

وضرب لذلك مثلا فقال (وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه ، فقيل له إن اطلع عليه وليه عاقبَك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول بل محبته ومعاشرته هى الصواب ، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يُعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة بل بعد أن مسته وأنهكته ، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهى عنه)[3].

قوله (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(29) أى : (بلغ بالكافرين الحب الدنيا والتعلق بها مبلغا أن قالوا : ما الحياة – التى تسمى حياة فى نظرنا – إلا هذه الدنيا التى نتمتع فيها بما نسترسل في شهوات ، وما نحن بمبعوثين ولا بمحاسبين)[4]

---

[1]) التحرير والتنوير ج6 ص 62
[2]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 371
[3]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 371
[4]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1449 مع بعض التصرف

ونظيرتها قوله (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) (الجاثية 24) فقد أكد المعنى علي حصر الحياة حقيقة – في خلدهم وتصورهم – على الحياة المادية العاجلة ، وقصرها عليها ما يتضمن نفي أن تكون ثمة حياة في الآخرة ، فدل على المبالغة في القطع بعدم وجود حياة أخرى ، قال ابن عاشور (هذا القصر قصر حقيقي في اعتقادهم لأنهم لا يؤمنون باعتراء أحوال لهم بعد الموت)[1] ، فصدق فيهم قول الحق (**إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا**) (النبأ 27) .

يقول الشعراوي (الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا ، بل **الدنيا هي موضوع الدين** ، أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد في زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما في الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات ، نقول : إن **الإقبال على الدين بروح من الفهم** هو الذي يبني الحضارات ويُثاب المصلح في الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن **المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً**؛ يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزاءً)[2].

قوله (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ **أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ** قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)(30) الآية تصف موقفهم يوم القيامة أي الوقوف موقف الحشر أمام الله خاشعين وهم ينتظرون الحساب ، يقفون والشمس تدنو من فوق رؤوسهم ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْخَلْقِ** حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ[3] فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا ،وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِيَدِهِ إِلَى فِيهِ)[4].

قال البقاعي (هذا مجاز عن الحبس في مقام الجلال على (ربهم) ، أي الذي طال إحسانه إليهم وحلمه عنهم ، فهو في **هذا المقام يظهر لهم تبكيتهم وتوبيخهم وتقريعهم** ، فيسألهم سؤال توبيخ "أليس هذا بالحق"؟ فسياق الآية يرشد إلى أن الله يكلمهم كلام إنكار وإخزاء وإذلال ...وهم يعاينون الجنة والنار رأي العين .

قال ابن عباس (يوم القيامة ذو ألوان : **تارة لا يكلمهم الله ، وتارة يكلمهم فيكذبون ، وتارة يسألهم عن شيء فينكرون ، فتشهد جوارحهم ، وتارة يصدقون ، ويحلفون على الصدق**)[5].

(فهو يوم طويل ذو ألوان تارة يسأل فيه، وتارة لا يسأل والأمر في غاية الشدّة وكل لون من تلك الألوان يسمى يوماً فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض)[6]

قوله تعالى (..قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)(30) أي عاينوا بأعينهم الجحيم فاعترفوا به ، وأمنوا به إيمان المضطر ، فحق عليهم العذاب ، لأنهم لم يؤمنوا إيمان الغيب ، فصار عين الجحيم حق اليقين .

---

[1]) التحرير والتنوير ج25 ص 332
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2492
3) قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ قَالَ
[4]) رواه مسلم ج14 ص 22 رقم 5108
[5]) نظم الدرر ج3 ص 41 مع بعض الاختصار
[6]) تفسير السراج المنير ج1 ص 4424

والتعبير عن عذاب النار بقوله (فذوقوا العذاب) يدل على أنه عذاب حقيقي ، وليس مجازي ، بما يقطع الجدال في هذه المسألة ، فهو عذاب ملموس وحسوس يمكن تذوقه ، استعارة مكنية عن الألم ، كما في قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)(56) .

قوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ **السَّاعَةُ بَغْتَةً** قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا)(31) خسروا الدنيا قبل أن يخسروا الآخرة ، لأنهم حرموا أنفسهم لذة لقاء الله كل يوم خمس مرات في كل صلاة ، والتضرع والوقوف بين يديه ، ومناجاته وطلب رحمته ، ففرطوا في حق الله اختيارا ، فإذا جاء لقاء الله اضطرارا ، شعروا بالحسرة أن كانت الفرصة مواتية فيما مضى لكنهم أضاعواها ، كما في قوله (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) (القلم 43)

قال طنطاوي: (ومن مظاهر الخسران أنهم خسروا الرضا الذى سيناله المؤمنون من ربهم ، وخسروا العزاء الروحى الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء ، لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله)[1].

وتزداد حسرتهم عندما تأتيهم الساعة بغتة هم منشغلون بالدنيا ، وهم على ذلك الحال ، وقد فاتتهم التوبة والإنابة وضيعوا أوقاتا ولم ينتبهوا لأجلهم ، قال رسول الله ﷺ (**وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ** وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ [2]،**وَلَتَقُومَنَّ** السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ **وَلَتَقُومَنَّ** السَّاعَةُ،وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ **وَلَتَقُومَنَّ** السَّاعَةُ،وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا)[3]

قال صاحب الظلال (خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى . . وخسارة الآخرة على النحو الذي رأينا . . وهي المفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حساباً)[4]

قوله تعالى (..وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)(31) (استعارة تمثيلية تؤكد حسرتهم على ما فرطوا في حق الله)[5] ، (فقد استُعير "الحمل على الظهور" للتدليل على التورط التام في تبعات الذنوب والجرائم وملازمتها لصاحبها بحيث لا يستطيع التخلص منها، كحالة المفتون أو المجرم الذي يُلزم بحمل ثقل باهظ لا يستطيع تفصياً ولا خلاصاً منه) [6]، وكأن الهيئة المعنوية لانغماس الكافر في آثامه وثقل تبعاتها يوم القيامة قد مُثّلت بهيئة إنسان يحمل حملاً حسيّاً فادحاً ومنهكاً على ظهره ، ونظير ذلك قوله (**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ**)[سورة العنكبوت:13]

---

[1]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1450
2) كناية عن الانشغال في السوق بالبيع والشراء عن أمر الساعة
[3]) رواه البخاري ج20 ص 163 رقم 6025
[4]) في ظلال القرآن ج3 ص 11
[5]) صفاء حسني عبد المحسن الترك الاستعارة التمثيلية في القرآن الكريم : ص 112 رسالة ماجستير تحت إشراف أ د خليل محمد عودة جامعة النجاح الوطنية نابلس كلية الدراسات العليا بفلسطين 2011
[6]) في هذا المعنى : ابن عاشور : التحرير والتنوير ج13 ص 106 تفسير سورة النحل

وهذه الاستعارة وإن كانت تصوير بياني لتقريب الصورة للأذهان لكنها تكون يوم القيامة حقيقة واقعية لا تصوير فيها ولا تخييل ، فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأُتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي قَالَ فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ** إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثًا)[1] .

فروعة الاستعارة التمثيلية في هذه الآية أنها **تضمنت مجازا وحقيقة في آن واحد** ، مثال ذلك قول النبي ﷺ (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ **فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ** فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا)[2]، فهي في الدنيا استعارة وفي الآخرة حقيقة واقعة .

قوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا **تَعْقِلُونَ**) (32) صححت هذه الآية مفهوم الدنيا في أذهان الكافرين ، فهم قد بالغوا في الاهتمام فيها حتى أنهم ظنوا أنها الحياة ولا حياة سواها ، فحصروا الحياة فيها وقصروها عليها ، بينما حقر الإسلام من شأن الدنيا ، وقصرها على كونها مجرد لحظات لعب ولهو تنقضي وتمضي ، ويخلفها الجزاء والحساب ، يَقُولُ رسول الله ﷺ (**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ** مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا)[3]، قال المناوي (**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ**)(لأنها غرت النفوس بزهرتها ولذاتها **وإمالتها عن العبودية إلى الهوى** حتى سلكت غير طريق الهدى)

قوله (ملعون ما فيها) أي ملعون ما يشغل فيها عن ذكر الله وموالاته .

قوله (إلا ذكر الله وما والاه) أي ما يحبه الله في الدنيا والموالاة المحبة بين اثنين، وقد تكون من واحد وهو المراد هنا : يعني ملعون ما في الدنيا إلا ذكر الله وما أحبه الله مما يجري في الدنيا وما سواه ملعون)[4].

وطريقة تعامل الناس مع الدنيا تختلف بحسب حالهم (فالمؤمن يتزود من الدنيا تقوى الله ، والمنافق يتزين بمتاع الدنيا ، والكافر يتمتع ويأكل كالأنعام)[5] ، فالمؤمن يتزود في الدنيا بحسب حاجته ، قال تعالى (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ) (البقرة 197) ، وعلى سبيل الإجمال فإن منتهى سعادة المسلم بزاد الدنيا ما أخبر عنه الرسول ﷺ بقوله (**من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء**)[6] .

---

[1]) رواه البخاري ج9 ص 53 رقم 2407
[2]) رواه البخاري ج8 ص 338 رقم 2278
[3]) رواه ابن ماجة ج12 ص 136 رقم 4102 وصححه الالباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 395 رقم 3320
[4]) فيض القدير ج3 ص 733
[5]) تفسير القرطبي ج16 ص 235 – إحياء علوم الدين للغزالي ج3 ص 208
[6]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 54 رقم 116 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 55 رقم 85/116

وتفصيل ذلك فأما عن **طعامه** فقد قال رسول الله ﷺ (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ **بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ** فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) [1]، وقال النبي ﷺ (الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ **وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**) [2] .

وعن **ملبسه** قَالَ رسول الله ﷺ (**الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ وَالْقَمِيصِ وَالْعِمَامَةِ مَنْ جَرَّ مِنْهَا شَيْئًا خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[3]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (خَيْرُ ثِيَابِكُمْ الْبَيَاضُ فَالْبَسُوهَا وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ)[4].

وأما عن **مسكنه** ، فقد روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ (**فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ**)[5].

وأما المنافق فإنه يضعف أمام زينة الدنيا التي عدد الله تعالى مفرداتها فقال (زُيِّنَ لِلنَّاسِ **حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ** وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران 14) .

وأما الكافر ، فلا حد لطمعه ولا لرغباته وشهواته ، قال تعالى (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ** وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) (محمد 12) ، وعَن ابنِ عباس رفعه قال : (منهومان لا يشبعان طالب علم **وطالب دنيا**)[6].

قوله (وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا **تَعْقِلُونَ**)(32) أخبر الله بأن الآخرة خير من الدنيا ولا شك ، بيد أن دخول جنة الآخرة مرهون بدخول جنة الدنيا ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (**إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة**)[7] ، قال ابن القيم (**معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه**) [8]، وقال بعضهم : (مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قيل : **وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ومعرفته وذكره**)[9] ،وقال بعض السلف : "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)[10].

---

[1]) رواه الترمذي ج8 ص 387 رقم 2302 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1063 رقم 10611
[2]) رواه البخاري ج16 ص 497 رقم 4974
[3]) رواه أبو داود ج11 ص 132 رقم 3571 وصححه الالباني : الجامع الصغير ج1 ص 454 رقم 4536
[4]) رواه ابن ماجة ج10 ص 413 رقم 3556 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج 2 ص 276 رقم 2869
[5]) رواه مسلم ج10 ص 448 رقم 3886
[6]) رواه البزار في مسنده ج2 ص 174 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1157 رقم 11570 ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين عن أنس ج1 ص 169 رقم 312
[7]) المستدرك على مجموع الفتاوى ج1 ص 153
[8]) رسالة ابن القيم ج1 ص 31 مدارج السالكين ج1 ص 454
[9]) جامع العلوم والحكم ج1 ص 189
[10]) المستدرك على مجموع الفتاوى ج1 ص 153

المطلب الرابع

تثبيت الرسول إزاء مجادلة قومه له

قال تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ **لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ** فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ **فَصَبَرُوا** عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ **كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ** الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ **قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً** وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا **صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

قوله تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) الحزن أول مدخل من مداخل الشيطان ليصرف أهل الحق عن المضي قدما في طريق الدعوة إلى الله لو تمكن الحزن من قلوبهم فخزلهم عن السير في الطريق المستقيم ، قال ابن القيم (**لم يأت الحزن في القرآن إلا منهيا عنه أو منفيا** ، وسر ذلك :أن الحزن موقف غير مسير ولا مصلحة فيه للقلب وأحب شيء إلى الشيطان : أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه)[1] قال الله تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ **لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا** وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (المجادلة10) ، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ : **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ**)[2] ، قال ابن القيم (وكلاهما –الهم والحزن– مضعف للقلب عن السير مقتر للعزم)[3].

لكن الحزن – من جهة أخرى – عارض يصيب القلب ، فهو أشبه بالمرض ، وذاك هو ابتلاء الله ، وليس الإبتلاء بمطلوب ، ولا بمرغوب ، فلا يتمنى أحد أن يبتلى ، ولكن يسأل الله العافية ، لكن إذا ابتلي المسلم بالحزن فعليه بالصبر ، فهو واجب ، وثواب الصبر عظيم ، قَالَ رسول الله ﷺ (**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**)[4]، قال ابن القيم (فهذا **يدل على أنه مصيبة** من الله يصيب بها العبد يكفر بها من سيئاته **لا يدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه** ،فالحزن مصيبة من المصائب التي يبتلي الله بها عبده فإذا ابتلى به العبد فصبر عليه أحب صبره على بلائه) [5].

---

[1]) ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين ج1 ص 506
[2]) رواه البخاري ج10 ص 21 رقم 2679
[3]) مدارج السالكين ج1 ص 506
[4]) رواه البخاري ج17 ص 374 رقم 5210
[5]) ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين ج1 ص 506

قوله تعالى (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (33) عزاء من الله تعالى لنبيه في هذا الموقف الذي بدا فيه حزنه من تعنت قومه معه وعنادهم له وهو يريد بهم الخير ، مبينا له أن **عداوتهم له ليست شخصية** ، فليس هجومهم عليه نابع من تقصير منه أو عيب صادر عنه ، وإنما هم **يعادونه لأجل ولايته من الله** ، فهم في الحقيقة أعداء الله ، فليس له أن يحزن على تكذيبهم له ، لأن **صاحب الحق هو الله** ، والله قد نهاه عن ذلك ، كما في قوله في موضع آخر (فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (المائدة 68) .

فإذا أراد أن ينتصر لصاحب الحق فليس عليه أن يحزن ، لأن ذلك ليس طريق الانتصار ، ولكن عليه أن يعلم الأمر الذي جعلهم يكذبون ، وهو جحود النعمة ، قال أبو حيان (وفي الكلام حذف تقديره : فلا تحزن فإنهم لا يكذبونك ، وأقيم الظاهر مقام المضمر تنبيهاً على أنّ **علة الجحود هي الظلم** وهي مجاوزة الحدّ في الاعتداء)[1].

قوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)(34) لما خوطب النبي ﷺ بمثل هذه الآية صبر وصبَّر أصحابه ، فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ **أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا** قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ **وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ** وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ **وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**)[2].

فكأن **صبر الرسل ومن تبعهم** على أذى من خالفوهم هو **دليل إرشادي لأهل الدعوة ليعلموا أنهم على الحق** ، فيزدادوا جلدا وصبرا ، وليعلموا أنه لابد من هذا الاختبار حتى يحصل النصر ، ولذلك قيل أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا .

يقول الشيخ سلمان العودة (فالذي يريد أن يدعو ولكنه لا يريد أن يقال له شيء، ولا أن تخدُش أذنه كلمةٌ خشنة، ولا أن يوقف ساعة أو ساعتين، ولا أن يسجن يوماً أو شهراً أو سنة، ولا أن يضيق عليه في رزقه، ولا أن يؤذى، ولا أن تحاصر كلمته ، هذا الإنسان عليه أن يكبر الوسادة، ويجلس في عقر داره، **فليس هذا طريق الدعوة**؛ طريق الدعوة معروفٌ، والكلام الذي كنت تسمعه نظرياً بالأمس، ينبغي أن تطبقه عملياً اليوم، فلا يضر الإنسان أن يؤذى في ذات الله عز وجل، بل يكفي الإنسان شرفاً وفخراً أن **يؤذى في الله**، فإن الله عز وجل يصطفي الأخيار للابتلاء والاختبار)[3].

---

[1]) البحر المحيط ج5 ص 137
[2]) رواه البخاري ج11 ص 444 رقم 3343
[3]) دروس الشيخ سلمان العودة ج45/197

ومع ذلك لابد من تمنى العافية لا تمني البلاء ، قال رسول الله ﷺ (**اسْأَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ** فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنْ الْعَافِيَةِ)[1]، وقال رسول الله ﷺ (لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ **يَتَعَرَّضُ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُهُ**)[2].

قوله تعالى (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (34) (فيها تأنيس للرسول عليه الصلاة والسلام، وتطمين له وللمؤمنين بحلول النصر الموعود به)[3] ، قال تعالى (**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**) (الحديد 21) ، ويشهد لذلك ما أخبره الله به من نبأ المرسلين من قبله ، وفي ذلك تأكيد على أنها سنة ربانية ماضية ، ولابد أن تتكرر عبر التاريخ ، ونظيره قوله تعالى (**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) (الصافات 171-173).

يقول الشيخ علي بن نايف (تنتقل الآيات من الاستطراد في تطييب خاطر الرسول ﷺ إلى الاستطراد بتذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله ثم ما كان منهم إلا الصبر والمضي في الطريق , حتى جاءهم نصر الله ، ما يعني أن هذه هي سنة الدعوات لا تتبدل , ولا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق. . **فموكب الدعوة موغل في القدم** , ضارب في شعاب الزمن , ماض في الطريق.. مستقيم الخطي , ثابت الأقدام ، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل , فيصيب الأذى الدعاة إلى هذا الطريق , وتسيل فيه الدماء وتتمزق الأشلاء . . لكن الموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد ... والعاقبة هي العاقبة , مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . إن نصر الله دائما في نهاية الطريق (ولا مبدل لكلمات الله , ولقد جاءك من نبأ المرسلين) . .كلمات يقولها الله – سبحانه – لرسوله ﷺ . . للذكرى , وللتسرية وللمواساة والتأسية . . . ترسم للدعاة من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحا , ودورهم محددًا , كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته , ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . . .)[4].

قوله تعالى (وَإِنْ كَانَ **كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (35) سبق أن طلب المشركون من النبي ﷺ أن يُصَيِّر لهم حياتهم الدنيا إلى أحسن حال ، على اعتبار أنه مؤيد من ربه ومؤيد بالمعجزات ، فإذا دعا الله مهد لهم **أرض مكة الوعرة** وجعلها أنهار وجنات ، وأزال الجبال من حولها ، أو أن يرون نعمة الله عليه حيث الكنوز والبيوت المزخرفة ، (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى **تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا** (90) أَوْ تَكُونَ **لَكَ جَنَّةٌ** مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (93) وهكذا يتمنون الدنيا أي لا يرغبون في شيء من الآخرة ، والنبي يخاطبهم لأجل الآخرة ، ولهم هؤلاء همهم الدنيا وحسب .

---

[1]) رواه الترمذي ج11 ص 470 رقم 3481
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 21 رقم 4006 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 369 رقم 3243
[3]) التحرير والتنوير ج7 ص 17
[4]) موسوعة فقه الابتلاء ج3 ص 130 مع بعض الحذف والاختصار

وفي سياق الآية التي نحن بصددها يبين الله تعالى أنه ليس عليه أن يفعل مثلما فعل عيسى بن مريم حين استجاب لقومه فدعا ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون لهم عيدا لأولهم وآخرهم ، فليس عليه أن يكلف نفسه عناء ذلك ، فالدعوة الإسلامية وإن كان فيها **جانب يصلح الحياة الدنيا** ، فإنها كذلك تصلح الحياة الآخرة ، **ولكن ذلك مرهون بالتضحية بشيء من الحياة الدنيا لأجل إصلاح الآخرة كما تقدم** ، وليس العكس بصحيح ، ولذلك فإنهم إذا أرادوا أن يبرهن لهم عن صدقه ونجاح دعوته ، فليس عليه أن يسعى لتلبية مطالبهم الأرضية بأن يزيل عنهم أصعب مشكلة جغرافية في مكة فيصنع نفقا يجعلهم يعبرون من تحت الجبال الوعرة أو أن يلبي مطالبهم بمعجزة سماوية ، فيرقى في السماء فيأتيهم بنفسه بما يطلبون من رزق السماء ، لا هذا ولا ذاك .

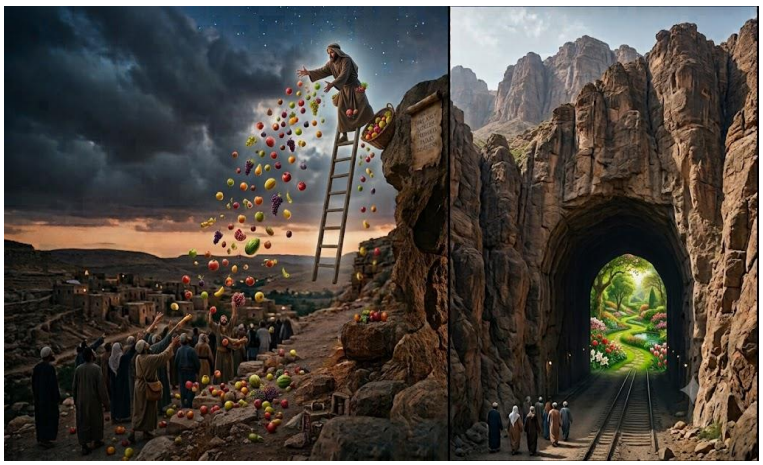

قال الشيخ سيد طنطاوي والمعنى : (وإن كان – يا محمد – قد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سبباً فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكا عميقاً فى جوف الأرض أو مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب ، فافعل فإن ذلك **لن يفيد شيئاً** لأن هؤلاء المشركين **لا ينقصهم الدليل** الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك **عناداً وجحوداً**)[1]

فمنهج الدعوة الإسلامي **يهتم بالإنسان ذاته** ، **ليجعله قادرا** على أن يحسن معيشته ويساعد غيره ويبني مجتمعه وجيشه ودولته ، وليس هذا المنهج مجرد برنامج حزبي يعد جمهوره بتمهيد الطرق وبناء المستشفيات والمصانع وتوظيف أبناءهم ، إنه أعظم من ذلك بكثير ، فهو منهج يصنع الإنسان ذاته ، والذي بدوره يصنع مجتمعه وتاريخه وحضارته .

ولذلك ينبغي لأهل الدعوة الإسلامية ألا ينزلقوا في هذا المنزلق الخطير ، فيتصارعوا مع الأحزاب السياسية أو يتنافسوا مع المؤسسات الاقتصادية أو يشاركوا مع الجمعيات الخيرية ليثبتوا للناس منهج الإسلام بهذه الطريقة ، لأن من الطبيعي أن يفوز عليهم حزب سياسي أو تتفوق عليهم مؤسسة اقتصادية أو يتسع نشاط جمعية خيرية بما يفوق أوجه البر التي يقدمونها

[1]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1454

للناس ، وليس عليهم أن يقصوا أنفسهم كذلك من هذه المجالات ، وإنما المعنى المراد سوقه هو أن تشاركوا مع الناس كما يتشارك الناس معهم بعيدا عن إقحام الدعوة في هذه الأعمال ، ولتكون باسمهم هو وليست باسم الإسلام ، ولذلك كان النبي ﷺ حريصا على تعليم أصحابه هذا المعنى فقال لعلي بن أبي طالب قبل غزوته ، (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ **فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ** وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا)[1].

قوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) قال القرطبي المعنى : (أي لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه أراد عز وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن)[2] ، كما في قوله: "**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**" [السجدة 13] وقوله تعالى: "**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا**" [الأنعام 107] ، وقوله تعالى "**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً**" ، قال ابن عجيبة أي (لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان ، ولكن لم تتعلق به مشيئته ، ولو شاء الله لأظهر لهم أية تلجئهم إلى الإيمان ، لكن لم يفعل ، لخروجه عن الحكمة) [3].

فأهل الدعوة إذا رشدوا مجهودهم الدعوي في الدعوة ذاتها لأغناهم ذلك عن الانشغال بالكثير من المجالات باسم الدعوة ، لا غبار عليهم أن ينشغلوا مثل غيرهم بالتجارة والصناعة والتعليم والزراعة ...الخ ، ولكن هذا شيء يستقل تماما عن العمل الدعوى المباشر ، وإن كان اهتمامهم بالحياة الدنيا وتعميرها يؤثر ولا شك في قناعة الناس حين يرون المسلمون ناجحون في تلك المجالات لاتباعهم شرع ربهم ، إلا أن هذا الجانب حظ أنفسهم فيه ظاهر ، بينما جانب الوعظ والإرشاد المباشر له حظ على أنفسهم يجب أن يراعوه ترشيدا للجهد الدعوى من جهة ، وتفويضا للنتائج إلى الله تعالى الذي لو شاء لهداهم بأقل من ذلك الجهد متى أراد.

قوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) قال ابن عجيبة أي (ولا تقارب حالهم بشدة التحسر ، ولا تكونن من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير)[4]، أي : **لا تحرص على هداهم والقدر لم يكتب لهم الهدى** .

وقيل (الخطاب له والمراد الأمة ؛ فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم)[5]

قال النيسابوري (فهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة ، ولكنه يفيد **التغليظ وتأكيد الامتناع عن الجزع** والإضراب عن الحزن والأسف على إيمان من لم يشأ الله إيمانه)[6].

---

1) رواه مسلم ج9 ص 150 رقم 3361
2)تفسير القرطبي ج6 ص 418
3) البحر المديد ج2 ص 139
4) البحر المديد ج2 ص 139
5) تفسير القرطبي ج6 ص 418
6) تفسير النيسابوري ج3 ص 264

يقول الشعراوي (والحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول؛ فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين)[1] ، أي لا تكونن من **الذين يحرصون على حصول النتائج ولا يفوضونها لله** .

قال القرطبي (أي لا تكونن من الذين اشتد حزنهم وتحسروا **حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد**، وإلى ما لا يحل؛ أي لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين) [2]

قوله (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ..) جئ بأسلوب القصر لبيان من يستجيب لدعوة الإسلام ، وهم الذين تهيئوا لاستقبال كلام الله بقلب مفتوح ، قال الشعراوي (هناك فارقاً بين سماع ظاهره "مجرد سماع" وفي ذات الوقت باطنه "انصراف" ، وبين سماع ظاهره "طاعة" وباطنه "محبة" لهذه الطاعة) [3].

ففي الآية جزم قاطع بإيمان كل من يستمع لكلام الله بقلب منشرح للحق غير مستكبر ولا معرض عنه ، ففي خضم التجارب الحياتية أثبتت التجربة أن **الأغنياء وصلوا إلى تحقيق أهدافهم من خلال أنهم يسمعون أكثر مما يتكلمون** مما أكسبهم الخبرات من الآخرين ، فتعلموا من تجاربهم السابقة ، وفهموا السوق جيدا ، واستمعوا لآراء العملاء والمنافسين ليتخذوا أحسن القرارات ، وكثرة السماع أكسبهم ثقة الناس بهم وبناء علاقات قوية معهم لإحساسهمب الاحترام والقبول ، وهكذا كذلك يحصل للذين يسمتعون للقرآن ، فإنهم إذا استمعوه بنية معرفة الحق عرفوه واستجابوا له ، وإن لم تكن تلك نيتهم فلا شك أنهم لن يستجيبوا له .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع القرآن من غيره ، فعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ اقْرَأْ عَلَيَّ قُلْتُ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ فَإِنِّي **أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي** فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ " فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا " قَالَ أَمْسِكْ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ)[4]، فكان النبي ﷺ أول المستجيبين .

ومن حكمة الله تعالى أن جعل المسلمين يصطفون لصلاة الجماعة خمس مرات ، **ويستمعون لقرآءة الإمام في صلاة المغرب والعشاء والفجر** ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ فُلَانٍ قَالَ سُلَيْمَانُ كَانَ يُطِيلُ الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنْ الظُّهْرِ وَيُخَفِّفُ الْأُخْرَيَيْنِ وَيُخَفِّفُ الْعَصْرَ وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمُفَصَّلِ وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ بِوَسَطِ الْمُفَصَّلِ وَيَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِطُوَلِ الْمُفَصَّلِ)[5]

وروي أحمد في مسنده (مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[6]

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2504
[2]) تفسير القرطبي ج6 ص 418
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2504
[4]) رواه البخاري ج14 ص 76 رقم 4216
5) رواه النسائي ج4 ص 76 رقم 972 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج3 ص 126 رقم 982 قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وطوال المفصل من "ق" إلى "عم" ، ومن "عم" إلى "الضحى" أوساط ، ومن "الضحى" إلى آخره قصار" من "الشرح الممتع" (75/3)
[6]) رواه أحمد ج17 ص 180 رقم 8138 وقيل أنه موقوف على ابن عباس لكنه فيه علة الانقطاع

قوله (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (36) العطف لبيان النقيض من الذين يسمعون ،حيث شبه القرآن الذين لا يسمعون كلام الحق لإعراضهم عنه بالموتى الذين لا يسمعون نداءً ، فحالهم أشبه بالميت ، وفي ذلك بيان لشدة انصرافهم عن الحق بعد تعطيلهم لأجهزة الاستقبال طوعا واختيارا ، وهؤلاء قال الله فيهم (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ** بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف 179) ، أي أن سبب انصرافهم عن الحق أنهم يعيشون حياة الأنعام يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، ولم ينتبهوا لكلام الحق ولم يرعوا له سمعا .

قال ابن تيمية (بَيَّنَ اللَّهُ **السَّمْعَ عَنْ الْكُفَّارِ** فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ : " وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً " وَقَوْلُهُ : " وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ " وَذَلِكَ لِأَنَّ سَمْعَ الْحَقِّ يُوجِبُ قَبُولَهُ إيجَابَ الْإِحْسَاسِ الْحَرَكَةَ وَإِيجَابُ عِلْمِ الْقَلْبِ حَرَكَةُ الْقَلْبِ **فَإِنَّ الشُّعُورَ بِالْمُلَائِمِ يُوجِبُ الْحَرَكَةَ إلَيْهِ وَالشُّعُورُ بِالْمُنَافِرِ يُوجِبُ النُّفْرَةَ عَنْهُ** فَحَيْثُ انْتَفَى مُوجِبُ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى انْتِفَاءِ مَبْدَئِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : " إنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ " ، وَلِهَذَا جَعَلَ سَمْعَ الْكُفَّارِ بِمَنْزِلَةِ **سَمْعِ الْبَهَائِمِ** لِأَصْوَاتِ الرُّعَاةِ أَيْ **يَسْمَعُونَ مُجَرَّدَ الْأَصْوَاتِ سَمْعَ الْحَيَوَانِ** لَا يَسْمَعُونَ مَا فِيهَا – مِنْ تَأْلِيفِ الْحُرُوفِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْمَعَانِي – السَّمْعَ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ مَعَ الْجِسْمِ)[1].

قوله (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (37) قال الشنقيطي (بين الله في موضع آخر أن الحكمة في عدم إنزال ما اقترحوه من آيات ، أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها، لنزل بهم العذاب العاجل كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيئته، فعقروها: (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) [الأعراف 77]، فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال) .

قوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (37) أي لا يعلمون النتائج التي تترتب على الاستجابة لمقترحاتهم بالإتيان بآية خارقة للعادة ثم هم يستمرون في تكذيبهم وعنادهم ، كما في قوله تعالى (**وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ** وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) (الإسراء 59)

قال سيد قطب (لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة ، **ولا يقنعون بآية القرآن الباقية ، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد** ، وتعلن عهد الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي؛ والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة المادية؛ بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى يوم القيامة ، وكانوا يطلبون خارقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة ، وإهلاكهم في الدنيا ، ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها – كما وقع في الأقوام قبلهم – فيحق عليهم الهلاك ، بينما **يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن ، فمن لم يؤمن استخرج الله من**

[1]) مجموع الفتاوى ج28 رقم 195

ظهره ذرية مؤمنة ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم في إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذي لا يعلمون جرائره!)[1].

قوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (38) انتقال إلى الآية التي لابد للأبصار أن تبصرها والعقول أن تعقلها وللقلوب أن تنشرح لها فتهتدي إلى الله ، ليصرف اهتمامهم من المعجزات المادية التي يراها أناس معينون في حقبة زمنية معينة وحسب ، إلى تلك **الآية** التي **يراها كل الناس في كل زمان ومكان** ، إنها خلق الله سبحانه الذي أضحى بالكثرة والتنوع ما لا يستوعبه عقل ، فكل أمة مما خلق الله من صنوف معينة من الكائنات تعيش في جماعات وتهدي لما فيه مصلحتها ، وكل شيء بتقدير الله وقدره ، ولها سلوك على نحو معين ، وإمكانات وقدرات هائلة ، مثل حركة الطير حين يطير في جماعات **ويغير اتجاهه في تزامن دقيق** مع **المجموعة دون أن ينحرف أو يشذ عنهم أحد** أو **تصطدم مع مثيلتها** سبحان الله ، أفلا يتفكر الإنسان في هذه الآية .

قال ابن الأنباري (وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله ركب في المشركين عقولاً وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبروا أمر الرسول ﷺ ، كما جعل للدّواب **والطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض)**[2] ، ووجه التماثل في ذلك هو أن الله تعالى لم ينشغل في تدبير رزق بعضهم عن بعض ، وإنما الكل يرزقه الله تعالى ويعطيه ، قال الزمخشري : (فإن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف ، وهو لما لها وما عليها مهيمنٌ على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن)[3] ، كما أنهم متماثلون جميعا في المصير والرجوع إلى الله .

قوله (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (38) قال ابن القيم (وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول ، وأنها لم تخلق سدى بل هي **معبدة مذللة** قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها ثم قال إلى ربهم يحشرون ، فذكر مبدأها ونهايتها ، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله "ما فرطنا في الكتاب من شيء" أي كلها قد **كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد** ، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي – أي المنزل وهو القرآن– ، وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول – أي **القدر**–)[4].

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 21
[2]) البحر المحيط ج5 ص 145
[3]) الكشاف ج2 ص 113
[4]) شفاء العليل ج1 ص 41

قوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ) قال أبو حيان (الظاهر أنه **استعارة** عن **عدم الانتفاع الذهني** بهذه الحواس)[1]، ونظير ذلك قوله تعالى : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) [الفرقان : 44] ، وقوله تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) (الملك : 10) ، قال ابن عاشور (**فالصمم** يمنعهم من تلقي هدى من يهديهم ، **والبكم** يمنعهم من الاسترشاد ممن يمر بهم ، **والظلام** يمنعهم من التبصر في الطريق أو المنفذ المخرج لهم من مأزقهم)[2]، قال ابن حيان قوله : " في الظلمات " كناية عن **عمي البصيرة** ، فهو كقوله : "صم بكم عمي" لكن قوله : "في الظلمات" أبلغ من قوله : "عمي" إذ جعلت ظرفاً لهم وجمعت لاختلاف جهات الكفر) [3] .

قال الشعراوي (لما كان السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، **فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان**، وقد نشأ البشر في بيئات مختلفة اللغة ، ولما كان الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع وعرف **ارتباط ما يسمع بما يرى** ، ولهذا تجد أن البشر لا يتكلمون إلا باللغة التي نشأوا في بيئتها ؛ لأن **اللغة سماع** ، فلذلك كان الصمم قبل البكم)[4]، أي أن الذي عطل حاسة السمع عنده لكبره وإعراضه عن الهدى لابد وأن يعطل كذلك حاسة الكلام فلا يستطيع أن يعبر بالكلام لفقدانه وسيلة الاتصال بالمجتمع فهو منعزل عنه لا يفهم كلامهم ولا يفهمون منه ما يريد ، فهذا أشبه بمن يعيش في الظلمات ، وهذا التشبيه يصور **حقيقة أمر المكذبين إزاء ما يطلبونه من الآيات والمعجزات المادية** ، فهم كالأصم والأبكم والأعمى لا يهتدون ، فلا تنفعهم آية ولو كانت من الوضوح والظهور ما تسمعه الآذان وتتحدث عنه الألسنة وتراه الأعين ، لأنهم عطلوا أجهزة الاستقبال لديهم فلا ينتفعون بشيء ، قال تعالى (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) (الأعلى 9-11)

قوله تعالى (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(39) قال ابن عاشور (**وليس هذا الإضلال بالأمر بالضلال فإن الله لا يأمر بالفحشاء ولا بتلقينه** والحث عليه وتسهيله فإن ذلك من فعل الشيطان)[5]، والمعنى أنه

---

[1]) البحر المحيط ج5 ص 149
[2]) التحرير والتنوير ج6 ص 91
[3]) البحر المحيط ج5 ص 149
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2511 مع إعادة ترتيب الجمل بحسب فهم الكاتب
[5]) التحرير والتنوير ج6 ص 92

يضلله بتركه في الضلال فلا يمنعه منه كونا ، لأن الله تعالى قال في كتابه (إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) [غافر : 28] ، وقال سبحانه (والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين) ، قال الشعراوي (**فبتقديمهم الظلم والفسق والكفر** ، وقد فعلوا ذلك اختياراً سار المرض واستقر في قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، لأنه سبحانه **أغنى الأغنياء عن الشرك به**)[1] ، ولذلك قال (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي **تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)[2] ، أي أن ذلك عقوبة لهم وتقرير لحالهم ، قال الألوسي (تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الإيمان أصلاً)[3] .

والمراد مما تقدم إيكال النتائج الدعوية لله تعالى ، قال صاحب الظلال (يحدد التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين – **ودور الدعاة بعده في كل جيل – إنه التبليغ** ، والمضي في الطريق ، والصبر على مشاق الطريق . . **أما هدى الناس** أو ضلالهم **فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته** . . والهدى والضلال إنما يتبعان سنة إلهية لا تتبدل ، ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يحب ، كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب . . إن **شخصه لا اعتبار له في هذه القضية** ، وحسابه ليس على عدد المهتدين ، إنما **حسابه** على ما أدى وما صبر وما التزم ، وما استقام كما أمر . . وأمر الناس بعد ذلك إلى رب الناس) [4].

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2511
2) رواه مسلم ج14 ص 254 رقم 5300
[3]) تفسير الألوسي ج5 ص 313 ، وتفسير أبي السعود ج2 ص 360
[4]) في ظلال القرآن ج3 ص 23

المطلب الخامس

سنن الله في المشركين

قال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ **عَذَابُ اللَّهِ** أَوْ أَتَتْكُمُ **السَّاعَةُ** أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ **إِيَّاهُ تَدْعُونَ** فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ **فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ** وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ **جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا** وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا **نَسُوا** مَا ذُكِّرُوا بِهِ **فَتَحْنَا** عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا **فَرِحُوا** بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ **بَغْتَةً** فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) **فَقُطِعَ** دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ **أَخَذَ اللَّهُ** سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ **أَتَاكُمْ عَذَابُ** اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)

يهدد الله الذين يدعون غيره بأن يأتيهم عذابه فيمسهم منه ليرفعون أكف الضراعة لله ، وعندئذ يستبين لهم أن الأسباب التي كانوا يتكلون عليها لم تنفعهم لكشف الضر أو بأس الله عنهم ، لكن آخرين منهم قست قلوبهم فلم ينتبهوا لحكمة الله لإنزال بأسه بهم ، فهؤلاء يستدرجهم الله تعالى ، ويفتح عليهم أبواب الدنيا ، وينزل عليهم الخيرات ، حتى إذا اغتروا بزينة الدنيا وفرحوا بها أخذهم عذابه بغتة ، فتقوم ساعتهم ويهلكهم ، ويقطع دابرهم ، ويعقب الله تعالى علي تلك الحالة التي أودت بهم الهلاك بأن الاسترسال في المعصية يوشك أن يختم على قلوبهم بالكفر ثم يبغتهم العذاب فيهلكهم ، لأنهم كانوا ظالمين.

قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (40) قال ابن عطية : والمعنى : أرأيتكم إن خفتم عذاب الله أو خفتم هلاكاً أو خفتم الساعة أتدعون أصنامكم وتلجؤون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم أنها آلهة بل تدعون الله الخالق الرازق فيكشف ما خفتموه إن شاء وتنسون أصنامكم أي تتركونهم؟[1]، وفي ذلك (تبكيت لهم)[2] ، وإبطال لدعواهم أن مع الله آلهة أخرى ، فالإنسان في وقت الأزمات يكون أقرب للصدق في القول كما في قوله (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف 22) ، وقوله تعالى (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ **فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**) (العنكبوت 65).

[1]) البحر المحيط لأبي حيان ج5 ص 150
[2]) تفسير البيضاوي ج2 ص 147

قوله تعالى (..بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ..) قال القرطبي (أي أنتم **عند الشدائد** ترجعون إلى الله، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضا فلم تصرون على الشرك في حال الرفاهية)[1]، وقال صاحب الظلال (نحن نشك شكاً عميقاً في أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد في صورته هذه صادقون فيما يزعمون.... ذلك أن **الفطرة تعرف ربها** ، وتدين له بالوحدانية ، فإذا غشي عليها الركام فترة ، **فإذا هزها الهول تساقط عنها الركام** كله وتعرت منه ، وعادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة .. مؤمنة طائعة خاشعة ..)[2].

قوله تعالى (..فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ..) كما في قوله تعالى (**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) (النمل 62) ، وفي الآية دليل على أن الله يجيب عبده ولا يتركه دون أن يجيب حاجته شريطة أن يعزم المسألة وهو موقن بالإجابة .

فعن النبي ﷺ قال (**ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ** وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ)[3] ، وعن النبي ﷺ قال: (لَا **يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ** مَا لَمْ **يَسْتَعْجِلْ** قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ قَالَ يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ)[4].

وفي قوله (..إِنْ شَاءَ..) قال السمرقندي (وإنما قرن بالاستثناء وبالمشيئة ، لأن كشف العذاب فضل الله تعالى ، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء)[5] ، قال أبو السعود أي (إن شاء كشفَه لبيانِ أن قبولَ دعائِهم غيرُ مطَّردٍ ، بل هو **تابعٌ لمشيئته المبنيةِ على حِكَمٍ خفيةٍ قد استأثر الله تعالى بعلمها** ، فقد يقبلُه كما في بعض دعواتهم المتعلقةِ بكشف العذاب الدنيوي ، وقد لا يقبله كما في بعضٍ آخَرَ منها ، وفي جميع ما يتعلق بكشف العذابِ الأخرويِّ الذي من جملته الساعةُ)[6] .

قوله (..وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) (41) كناية على شدة تعلقهم بالله عند حلول المصيبة ، وكأنهم نسوا أنهم قبل ذلك كانوا يشركون بالله ، وفي ذلك دليل على أنهم **إنما أشركوا لا عن جهل أو خطأ وإنما عن استكبار وعلو** ، فلما قهرهم الله وأذل كبرياؤهم بالمصائب التي نزلت عليهم رجعوا إلى الله يدعونه ، قال تعالى (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ **دَعَانَا** ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر 49) ، ومثل قوله تعالى (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ **دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ** ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) (الروم 33) .

قوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) (42) هنا تتجلى حكمة الله في إنزال البلاء بالعباد ، بإظهار رحمة الله بهم ، وذلك حين **يدفعهم البلاء دفعا لأن يرفعوا أيديهم** إلى مولاهم يرجونه

---

[1]) تفسير القرطبي ج6 ص 423
[2]) في ظلال القرآن ج3 ص 30
[3]) رواه الترمذي ج11 ص 383 رقم 3401 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص164 رقم 2766
[4])رواه مسلم ج13 ص 277 رقم 4918
[5]) بحر العلوم ج2 ص 35
[6]) تفسير أبي السعود ج2 ص 361

ويدعونه ، وليس جميع المضطرين يتضرعون في هذا الحال ، وإنما يكفي أن يكون هذا البلاء سببا لهداية بعضهم ، وهؤلاء هم المرجو صلاحهم وتضرعهم في هذه الآية .

قوله تعالى (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) هذا هو الصنف الثاني من المضطرين الذين لا يتضرعون حتى عند المصيبة ، قال الشوكاني (وهذا **عتاب** لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمرّدهم وغلوّهم في الكفر)[1]، وفي ذلك (استدراكٌ عما قبله أي فلم يتضرعوا إليه تعالى برقةِ القلب والخضوع ، مع تحقق ما يدعوهم إليه ، ولكن **ظهر منهم نقيضُه** حيث قستْ قلوبُهم أي استمرتْ على ما هي عليه من القساوة أو ازدادَتْ قساوةً)[2].

قوله تعالى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (43) وهذا من أقوى الأسباب لبعد الإنسان عن الله ، ومجافاته لطريق الحق ، ومخاصمته لأهل الحق ، وهو أن يزين له الشيطان السوء ، فيراه وكأنه خير ، فيظل في الشر ويظل في طغيانه حتى العمه ، (هناك أمم مكنها الله في الأرض وأنعم عليه بالرخاء ، لكنها لا تعرف سنة الله في الشدة والرخاء ، ولا تشعر باستدراج الله لها ، **يتعاظمها السلطان ويخدعها إملاء الله** ، فلا تعبد الله ولا تعرفه ، بل تتمرد على سلطانه حين تدعي لأنفسها بعض خصائص الألوهية ، فذلك من تزيين الشيطان لها) [3].

قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) أي نسي الإنسان ما كان يدعو إليه من قبل لكشف الضر عنه ، كما في قوله تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) (الزمر 8)

قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) (44) أي استدرجهم الله ، ونظير ذلك قوله (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ) [المؤمنون : 54 – 56] ، وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا **سَنَسْتَدْرِجُهُم** مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) (الأعراف 182) .

[1]) فتح القدير ج2 ص 412
[2]) تفسير أبي السعود ج2 ص 362
[3]) إيجاز الفكرة التي ذكرها سيد قطب في ظلال القرآن ج3 ص 33

قال شيخ الأزهر سيد طنطاوي في قوله تعالى (**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**) (يرسم صورة بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها ، وبكل قوتها وإغرائها ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضراء) [1]، وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"[2]

قوله تعالى (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) (44) قال أبو حيان (معنى هذه الجمل معنى قوله " ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً")[3]، وقوله تعالى (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) أي (متحسِّرون غاية الحسرة آيسون من كل خير)[4]

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (الأعراف 96) ، أي أنهم لو حصلوا التقوى لما أخذهم الله بغتة وانتهى أمد تمتعهم من الدنيا ولكنه استدراج الله لهم حتى أخذهم بشدة ، قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**)[5] ، ثم قرأ قوله سبحانه (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود 102) .

وفي قوله (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) قال عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدٍ ("الْمُبْلِسُ" "الْمَجْهُودُ الْمَكْرُوبُ" ، الَّذِي قَدْ نَزَلَ بِهِ الشَّرُّ الَّذِي لا يَدْفَعُهُ)[6] ، وعنِ السُّدِّيِّ قَالَ: هو "تَغَيُّرُ الْوَجْهِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ إِبْلِيسُ لأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبْلَسَهُ وَغَيَّرَهُ"[7]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ"أُبْلِسُوا" يعني "**أَيِسُوا**" ، والمعنى فإذا هم **يائسون** من النجاة مما نزل بهم ، وحل عليهم .

قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) (45) قال الزمخشري أي (لم يترك منهم أحد ، قد **استؤصلت شأفتهم**)[8]، وقال الواحدي أَيْ : (غابرهم الذي يتخلَّف في آخر القوم ، والمعنى : استؤصلوا بالهلاك **فلم يبق منهم باقية**)[9]

---

[1]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1458
[2]) رواه أحمد في مسنده ج 35 ص 183 رقم 16673 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 57 رقم 562
[3]) البحر المحيط ج5 ص 157
[4]) تفسير أبي السعود ج2 ص 362
[5]) رواه البخاري ج14 ص 368 رقم 4318
[6]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 233
[7]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 233
[8]) الكشاف ج2 ص 116

قوله تعالى (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إشعار بالنعمة والفضل بإهلاك الظالمين ونصر المرسلين كما وعد الله ، وتطبيق سنته التي لا تتبدل ولا تتغير ، قال السمرقندي (هذا تعليم ليحمدوه سبحانه على إهلاك الظالمين)[1]، ويعلق صاحب الظلال على هذه النهاية لأهل الشر فيقول (غير أنه ينبغي ، مع ذلك ، التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة) ... ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذاهو زاهق . . **فلا يقعدنّ أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد ، فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله** . . وهم كسالى قاعدون . . والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض ، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية)[2] .

قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) (46) تصوير لعجز المشركين إزاء بأس الله تعالى ، لاسيما وقد عطلوا –من قبل– أجهزة الاستقبال لديهم ، فأعرضوا عن السماع واستكبروا عما يرونه من آيات ، وهوت قلوبهم إلى زينة الدنيا ، ولم تنتبه إلى ما وعد الله من نعيم الآخرة ، فلم يكن بها متسع لتذكر شيء من أمور الآخرة ، فلما عطلوا نعم الله التي رزقهم إياهم كانت الحكمة أن يسلبها الله منهم .

وتلك القاعدة معروفة في كل العلوم ، ففي مجال اللغة يقولون if you don't use you will lose، وفي مجال الرياضة يقولون العضلة إذا لم تعمل فإنها تضمر ، ولذلك يقومون بتحريك المريض كعلاج طبيعي له حتى لا يفقد الكتلة العضلية بعد مكث في الفراش فترة طويلة بعد إجراء العمليات الجراحية ، لأنه لو فقدها لن يستطيع المشي ، وفي مجال القدرة العقلية لو لم يعمل العقل لفترة لأصابه شيء من التخلف والانتكاس ، ويصيبه الغباء ، ثم أمراض مثل الزهايمر ..الخ

والمعنى الذي تشير إليه الآيات هو أنهم لما عطلوا أجهزة الاستقبال لديهم خسروا أنفسهم ، وهم بعد ذلك لن يسترجعوها إذا ما سلبها الله منهم عقوبة لهم .

قال الشعراوي (قد أخذوا نعمة الله واستعملوها لمحادَّة الله وعداوته ، أوتوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، أعطاهم الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله ، ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها في وجه قضايا الخير ، فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه النعم؟)[3]

وقال الخازن (وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء ، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا)[4]

وقال الكعبي : (دلت هذه الآية على أنه تعالى مكنهم من الفهم ، ولم يخلق فيهم الإعراض والصد ولو كان تعالى هو الخالق لما فيهم من الكفر لم يكن لهذا الكلام معنى)[5].

---

[9]) الوجيز للواحدي ج1 ص 186
[1]) بحر العلوم ج2 ص 36
[2]) في ظلال القرآن ج3 ص 34
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2519
[4]) تفسير الخازن ج2 ص 390
[5]) تفسير الرازي ج6 ص 290

في قوله (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) أي أن الله لم ينقصهم شيئا ، فقد خلق لهم الحواس جميعا "الأسماع والأبصار والقلوب" ، ولكنهم لم يستعملوا آلتها ، ففقدت هذه الجوارح "الآذان والأعين والقلوب" حواسها ، فأضحت لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، قال الإمام البقاعي (أي نوحي الآيات لهم ولغيرهم **في كل وجه من وجوه البيان** بالغ من الإحسان ما يأخذ بالعقول ويدهش الألباب ، ويكون كافياً في الإيصال إلى المطلوب؛ ولما كان **الإعراض** عن مثل هذا في **غاية البعد** عبر بأداة **التراخي** فقال : "**ثم هم**" أي بَعُد هذا البيان بصميم ضمائرهم "**يصدفون**" أي يعرضون **إعراضاً لازماً لهم** لزوم الصفة)[1]، قَالَ السُّدِّيِّ: "يَصْدِفُونَ " ، "يَصُدُّونَ"[2]أي عن سبيل الله .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنشد لهذا المعنى قول أبي سفيان بن الحرث

: عجبت لحكم الله فينا وقد بدا ... له صدفنا عن كل حق منزل[3]

قوله (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) (47) تهديد ثالث وأخير لهؤلاء الظالمين ، وبعده سوف تطبق عليهم سنة الله ، وليس ثمة إنذار بعد ذلك ،(فالأول بأحد أمرين : العذاب والساعة ، والثاني : بالأخذ والختم ، والثالث : بالعذاب فقط) [4]

ونظير ذلك قوله تعالى : (**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ** * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم **بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ**) (الأعراف : 97 ، 98)

وقوله (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ **وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا** لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس 24)

قوله (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) (47) قال القاسمي (**مناط** إهلاكهم **ظلمهم** الذي هو وضعهم "**الإعراض**" عما صرفه الله لهم من الآيات ، موضع "**الإيمان**")[5].

---

[1]) نظم الدرر ج3 ص 55
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 236
[3]) تفسير الألوسي ج5 ص 323 انظر السيوطي في الدر المنثور ج4 ص 271
[4]) تفسير البحر المحيط ج5 ص 149
[5]) محاسن التأويل

المحور الثاني

تحديد مهمة الرسل إزاء قومهم

المطلب الأول : أسس المنهج الدعوى

المطلب الثاني : فحوى الخطاب الدعوى

المطلب الثالث : محاججة النبي قومه

المطلب الأول

أسس المنهج الدعوى

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا **مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

وفيه أربعة مسائل :-

الأولى : (البلاغ العام) من خلال البشارة والنذارة

الثانية : تنزيه الرسالة عن مطامع المشركين ، وتوضيح مكانتها الراقية عن ذلك

الثالثة : الإحاطة بالمؤمنين والحفاظ عليهم من مكر الماكرين

الرابعة : تبرؤ النبي من عبادة أصحاب الأهواء حتى حد المفاصلة

المسألة الأولى : (البلاغ العام) من خلال البشارة والنذارة :

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا **مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (49)

قوله (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ..) (48) قال الشوكاني (كلام مبتدأ لبيان **الغرض** من إرسال الرسل)[1]، أي (إِنَّهُ لاَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلاَّ **مُبَشِّرِينَ** مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِدَعْوَتِهِمْ ، بِأَنَّ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم الحُسْنَى؛ **وَمُنْذِرِينَ** مَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لاَ يُرْسِلُ المرْسَلِينَ لِيَقْتَرِحَ عَلَيْهِمُ الظَّالِمُونَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ ، وَيَطْلُبُوا مِنْهُمْ مَا لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهِ)[2].

[1]) فتح القدير ج2 ص 415

[2]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 2196

قال الشيخ طنطاوي (فالجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لبيان وظيفة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ولإظهار أن **ما يقترحه المشركون عليهم من مقترحات باطلة ليس من وظائف المرسلين أصلا)**[1] .

قوله (..فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (48) عطف الإصلاح على الإيمان لأن الإصلاح دليل الإيمان ، ولن ينجو من عذاب الله –في الدنيا– إلا من كان مصلحا قال تعالى (وَمَا **كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)** (هود 117) ، قال الشيخ محمد رشيد رضا (وفيها دليل على أن الإيمان بالله من غير إصلاح الأعمال وعدل العمال لا يمنع الإهلاك)[2].

قال الشعراوي (إنّ على المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التي تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً؛ وهذا هو عمل **القلب** ، أما أن يكتفي بعمل القلب كتعبير عن الإيمان فليس ذلك بكاف ، وإنما يجب أن ينقاد المؤمن إلى منهج ربه ، **بقلبه وجوارح** وأجهزة متعددة ،فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل فيؤديه بجوارحه أداء صحيحا سليما)[3] ، ثم استطرد في توضيح مفهوم "الإصلاح" بما يعني **كل محاولة لتعمير هذا الكون** كما أمر الله تعالى من زرع وحرث وطب وهندسة وتربية وأخلاق ....الخ .

قال ابن تيمية (وَمَعْلُومٌ أَنَّ **الْإِيمَانَ أَفْضَلُ الْإِصْلَاحِ** ، وَأَفْضَلُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ)[4]، قِيلَ : (يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : إيمَانٌ بِاَللَّهِ)[5] ، قال الشيخ بادحدح (ولو تأملت آيات القرآن لوجدتها **تربط بين الإيمان والإصلاح**، وتجعل **الإيمان مقدمة له**، وتجعله سابقاً عليه؛ لأنه لا يمكن أن يكون هناك إصلاح بغير المنطلق الإيماني والمنهج الإسلامي (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) [الأعراف:35] **لا ينبعث إلى الإصلاح إلا من اتقى الله وعمر قلبه بخشيته وتقواه**؛ لأن ذلك عاصم له بإذن الله من أن يخوض فيما لا ينبغي الخوض فيه، وأن يقترف ما يحرم وما يحول بينه وبين التحقق بتقوى الله جل وعلا، ثم إننا كذلك نلمح الأمر في كلتا الآيتين بذكر الرسل والأنبياء قبل ذكر الإصلاح، وذلك فيه إشارة إلى أن المنطلق **للإصلاح مع الإيمان والتقوى هو اتباع الرسل والأنبياء** صفوة الله من خلقه صلوات الله وسلامه عليهم)[6].

قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (49) التفات إلى النقيض لبيان محل الإنذار الصادر لهم من الرسل وبيان نتيجة تكذيبهم بتلك الآيات الباهرة ، فعاقبة المكذبين تبدأ من حيث يمسهم العذاب الذي كذبوا به ، قال النسفي (**جعل العذاب ماساً** كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام)[7]

---

[1]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1460
2) مجلة المنار ج1 ص 585 2 جمادى الآخرة - 1316هـ نوفمبر - 1898م
3) بشيء من التصرف انظر تفسير الشعراوي ج1 ص 2525
4) مجموع الفتاوى ج7 ص 86
5) رواه البخاري ج5 ص 398 رقم 1422
6) دروس الشيخ علي بن عمر بادحدح درس 131 ص 3 تفريغ الشبكة الاسلامية
7) تفسير النسفي ج1 ص 327 تفسير حقي ج3 ص 431 قال النيسابوري ، وفيه نظر لأن المس ليس من خواص الأحياء ، نعم إنه من خواص الأجسام ج3 ص 273

قال إمام الحرم المكي (الانحرافُ عن طريقة الرّسُل إفسادٌ في الأرض، والله تعالى يقول: (**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) [الأعراف:85]، ولكنَّ الإنسانَ المفسِد غيَّر وبدَّل وتمرَّد وعصَى، واتّبَع خطواتِ الشيطان، فأفسد في الأرض بالشركِ وسَفكِ الدماء المحرَّمة والعدوانِ على المال المعصُوم والزنا والفواحشِ والمحرَّمات وظُلم الأبرياء، فكان جزاءُ المفسدين في الأرض الخزيَ في الدنيا والآخرة، وعقوبةُ المجرمين أشدُّ العقوبة وأنكى النكال)[1].

والعذاب هنا مسبب ، أي بسبب فسقهم إشارة إلى أن **التكذيب بآيات الله لا يصدر إلا من فاسق** ، قال حقي أى (بسبب **فسقهم المستمر** الذى هو الاصرار على الخروج عن التصديق والطاعة)[2]، قال الإمام البقاعي (وأما **الفسق العارض** فإن صاحبه يصدر التوبة منه ، فيعفى عنه) [3].

المسألة الثانية : تنزيه الرسالة عن مطامع الدنيا المزينة للمشركين ، وتوضيح مكانتها الراقية عن ذلك

قوله تعالى (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ)(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) (50) تجريد للدعوة الإسلامية من ثلاثة أشياء :-

الأمر الأول اكتناز المال أو وعد من اتبع النبي ﷺ اكتساب الكنوز والأموال أو الحصول على الثراء والغنى

الثاني التخرص بالغيب كما كان يحصل لمتبعي الكهان والسحرة ، زعما أن من يعرف المستقبل يملك الحاضر ، والمناسبة في ذلك أنه في زمن النبوة (**اختلطت النبوة بالسحر والكهانة** ، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضاً! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب؛ وأن يأتي بالخوارق؛ وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر!) [4].

الثالث أن يعدهم بقوة عسكرية تملك أقطار الأرض ، أي ملكا عضودا

فليس ذلك كله من لوازم الدعوة ولا من شأنها ، بل على العكس من ذلك ، فمن يتبع النبي ﷺ لابد وأن يعلم أنه سوف يضحي بماله واستقرار وملكه وكل شيء لأجل هذه الدعوة .

قال صاحب الظلال (جاءت العقيدة الإسلامية لترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته ، ولتخلص صورة النبوة من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل التي شاعت في الجاهليات كلها ، وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ، **يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها** ، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها ... فالرسول الذي يقدمه للناس بشر ، لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يقول لهم : إني ملك ... وهو لا يتلقى إلا من ربه ، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه) [5].

---

1) خطبة الشيخ عبد الرحمن السديس إمام الحرم المسجد الحرام مكة المكرمة 1425/3/4 موسوعة خطب المنبر ج1 ص 3239
2) إسماعيل حقي الاستنابولي : تفسير حقي ج3 ص 431 روح البيان ج3 ص 26
3) نظم الدرر ج3 ص 56
4)في ظلال القرآن ج3 ص 38
5)في ظلال القرآن ج3 ص 38

قوله تعالى (..إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ..) (50) **إيجاز بليغ لوظيفة النبي** ﷺ ، فهو لا ينشئ حركة تهدف إلى تغيير واقع سياسي أو نهضة تنموية تقلب أوضاعا اقتصادية أو حملة عسكرية تغير على البلاد فتضم أقاليمها لملك واحد ، بل هو مجرد عبد من عباد الله متبع للوحي الإلهي ، **فأينما يوجهه يتجه ، وحيثما يأمره يأتمر ، وإذا نهاه عن شيء ينتهي** ، ليس لهواه غرض ولا في نفسه مطمع ولا في قلبه مدخل لأن يشارك ربه في أي خصيصة من خصائص ألوهيته .

والاتباع للوحي الإلهي يقي البشرية كلفة التفكير وعناء البحث ومشقة التجارب لإيجاد علاج لكل مشكلة صغرت أم كبرت ، لأن الله تعالى كفاها ذلك بالمنهج الإلهي الذي أنزله ، **فمن يتبعه يسعد** ، قال تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ** فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) (طه 123) ، **ومن يخالفه يشقى** ، وقال تعالى (وَمَنْ **أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي** فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه 124) وليس هناك اختصار لتلك المسألة أكثر من ذلك ، فمن يظن أنه بعقله المحدود يستطيع أن يحقق المعجزات فهو واهم متى لم يتمكن من أن يتفكر في المنهج الرباني ليستقي منه الحلول لمشكلته.

فالمتأمل في سيرة النبي ﷺ والمتفكر فيها يجد أنه ﷺ وعد أصحابه بأن يكون لهم ملك الدنيا كلها ، وفي ذات الوقت علمهم أن يكون **هذا الملك في أيديهم لا في قلوبهم** ، فهم في دعوتهم متجردين من كل مطمع ، وإنما وعدهم بذلك ليبين لهم **سعة البلاغ** وأنه لن يحول بينهم وبين البلاغ حائل ، ولن تقع أمامهم قوة حتى يبلغوا هذا الدين للناس كافة ، وأن كل ما يعترض طريقهم مصيره إلى الزوال ، هكذا علم النبي ﷺ أصحابه المنهج الرباني ودلهم عليه بكل وضوح .

والصحابة رضوان الله عليهم التزموا هذا المنهج ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم أن خلافته اتسعت أقطار الأرض وامتدت إلى مصر وما بعدها غربا والفرس (إيران حاليا) شرقا إلا أنه كان ينام على الأرض بين الناس ولا يبالي .

قال الشاعر : حافظ إبراهيم

وَراعَ صاحِبَ كِسري أَن رَأى عُمَراً *** بَينَ الرَعِيَّةِ عُطلاً وَهوَ راعيها
وَعَهدُهُ بِمُلوكِ الفُرسِ أَنَّ لَها *** سوراً مِنَ الجُندِ وَالأَحراسِ يَحميها
رَآهُ مُستَغرِقاً في نَومِهِ فَرَأى *** فِيهِ الجَلالَةَ في أُسمَى مَعانيها
فَوقَ الثَرى تَحتَ ظِلِّ الدَوحِ مُشتَمِلاً *** بِبُردَةٍ كادَ طولُ العَهدِ يُبليها
فَهانَ في عَينِهِ ما كانَ يَكبُرُهُ *** مِنَ الأَكاسِرِ وَالدُنيا بِأَيديها
وَقالَ قَولَةَ حَقٍّ أَصبَحَت مَثَلاً *** وَأَصبَحَ الجيلُ بَعدَ الجيلِ يَرويها
أَمِنتَ لَمّا أَقَمتَ العَدلَ بَينَهُمُ * فنمت نوم قرير العين هانيها**

وكذلك لما وعد النبي ﷺ سراقة بن مالك أن يلبس سواري كسرى ، ألبسه الخليفة عمر بن الخطاب تاجه ثم خلعها منه ، ليرده إلى بيت مال المسلمين ، فمما اشتهر في السيرة أنه ﷺ لما هاجر وصاحبه الصديق – رضي الله عنه – ولحق بهما

سراقة بن مالك أنه ﷺ قال لسراقة" :كيف بك إذا لبستَ سواريْ كسرى"؟ وقد ذكر ذلك الحافظان ابن عبد البر وابن حجر –رحمهما الله– في ترجمتهما لسراقة – رضي الله عنه – فقالا" :روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله – ﷺ قال لسراقة .. :وذكره" :قال فلما أُتي عمر – رضي الله عنه – بسواري كسرى ومنطقه وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، ...وقال له :ارفع يدك، فقال :الله أكبر والحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة الأعرابي"[1]

روي غير واحد من أهل العلم أنه لما قدُم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصيب من العراق — أي الأموال – قال له صاحب بيت المال أنا أُدْخِله بيت المال ؟ قال لا ورب الكعبة لا يؤوى تحت سقف بيت حتى أُقَسِّمَه ، فأمر به فوُضِع في المسجد ووُضِعت عليه الأنطاع ، وحَرَسَه رجال من المهاجرين والأنصار ، فلما أصبح غدا معه العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف أخذ بيد أحدهما أو أحدهما أخذ يده ، فلما رأوه ، كشطوا الأنطاع عن الأموال ، فرأى منظرا لم ير مثله رأى الذهب فيه والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ فبكى فقال له أحدهما إنه والله ما هو بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال إني والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا في قوم قط إلا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه إلى السماء وقال اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإني أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قال **أين سراقة بن جعشم** ؟ فأُتِي به أشعر الذراعين دقيقهما ، **فأعطاه سواري كسرى فقال ألبسهما** ، ففعل فقال قل الله أكبر قال الله أكبر قال قل الحمد لله الذي سلبهما من كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيا من بني مدلج ، وجعل يقلب بعض ذلك بعضا ، فقال إن الذي أدى هذا لأمين فقال له رجل أنا أخبرك أنت أمين الله وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله ، فإذا رتعت رتعوا قال صدقت ثم فرقة ، قال الشافعي (وإنما ألبسهما سراقة لأن النبي ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه **كأني بك قد لبست سواري كسرى**) قال (ولم يجعل له إلا سوارين)[2].

قوله (..قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) (50) تبكيت لهم أن عموا عن **إدراك كنه الدين** ، وهو واضح أمامهم ، ففيه **التجرد عن مطامع الناس** ومنافعهم المادية ، فهو أرقى من ذلك بكثير ، لأنه يزكي النفس وبه تسمو الروح ، وتُهَذَّب الأخلاق ، فهو عقيدة صافية وشعائر تعبدية ومنهج حياة كامل ومتميز ، فمن لم يدرك هذه الحقيقة فهو كالأعمى لا يدرك مكانه الذي يقف فيه ، بينما الذي يتفكر في هذا الدين فهو مبصر مدرك مكانه وما حوله ، فيسير بثقة وثبات دون أن يقع أو يتردد .

---

1) قال الشيخ محمد بن عبد الله العوشن في كتابه (ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية ص 85) (وهذا مرسل الحسن بن أبي الحسن البصري الإمام المشهورة وهو على جلالته وعلمه وفضله إلا أن مراسيله ليست بحجة، وهو قول محمّد بن سيرين وابن سعد والإمام أحمد، وخالفهم الإمامان أبو زرعة الرازي ويحي القطان)
قال العلائي -رحمه الله- في) جامع التحصيل" :(والظاهر أن قول الأكثر أولى بالاعتماد، وقال أحمد بن حنبل :ليس في المرسلات شيء أضعف من مرسلات الحسن وعطاء بن أبي رباح فإنهما كانا يأخذان من كل ضرب)
وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة من طريق علي بن زيد -وهو ضعيف- عن الحسن، وليس فيه" :كيف بك إذا لبست سواري كسرى)."
أما أصل القصة وهي لحاق سراقة بالرسول ﷺ والصديق فهي ثابتة رواها البخاري، ومسلم

2) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج6 ص 357 رقم 12812

يقول صاحب الظلال (هذا الدين يعد البشرية **للرشد العقلي** ، ويؤهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي **وهبها** الله للإنسان استخداماً كاملاً في إدراك الحق الذي تنبث آياته في صفحات الوجود ، .... .وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من **عهد الخوارق** الحسية التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان .. **إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله** . وهي في ذاتها خوارق معجزة . . ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ، ويتألف منها قوامه وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر معجز .. وقد اقتضى هذا الأمر **تربية طويلة** ، وتوجيهاً طويلاً ، حتى يألف الإدراك البشري **هذا اللون من النقلة** ، وهذا المدى من الرقي؛ وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري ، في ظل التوجيه الرباني ، والضبط القرآني ، والتربية النبوية ..)[1] .

المسألة الثالثة : الإحاطة بالمؤمنين والحفاظ عليهم من مكر الماكرين

قوله (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (51) أي أنذر بالقرآن من يخاف وعيد ، الذين يتوكلون على ربهم ، فهم أهل لأن يتعظوا به ، فهم أولى بالإنذار من غيرهم ، ونظير ذلك قوله تعالى (**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**) (ق 45) ، وقال تعالى (**إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ** وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)(11: يس) أي أن (هؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذي ليس فيه – من دون الله – ولي ولا شفيع ، **أحق بالإنذار** ، وأسمعُ له ، وأكثر انتفاعاً به) [2]

ويجدر التنويه إلى ما قاله الإمام البقاعي (**وليس المراد تخصيص الإنذار بالخائف –وحده–**، بل –المقصود– الإشارة إلى جلافتهم وعظيم بَلادَتهم وكثافتهم في عدم تجويز الجائز الذي هو أهل لأن يخافه كل واحد)[3] ، يقصد بـ "تجويز الجائز" أي أن يحشروا إلى ربهم) [4].

وبذلك **تحددت أولويات الدعوة** الإسلامية ، وتحدد **أولى المخاطبين بها** ، فكان لمن آمن بالنبي ﷺ وباليوم الآخر الأولوية في إيصال الدعوة إليه عن غيره ، فهو أحق بالتذكرة وأحق بالموعظة، ولذلك اهتمت هذه السلسلة من الأبحاث بالمؤمنين ليكونوا هم نواة هذه الدعوة لغيرهم .

---

1) في ظلال القرآن ج3 ص 36
2)في ظلال القرآن ج3 ص 38
3) نظم الدرر في تناسب الآيات والسورة ج3 ص 59
4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسورة ج3 ص 59

ولا ينفي ذلك العمل في إطار متوازٍ على إيصال الدعوة للكافة عن طريق البلاغ العام ، كما في قوله (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ **لأُنذِرَكُم بِهِ** وَمَن بَلَغَ) (الأنعام 19) .

قوله (وَلَا **تَطْرُدِ** الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ **يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ **فَتَطْرُدَهُمْ** فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (52) ويترتب على تخصيص الأولوية في توجيه الجهد الدعوي للمؤمنين ، أن لا يقبل الدعاة مساومة أحد في إخوانهم ، فلا يطمع أحد في إيمان المشركين مقابل أن يترك من معه من المؤمنين ، فمن آمن بالآخرة كان أولى بالدعوة من غيره ، ونظير ذلك قوله تعالى (**واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم** بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ **وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**) [الكهف : 28]

وعَنْ سَعْدٍ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ (**اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا**) قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ ، **فَحَدَّثَ نَفْسَهُ** ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ") [1]، قال ابن علان في قوله (فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع) أي (**من تقريب المشركين طمعاً في إسلامهم وإسلام قومهم نظير إعطائه الفيء لجمع من المؤلفة تألفاً له ، ومنع ذلك عن بعض محتاجي المؤمنين اكتفاء بما وقر في قلبه من نور الإيمان المغني عن التألف** ، ورأى النبي أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئاً ولا ينقص لهم قدراً (فحدّث نفسه) أي بذلك)[2]

وقد يكون ما حدث به نفسه الميل إلى طردهم عن مجلسه مؤقتا طمعا في إسلام الأكابر المتفرع عليه إسلام الكل بعدهم ، أي ظن أنه بذلك يضمن إسلام الكل ، (فحدث نفسه أي للتألف بهم أن يطردهم صورة — من باب الحيلة – بأن **لا يأتوه حال وجود الأكابر عنده أو يقوموا عنه إذا هم جلسوا عنده مراعاة للجانبين**) [3]، ولكن الله قطع هذا الهم بذلك النهي لأن هذه الحيلة تنطوي على تأكيد للفصل العنصري ، ولا شك أن ذلك باطل ، وليس من الإسلام في شيء ، بل يهدم مضمون الرسالة الإسلامية التي لا تفرق بين أعربي وأعجمي ، ولا بين غني وفقير إلا بالتقوى .

فعَنْ خَبَّابٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِلَى قَوْلِهِ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ) قَالَ جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنْ الضُّعَفَاءِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ **فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ** فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ ، وَقَالُوا **إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا** فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ **تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ** فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ قَالَ نَعَمْ قَالُوا فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا قَالَ فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ))[4]

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 144 رقم 4434
[2]) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج2 ص 359
[3]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج 18 ص 71
[4]) رواه ابن ماجة ج12 ص 155 رقم 4117 وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجة ج 12 ص 155 رقم 4117

قوله (..وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (52) ولذلك نهاه الله عن مجرد التفكير في تلك المساومة ، ولو أن يفعل ذلك بطريق الحيلة كما تقدم **ارضاءً للطرفين** ، قال الشيخ مصطفى العدوى (في هذه الآيات **تأديب للدعاة** إلى الله، صحيح أننا أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، لكن مع إنزال الناس منازلهم لا نضيع حق الفقراء وحق الضعفاء أمام المناصب الزائلة، والوجاهات التي ستزول وتفنى، فكل له حق يؤدى إليه) [1] .

ولذلك كان لهؤلاء الضعفاء من الصحابة منزلة عالية عند رسول الله وشأن عظيم حتى أنه كان يحرص على رضاهم ولو على حساب صاحبه أبي بكر ، ففي صحيح مسلم أَنَّ **أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ** فِي نَفَرٍ رأوه –وكان ذلك عام الفتح–فَقَالُوا **وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا** ، قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ **يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ** لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ **لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ** فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ قَالُوا لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي)[2] .

قوله (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) (53) أي أن اختلاف المستوى الاجتماعي بين الغني والفقير هو سبب فتنة بعضهم ببعض ، حيث يحقر الغني الفقير ، ويكون الفقير مفضلا على الغني في بعض المجالات ، وكذلك الحال بين القوي والضعيف ، وبين من آتاه الله سلطانا وغيره من المستضعفين ، قال الشعراوي (**وجه الفتنة** هنا أن قومًا طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : (أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ)؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعي للمستضعفين من المؤمنين ، ونظير ذلك ما ذكره الله من قولهم (**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**) [الشعراء:111] ، قال ابن القيم الجوزية (إذا رأى الشريف الرئيس المسكين الذليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول **حمى وأنف أن يسلم** فيكون مثله ، فيقول أُسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء)[3]، فجاءهم الرد من الله (أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين) ، فسبحانه هو العليم أزلاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يقرره)[4]

قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) قال حقي (وفيه إشارة إلى أن أولئك الضعفاء **عارفون لحق نعمة الله** تعالى فى تنزيل القرآن والتوفيق للإيمان **شاكرون له** تعالى على ذلك ،وتعريض بأن **القائلين بمعزل من ذلك** كله)[5]

وقد أشار النبي ﷺ إلى أن الضعفاء الذين يهين شأنهم في أعين الناس هم في الغالب والأعم أقرب إلى الله من غيرهم ، فقال رسول الله ﷺ (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ **كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ** لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ **لَأَبَرَّهُ**)[6] ، قال ابن الأثير (يريد الذي

1) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ج84 ص 3
2) رواه مسلم ج12 ص 307
3) إغاثة اللهفان ج2 ص 161
4) تفسير الشعراوي ج1 ص 2545
5) تفسير حقي ج3 ص 436
6) رواه البخاري ج15 ص 218 رقم 4537

يَتَضَعَّفه الناس ، ويَتَجَبَّرون عليه في الدُّنيا للفَقْر ورَثَاثةِ الحال)[1] ، وقَالَ ﷺ (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)[2]

ولكنه لا يقسم على الله ليغير حاله في الدنيا رضا بربه وقد اطمأن لما قدره الله وقضاه فهذا هو المخبت ، المشغول بالآخرة ، وقد انشغل بها عن الدنيا ، وليس معنى ذلك أنه اختار أن يكون رث الثياب ، ولكن من الضعف بمكان أن صار من ذوي الفاقة والحاجة ، وهو يعلم أن الله جميل يحب الجمال ، ويحب الثوب الحسن والنعل الحسن ، ولكن ليس بالإمكان أفضل مما هو فيه .

ويشهد لذلك قول النَّبِيّ ﷺ قَالَ (تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ النَّارُ **أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ** وَقَالَتْ الْجَنَّةُ مَا لِي **لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ** قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا)[3] ، ولذلك قال النووي في تفسير "الضعفاء" أى **(العاجزون عن طلب الدنيا والتمكن فيها والثروة والشوكة)** [4].

فقوله (لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ) قال ابن الأثير أي (أراذِلُهم وأدْوَانهم)[5]

وقال القاضي عياض (قوله ضعفاؤهم أي مجاويعهم) [6]

وقال صاحب التحفة (المراد بالحصر في قول الجنة إلا ضعفاء الناس الأغلب)[7].

وقال ابن الجوزي (ورد المدح – في الحديث – لحالها لأنهم قوم ليس فيهم خب ولا دغل شغلتهم التقوى عن ذلك)[8].

وفي زمننا هذا نجد أن أكثر رواد المساجد هم عمال النظافة وبعض أصحاب المهن البسيطة والحرف الصغيرة ، ولا تجد أحسن حالا في المواظبة على الصلاة بالمسجد إلا هؤلاء في صورتهم البسيطة المتواضع ، وهم خارج المسجد لا يؤبه لهم ،

---

[1]) النهاية في غريب الأثر ج3 ص 188
2) رواه مسلم ج13 ص 60 رقم 4754
[3]) رواه البخاري ج15 ص 87 رقم 3372
4) شرح النووي على مسلم ج17 ص 181
5) النهاية في غريب الأثر ج2 ص 957
[6]) مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج2 ص 133
7) تحفة الأحوذي ج7 ص 238
[8])) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 788

بينما تجد في مقابلة هذه الصورة انشغال أصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال والسلطة والنفوذ بالدنيا فلا يكادون يدخلون المسجد إلا قليلا ، فمن أين تبدأ الدعوة ؟ وهنا يسأل المرء نفسه هل هؤلاء الضعفاء هم الذي ينتظر منهم أن ينصروا دعوة الحق ؟ أين المثقفون من هذه المسئولية ؟ أين رجال الصحافة والإعلام ؟ هل تنتشر دعوة الإسلام بدون هؤلاء ، ومن جهة أخرى يتساءل في فرض أن الإسلام قد انتشر ، وقد مكن الله أهل الحق لأداء الأمانات بين الناس ، فيتساءل مرة أخرى كيف يقيم هؤلاء الضعفاء دولة الإسلام وهم بهذا الحال الذي يرثى له ؟ أين رجال القانون ؟ أين رجال الشرطة ؟ أين الاقتصاديون ؟ لماذا مساجد الله خالية من هؤلاء جميعا ؟ فهل يستعمل الله لأمر نشر دعوته وإقامة شرعه هؤلاء الضعفاء من الرجال الذين لا يؤبه لهم ؟ كما يتكرر السؤال مرة أخرى فهل نبدأ بالإعلاميين والمفكرين والاقتصاديين ورجال الشرطة ورجال القانون والاقتصاديين أم نبدأ بأرباب المساجد ؟ هذا هو ما فعله رسول الله ﷺ تحديدا حيث جمع تركيزه على أرباب المساجد الذين يجلسون معه ، ولم يعر اهتماما بأصحاب المال والجاه والسلطان ، فمن شاء منهم أن ينضم لإخوانه من المؤمنين الذي يجالسون النبي ﷺ ويتناجون معه فليفعل ، ومن يستنكف فلا حاجة لدعوة الإسلام به .

قوله (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (54) هذه الآية تحض النبي ﷺ على **الاحتفاء بالمؤمنين القادمين عليه** لكونهم مؤمنين وحسب ، فقد أمره الله بإلقاء السلام على المؤمنين حين يأتوه ، ما يعني أن لهم حقوق مثل غيرهم من المؤمنين لا فرق بين غني وفقير ، **فالكل سواسية ، والجميع ينعمون بسلام الإسلام** ورحمة الله ، ولذلك ازداد المؤمنون من حوله ﷺ بالرغم من أن النواة الأولى التي كانت حول النبي من الضعفاء .

فثبات النبي على موقفه في عدم تجنيب الضعفاء هو الذي ضمن لهذه الدعوة الازدهار ، فعن أبي سفيان بن حرب أن هرقل ملك الروم سأله – لما دَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ – قَالَ (فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ **ضُعَفَاؤُهُمْ** قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ.... وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ **أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ** فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ **يَزِيدُونَ** وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ)[1].

قوله تعالى (..كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ..) (54) أي بشر هؤلاء القادمين عليك من المؤمنين بأن رحمة الله تحفهم بمجرد إقبالهم عليك طلبا للتزكية والإيمان ، قال رسول الله ﷺ (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا **نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ** وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[2].

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن سخر هؤلاء الضعفاء من الصحابة لإقامة هذا الدين ، **ليكونوا أرفأ الناس حالا بالناس حين يتولون أمانتهم** ، وقد تربوا من قبل على هذه الرحمة ، حيث كان النبي ﷺ يضمهم إلى جناحه ، فكانوا يجتمعون حول

[1]) رواه البخاري ج1 ص 8 رقم 6
[2]) رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867

النبي ﷺ في بيت الله تعالى يسمعون ما يتلى عليهم من الذكر والحكمة ، وكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عن رحمة ربه ، ويحثهم على طاعته ومحبته ، ويدلهم على الأعمال التي تقربهم من الله .

وقد كان من **رحمة النبي ﷺ بأصحابه وإحاطته بهم** أنه كان إذا جلس معهم يستحي أن يتركهم حتى يتركوه ، عن خباب (فَدَنَوْنَا مِنْهُ –أي النبي ﷺ– حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ **وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا** فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) (الكهف) ، وَلَا تُجَالِسْ الْأَشْرَافَ (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) يَعْنِي عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) قَالَ هَلَاكًا قَالَ أَمْرُ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[1]، قَالَ خَبَّابٌ فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ)[2].

قال تعالى (..أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(54) وبشرهم كذلك بتدارك ما فات بالتوبة ، فالتوبة من المعصية كانت محور حديث أصحاب النبي ﷺ معه ، فعَنْ مُجَمِّعٍ التَّيْمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ مَاهَانَ ، قَالَ:"جَاءَ قَوْمٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، **إِنَّا أَصَبْنَا ذُنُوبًا عِظَامًا**، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَلَمَّا ذهبوا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: " وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ " الآية فَدَعَاهُمْ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ"[3].

وكان يعزيهم أن الذي اقترفوه **ما اقترفوا إلا عن جهالة** فإن تابوا بعدما جاءهم العلم وأصلح ما أفسد فإن الله يتوب عليه ويغفر له ويرحمه ، فعَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلَهُ "سُوءًا بِجَهَالَةٍ" ، مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ"[4]، لأنه لو عرف قدر ربه ما عصاه ، ولم تأمل شرعه لعلم الفرق بين عمل البر والإثم ، فلفظ (الجهالة) يصف حالة التلبس بالمعصية ، ولذلك قال قتادة " أَجْمَعَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنَّ كُلَّ **مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ فِي جَهَالَةٍ ، عَمْدًا كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ** ، وَكُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ " وَكَذَلِكَ قَالَ التَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ)[5]

فالإسلام يريد من المسلم أن يعرف ربه ويتعرف على شرعه ، فيزيل حالة الجهالة عن قلبه ، ليعرف دينه بمجرد حرصه على إرضاء ربه ، فهذا الحرص كفيل بأن يعرف الحلال من الحرام ، فعن أبي أمامة قال : قال رجل : ما الإثم يا رسول الله ؟ قال : ما حاك في صدرك فدعه : قال : فما الإيمان ؟ قال : **من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن**)[6]، وفي رواية عن النبي ﷺ قال (**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**)[7]

---

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 155 رقم 4117 وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجة ج 12 ص 155 رقم 4117
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 155 رقم 4117 وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجة ج 12 ص 155 رقم 4117
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 246
[4])تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 247
[5]) مجموع فتاوى ابن تيمية ج14 ص 291 نقل الاجماع في ذلك
[6]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 117 رقم 7555
[7]) رواه مسلم ج12 ص 403 رقم 4632

قال أسعد حومد (وَلَعَلَّ أَقْرَبَ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى – مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ – هُوَ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ الذِي يَعْمَلُ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ هُوَ الذِي يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ فِي لَحْظَةٍ مِنْ **لَحَظَاتِ الطَّيْشِ** أَوِ الانْفِعَالِ أَوِ الضَّعْفِ الإِنْسَانِيّ أَوِ الهَوَى الجَامِحِ أَوْ ثَوْرَةِ الغَضَبِ . . . وَمَا مَاثَلَ تِلْكَ الأَحْوَالِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَرْتَكِبُ إِثْماً وَذَنْباً ، وَيُقْدِمُ عَلَى الذَّنْبِ وَهُوَ يَسْتَشْعِرُ فِي نَفْسِهِ **النَّدَامَةَ** ، ثُمَّ حِينَمَا يَتُوبُ إِلى نَفْسِهِ **يَنْدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ** ، **وَيَتُوبُ** إِلَى رَبِّهِ ، وَيَسْتَغْفِرَهُ ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِثِقَلِ الذَّنْبِ عَلَى نَفْسِهِ ، **وَهَذا غَيْرُ حَالِ** مَنْ أَقْدَمَ عَلَى اقْتِرَافِ الذَّنْبِ وَهُوَ **مُسْتَخِفٌّ** بِالدِّينِ وَبِحُرُمَاتِ اللهِ ، **غَيْرُ عَابِءٍ** بِهَا وَغَيْرُ مُسْتَشْعِرٍ نَدَماً عَلَى فِعْلِهِ) [1].

قال تعالى (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) (55) أي أن الله يأتي بالآيات الآية تلو الأخرى ليتضح للناس سبيل المجرمين ، فلا يخفى عليهم بعد ذلك ضلالهم ، ولا يلتبس عليهم الباطل بالحق ، وقد استبان الحق من أول آية ، ولكن كما قيل (**وبأضدادها تعرف الأشياء**) ، فلولا الشمس لم يعرف الظل ، أو كما قال المتنبي (وبضدها تتميز الأشياء)[2] ، (**فالضِّد يظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ**)[3].

يقول صاحب الظلال (هذه الآية القصيرة تكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج **لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب** ، إنما يعنى كذلك **ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً** . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين ، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق!)[4].

المسألة الرابعة : تبرؤ النبي من عبادة أصحاب الأهواء حتى حد المفاصلة

قوله تعالى (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (56) قال الشيخ طنطاوي (إشارة إلى أنهم فى عبادتهم لغير **الله تابعون للأهواء الباطلة ، نابذون للأدلة العقلية** ، وفى هذا أكبر برهان على انطماس بصيرتهم ، **وبنائهم لدينهم على الأوهام والأباطيل**)[5]

قال ابن عجيبة (لأني قد اجتمعت أهوائي في محبوب واحد ، حين وصلت إلى حضرته ، وتنعمت بشهود طلعته ، فانحصرت محبتي في محبوب واحد ، وفي ذلك يقول القائل :-

تَركتُ للنَّاسِ ، ما تَهوَى نُفوسُهم ... مِن حُبِّ دُنيا ومن عزٍّ ومن جَاهِ
كذَاكَ تَركُ المقَامَات هُذَا وَهُنَا ... والقَصدُ غَيبَتُنَا عَمَّا سِوَى اللهِ[6]

---

[1]) أسعد حومد ج1 ص 844
2) دكتور فيحان شالي المطيري : الإمداد بأحكام الحداد ج1 ص 27
هو من قول المتنبي (ديوانه: 117) ونذيمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتميز الأشياء
[3]) محمد صديق حسن خان القنوجي & الإمام محمد بن عبد الوهاب: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ص 169
[4]) في ظلال القرآن ج3 ص 51
[5]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1466
[6]) البحر المديد ج2 ص 154

وقد ذم النبي ﷺ اتباع الهوى فقال (**ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع**)[1] ، وقال ﷺ (ثلاث مهلكات ، "شح مطاع" و"**هوى متبع**" و"إعجاب المرء بنفسه من الخيلاء") وثلاث منجيات "العدل" في الرضا والغضب و"القصد" في الغنى والفاقة و"مخافة" الله في السر والعلانية)[2]

إذن التجرد عن الهوى هو حقيقة العبادة لله تعالى وشرط صحة العمل ، ونظير ذلك قوله (**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**)«ص 26» ، وقوله (ولو اتبع الحق **أهواءهم** لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)«المؤمنون 71» ، قوله (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم)«الانعام 116» ، وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**)[3].

و**مجانبة أصحاب الأهواء خير معين للمرء على اتباع الحق** ، فعلي المسلم أن **يجعل بينه وبين أهواء الظالمين حجابا** ، كما أنه يجعل بينه وبين النار حجاب ، فهو يجتنب أهواءهم كما يجتنب النار لعلمه أنه لو اقترب منها لاحترق ، كما ورد في الحديث (**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ** كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)[4].

ولكي يحصل ذلك لابد ومن أن يغلب الحب العقلي الهوي القلبي ، ولذلك قَالَ رسول الله ﷺ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا **وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ** وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[5] ، وفي رواية مسلم (وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[6].

قَالَ الْبَيْضَاوِيّ في قوله (أَنْ يَكُون اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُوله أَحَبَّ إِلَيْهِ) الْمُرَاد بِالْحُبِّ هُنَا **الْحُبّ الْعَقْلِيّ** الَّذِي هُوَ إِيثَار مَا يَقْتَضِي الْعَقْل السَّلِيم رُجْحَانه ، **وَإِنْ كَانَ عَلَى خِلَاف هَوَى النَّفْس** كَالْمَرِيضِ يَعَاف الدَّوَاء بِطَبْعِهِ فَيَنْفِر عَنْهُ وَيَمِيل إِلَيْهِ بِمُقْتَضَى عَقْله فَيَهْوَى تَنَاوُله ، فَإِذَا تَأَمَّلَ الْمَرْء أَنَّ الشَّارِع لَا يَأْمُر وَلَا يَنْهَى إِلَّا بِمَا فِيهِ إِصْلَاح عَاجِل أَوْ إِصْلَاح آجِل وَالْعَقْل يَقْتَضِي رُجْحَان جَانِب ذَلِكَ **تَمَرَّنَ عَلَى الِائْتِمَار بِأَمْرِهِ بِحَيْثُ يَصِير هَوَاهُ تَبَعًا لَهُ وَيَلْتَذّ بِذَلِكَ** اِلْتِذَاذًا عَقْلِيًّا إِذْ الِالْتِذَاذ الْعَقْلِيّ إِدْرَاك مَا هُوَ كَمَال وَخَيْر مِنْ حَيْثُ هُوَ كَذَلِكَ

---

[1]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 103 رقم 7518

[2])رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج5 ص 328 رقم 5452 وصححه الألباني في صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 126 -و52

3) رواه النووي في الأربعين ج1 ص 41 وقال : حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح ، قال ابن عثيمين (وهذا موقوف على ما ورد به الشرع , فليس للإنسان أن ينفي الإيمان عن الشخص بمجرد أنه رآه على معصية حتى يثبت بذلك دليل شرعي) ج1 ص 82
قال الألباني (إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه وقد اتهمه بعضهم والحديث أخرجه الحسن بن سفيان في الأربعين له ق وعنه السلفي في الأربعين البلدانية ق وفي معجم السفر ق والهروي في ذم الكلام وابن بطة في الإبانة والقاسم بن عساكر في طرق الأربعين ق كلهم عن نعيم به قال ابن عساكر وهو حديث غريب يعني ضعيف وقد كشفنا لك عن علته وذكر له الحافظ ابن رجب علا أخرى في شرح الأربعين النووية فراجعه مع تعليقنا على المشكلة) انظر ظلال الجنة ج1ص7رقم15

4) رواه البخاري ج17 ص 214 رقم 5108

[5]) رواه البخاري ج 1 ص 26 رقم 15

[6]) رواه مسلم ج1 ص 152 رقم 60

وَعَبَّرَ الشَّارِع عَنْ هَذِهِ بِالْحَلَاوَةِ لِأَنَّهَا أَظْهَر اللَّذَائِذ الْمَحْسُوسَة قَالَ وَإِنَّمَا جَعَلَ هَذِهِ الْأُمُور الثَّلَاثَة عِنْوَانًا لِكَمَالِ الْإِيمَان لِأَنَّ الْمَرْء إِذَا تَأَمَّلَ أَنَّ **الْمُنْعِم** بِالذَّاتِ هُوَ اللَّه وَأَنْ لَا مَانِع فِي الْحَقِيقَة سِوَاهُ وَأَنَّ **مَا عَدَاهُ وَسَائِط** ، وَأَنَّ الرَّسُول هُوَ الَّذِي يُبَيِّن لَهُ مُرَاد رَبّه اِقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ **يَتَوَجَّه بِكُلِّيَّتِهِ نَحْوه** ، فَلَا يُحِبّ إِلَّا مَا يُحِبّ وَلَا يُحِبّ مَنْ يُحِبّ إِلَّا مِنْ أَجَله وَأَنْ يَتَيَقَّن أَنَّ جُمْلَة مَا وَعَدَ وَأَوْعَدَ حَقّ بِيَقِينٍ تَخَيَّلَ إِلَيْهِ الْمَوْعُود كَالْوَاقِعِ فَيَحْسِب أَنَّ مَجَالِس الذِّكْر رِيَاض الْجَنَّة وَأَنَّ الْعَوْد إِلَى الْكُفْر إِلْقَاء فِي النَّار)[1] .

قوله (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)(58) أي أنه **اتبع الحق لا عن هوى كما اتبعوا أهواءهم ، وإنما اتبع منهج الله عن بصيرة ويقين** ، قال القرطبي (أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى) [2] ، قال الشعراوي (هنا يبلغ الحق رسوله ﷺ أن تركه لعبادة الأصنام ، وإن كان أمراً قد اهتدى إليه ﷺ بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة)[3].

قوله (..وَكَذَّبْتُمْ بِهِ..) أي كذبتم **بما عندي من الحجة** ، قال ابن عاشور (وجملة "كذبتم به" تفيد **التعجب** منهم أن كذبوا بما دلت عليه البينة) [4]، وفي ذلك **حجة للمفاصلة بينهم** وتهديد لهم باقتراب أن يتأيهم عذاب الله بغتة ، وكأن المعنى (أنا على بينة وأنتم كذبتم بما دلت عليه البينات فشتان بيني وبينكم) [5].

قوله (..مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ..) تحدى المشركون الرسول ﷺ أن يأتيهم بما أنذرهم به ، فلقنه الله الإجابة أنه ليس يملك من الأمر شيئا ، وإنما الأمر كله لله ، وإنما هو مأمور بالبلاغ وعلى الله الحساب والجزاء ، قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (العنكبوت 53-54)

قوله (..إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ..) قال الشعراوي (إن الحكم لله وحده ، **فإن شاء** أن ينزل عذابا ويعجل به في الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام من قبل فلا راد له ، **وإن شاء** أن يؤخر العذاب إلى أجل أو إلى الآخرة فلا معقب عليه)[6]

قوله (يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) (57) أي **يبلغه** على لسان رسله وأنبيائه ، عَنْ عَطَاءٍ: قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) ، وَقَالَ: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[7] أي أن أسلوب القصص في العرض وطريقة البلاغ للناس هو ما يتميز به القرآن ليحبب لهم الحق وأهله بأسلوب يثبت نجاح التجربة العملية ويكره لهم الكفر وأهله

---

1) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي ج6 ص 403 رقم 4902 ، ابن علان :دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج4 ص 71
2) تفسير القرطبي ج6 ص 438
3) تفسير الشعراوي ج1 ص 2553
4) التحرير والتنوير ج6 ص 131
5) التحرير والتنوير ج6 ص 131
6) تفسير الشعراوي ج1 ص 2554
7) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 250

بأسلوب يتضمن العبرة والعظة ، **فيكون اتباعهم للحق عن منهج عملي منظور قص عليهم أن أمثالهم قد اتبعوه** ، قال الزمخشري (أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره)[1] .

فإذا حصل البلاغ قامت الحجة ، وإذا قامت الحجة حصلت المفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل ، قال الواحدي معناه : (يقضي القضاء الحق ، وقوله "وهو خير الفاصلين" الذين يفصلون بين الحقِّ والباطل)[2] ، فإذا قامت حجة الله على العباد فصل بينهم بقضائه[3] ، فيهلك من هلك عن بينة .

قوله (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) قال صاحب الظلال (ولو كان رسول الله ﷺ يملك هذا الذي يستعجلون به ، ما أمسكه عنهم ، ولضاقت بشريته بهم وبتكذيبهم ، فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته ، كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته)[4] .

1) الكشاف ج2 ص 127
2) الوجيز للواحدي ج1 ص 188
3) في هذا المعنى أبو حيان : البحر المحيط ج5 ص 172
4) في ظلال القرآن ج3 ص 54

المطلب الثاني

فحوى الخطاب الدعوى ومنهجيته

قال تعالى (وَعِنْدَهُ **مَفَاتِحُ الْغَيْبِ** لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ **وَيَعْلَمُ** مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا **يَعْلَمُهَا** وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا **فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ **وَيَعْلَمُ** مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ **يَبْعَثُكُمْ** فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ **يُنَبِّئُكُمْ** بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ **الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ **حَفَظَةً** حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ **رُدُّوا** إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ **الْحَاسِبِينَ** (62)

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) **قُلِ** اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) **قُلْ** هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا **فَأَعْرِضْ** عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ **فَلَا تَقْعُدْ** بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) **وَذَرِ** الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا **وَذَكِّرْ بِهِ** أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا **قُلْ** إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى **وَأُمِرْنَا** لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

وفيه عدة مسائل :-

المسألة الأولى : التدبر في تصْرِيف الله الكون بعلمه وقهره للعباد ، يزيد اليقين بالعبث والحساب

قال تعالى (وَعِنْدَهُ **مَفَاتِحُ الْغَيْبِ** لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ **وَيَعْلَمُ** مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا **يَعْلَمُهَا** وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا **فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ **وَيَعْلَمُ** مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ **يُنَبِّئُكُمْ** بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ **الْقَاهِرُ** فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (62)

قوله (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (59)

قال الدكتور فاضل السمرائي (جاء هنا تقديم الخبر علي المبتدأ المعرفة بالإضافة(مفاتح الغيب) لغرض وهو التخصيص والحصر ، ومعنى الآية أن مفاتح الغيب عند الله تعالى حصراً ، وليس هناك ذات أخرى عندها مفاتح الغيب فهذا تقديم **للحصر والقصر**)[1].

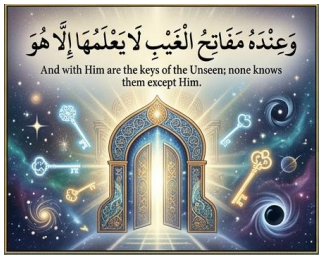

قال العلماء (أمور الغيب لا يحصيها إلا عالمها **وأقرب الأشياء** إلى الاطلاع على ما غاب **الأبواب** ، والمفاتيح أيسر الأشياء لفتح الباب ، فإذا كان أيسر الأشياء لا يعرف موضعها فما فوقها أحرى أن لا يُعرف)[2].

قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (**مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ**) :-

- إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
- وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ
- وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
- وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا
- وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [3].

فالساعة هو نهاية الامتحان ، والغيث هو السبب لأرزاق الناس ، والأرحام هو المسبب وكناية عن استمرار الحياة ، والغد مستقبل تكهن فيه كثير من الناس والمؤمن يفوضه لله ، والأرض التي يموت عليها الإنسان هي منتهى سعيه في

[1]) لمسات بيانية في نصوص التنزيل ج1 ص 765
[2]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 365
[3]) رواه البخاري ج14 ص 158 رقم 4261

الدنيا ، ولعلها كناية عن حسن أو سوء الخاتمة ، فمن مات وهو يصلي أو يجاهد بخلاف من مات وهي يعصي الله في أماكن الفسق والفجور .

قوله (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) (59) فشتان بين عالم الأحياء المائية وعالم الأحياء البرية ، فهما نقيضان رائعان في طريقة بناء الكائنات الحية وتكيفها ، الأحياء المائية تتكيف مع الضغط العالي والطفو ونقص الأكسجين، بينما تواجه الأحياء البرية الجاذبية الكاملة وتغيرات الحرارة الحادة وندرة المياه.

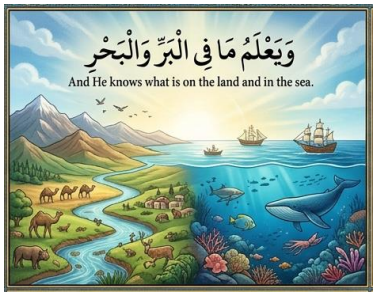

مقارنة بين الأحياء المائية والبرية

وجه المقارنة	عالم الأحياء البرية	عالم الأحياء المائية
التكوين البيولوجي	أطراف قوية، رئة للتنفس الهوائي، وجلد واقٍ من الجفاف.	أجسام انسيابية، خياشم للتنفس، وهياكل مرنة أو عظام خفيفة.
التكيف مع الحركة	المشي أو الجري أو الطيران باستخدام العضلات والعظام الصلبة.	استخدام الزعانف والذيل للسباحة ومقاومة التيارات المائية.
التكيف مع الضغط والحرارة	التكيف مع تقلبات الطقس الحادة والبحث عن الظل أو الدفء.	تحمل ضغط الماء الهائل وثبات درجات الحرارة نسبياً.

قوله (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) (59) ففي الآية دليل على إحاطة علم الله بكل شيء ، فليس من حركة أو سكون في الكون إلا بقدر الله وحكمته ، حتى ما يظنه الناس من **الحركات الاضطرارية** لأوراق الأشجار عندما تسقط على الأرض فإنها في علم الله وبحكمة وقدر ، (وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ) .

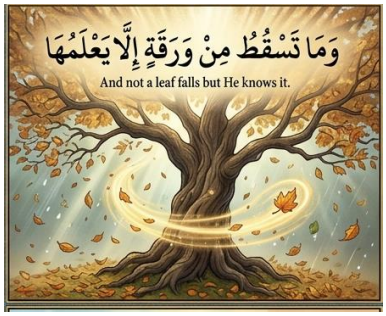

فإذا كان علم الله بهذه السعة والإحاطة ، وقد أحاط بكل شيء علما ، فلا شك أنه يتسع ليشمل علمه ما يفعله العباد ، وإذا كانت حكمته قد شملت سقوط ورق الأشجار في الوقت والمكان المقدر لذلك ، فلا جدال أن يفوض المسلم أمره إلى الله في كل صغير وكبير .

قوله (وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ) (59) فهذه الحبة تدخر في ذاتها طاقة كامنة ، تتحول بمرور الوقت وفي ظروف معين داخل الأرض إلى برعم صغير ، ثم بقدرته سبحانه تمتد رأسين في اتجاهين متضادين ، اتجاه مع الجاذبية حيث تتكون الجذور ، واتجاه رأسي ضد الجاذبية حيث تخرج السيقان والفروع ، فالآية تعبر عن حالة الكمون والسكون التام للحبة وهي في باطن الأرض قبل بزوغها ونموها ، لتبين قدرة الله ومراقبته لها وهي تطلق تلك الطاقة الكامنة فيها وتتحول لشجرة عالية الأغصان .

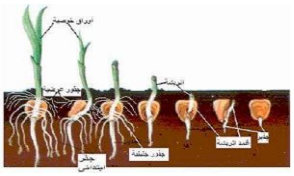
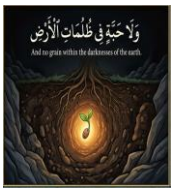

فعندما توضع الحبة في باطن الأرض وتشرب الماء ، تبدأ عملية الإنبات؛ حيث ينمو "الجذير" إلى الأسفل مثبتًا النبتة وممتصاً للماء ، بينما ينمو "الساق الجنيني أو الريشة" إلى الأعلى نحو النور عكس اتجاه الجاذبية ليخترق سطح التربة.

قوله (وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (59) **الرطب** هو الشئ الذي فيه رطوبة أي فيه ماء ما يدل على استمرار الحياة فيه ، **واليابس** هو الشئ الذي جف من الماء ، فقلت فيه الحياة ، يقول الدكتور سفر الحوالي (فالشيء الرطب أدنى نقطة من الرطوبة من الماء يقول علماء الأحياء: "**لو وضعتها تحت المجهر** لوجدت فيها الملايين من الأحياء، تعيش وتموت وفق أعمار قدرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى" فقدر أن هذا المكروب قد يعيش دقيقة أو نصف دقيقة، فبعضها لا يعيش إلا ثلاثين ثانية، وربما أقل من ذلك، لكن هذا العمر مكتوب ومحسوب ومقدر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما تنزل قطرة من السماء إلا والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمها).[1]

[1]) شرح الدكتور سفر الحوالي للعقيدة الطحاوية ص 1395

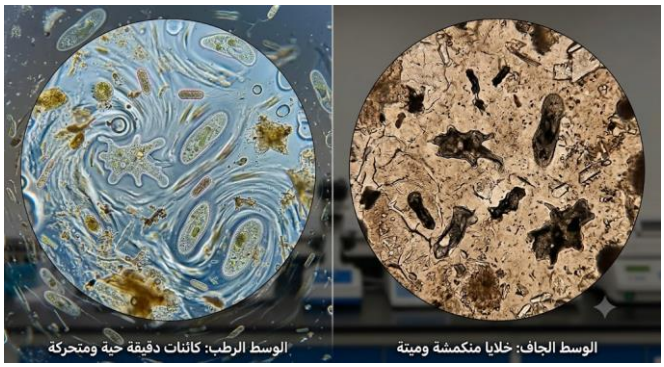

إذ يكشف الفحص المجهري عن تباين كبير في التركيب والبنية بين الرطب واليابس ؛ فالوسط الرطب يتميز بخلايا حية ممتلئة بالسوائل وجزيئات ماء حرة تدعم التفاعلات الحيوية والحركة المستمرة، بينما يظهر الوسط اليابس بانكماش الخلايا، وتوقف الأنشطة الأيضية، وتصلب الجدر الخلوية وغياب أي حركة مائية جزيئية.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : الرطب : الماء ، واليابس : البادية ، وقال عطاء : يريد ما ينبت وما لا ينبت ، وقيل : ولا حي ولا ميت ، وكلها معاني متقارنة تتوافق مع ما أكده علماء الأحياء

فقد استخدمت الاية أسلوب **المقابلة والطباق** الشامل، حيث تدل العبارة على إحاطة علم الله المطلق بكل موجود في هذا الكون، وهذه المقابلة لها دلالتها من الناحية الشرعية ، الرطب لسان المؤمن رطب بذكر الله ، واليابس لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله[1].

عن عبد الله بن بسر قال : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ يسألانه فقال أحدهما يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله[2] وقال الآخر يا رسول الله : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فمرني بأمر أتشبث به قال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله عز و جل)[3].

[1]) الكشف والبيان للنيسابوري ج4 ص154
[2]) رواه الترمذي كذلك ج8 ص 315 رقم 2251 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1ص99
[3]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج1 ص 393 رقم 515 واللفظ له ، ورواه الترمذي ج11 ص 226 رقم 3297 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 139رقم 2687 وصحيح ابن ماجة ج2 ص 317

قوله (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (60) هذه الآية تتحدث عن آداب ما قبل النوم ، وهذه الآداب تتعلق بعقيدة المسلم ، ليعلم أن النوم هو صورة مصغرة من الموت حقا ، فالله يقبض روحه أثناء النوم ثم يعيدها إليه مرة أخرى عند الاستيقاظ ، ولا أحد في الدنيا يملك ألا تأخذه سنة ولا نوم ، ولذلك فهذا الاعتقاد لكي يترسخ في قلب المؤمن يحتاج إلى تربية عملية على جملة آداب شرعية لفهم دلالة النوم وعلاقته بالموت والبعث ، وهذا ما علمه النبي ﷺ لأصحابه ، فعلمهم جملة آداب عند النوم وأذكار تقال عند النوم .

فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلْيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)[1]

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ (**اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَأَمُوتُ**) وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[2]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنْ اللَّيْلِ قَالَ (**بِاسْمِكَ نَمُوتُ وَنَحْيَا**) فَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[3]

وعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ رَجُلًا إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنْ اللَّيْلِ أَنْ يَقُولَ (اللَّهُمَّ **أَسْلَمْتُ نَفْسِي** إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ **وَفَوَّضْتُ أَمْرِي** إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مَاتَ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ) [4]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلًا إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ (اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا **لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا** اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ عُمَرَ فَقَالَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)[5]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ وَلْيُسَمِّ اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ (وَلْيَقُلْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ **إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا** بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)[6]

قوله (..وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ..) (60) قال الماوردي أي (**ما كسبتم** لأنه مستفاد بعمل الجارحة ، ومنه جوارح الطير لأنها كواسب بجوارحها)[7]، انظر قوله (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ **اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ** أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [الجاثية21] ، قيل (رأى ماكسبت جوارحكم فعلق الاجتراح بالنهار)[8]، لأن النهار جعل – في الغالب – معاشا للإنسان ، وفيه يكسب قوته ، ويعمل بيده ، ويحتاج إلى الصيد وجرح صيده ليأكله ، فيسفك

---

[1]) رواه البخاري ج22 ص 395 رقم 6844
[2]) رواه البخاري ج22 ص 396 رقم 6845
[3]) رواه البخاري ج22 ص 397 رقم 6846
[4]) رواه مسلم ج13 ص 236 رقم 4885
[5]) رواه مسلم ج13 ص 238 رقم 4887
[6]) رواه مسلم ج13 ص 240 رقم 4889
[7]) الماوردي : النكت والعيون ج1 ص 412
[8]) أبو طالب المكي : قوت القلوب في معاملة المحبوب ج1 ص 151

دم ذبيحته بجرحها ، طلبا للرزق الحلال ، وقد يسفك دما حراما فيأثم ، فسُمّيت أعضاء الإنسان جوارح لأنه يكتسب ويجني بها أعماله، سواء كانت خيراً أو شراً.

قوله (.. ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (60) أي مثلما ينام الإنسان ويستيقظ فإن الله يميته ثم يحييه ويبعثه ثم يحاسبه على ما عمل من عمل خيرا كان أو شرا .

قوله تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) قال البغوي "(القاهر" **الغالب**، وفي القهر زيادة معنى على القدرة ، وهي **منع غيره** عن بلوغ المراد) ، و"الفوقية" : (صفة **الاستعلاء** الذي تفرد به الله عز وجل)[1] ، ونظيره قوله (**وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**) [الأعراف] ، والمعنى أن الله (هو المنفرد بالتدبير الذي **يجبر الخلق على مراده**) [2]، فيجبرهم على النوم والاستيقاظ ليتأموا قدرته عندما يميتهم ثم يحييهم .

فليس لعبد من عباد الله أن يخرج عن قهر الله ، فيعطل سنة كونية خلقها فيه وجعلها مطردة في غيره ، قال ابن كثير أي: (هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره)[3] .

قوله (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) والحفظ صفة تقابل صفة القهر بما يحقق معنى التكامل بينهما ليدلان معا على إحاطة الله وقدرته المطلقة ، وأن الإنسان بين الكاف والنون ، فكما أنه يقهر عباده فإنه يحفظهم بقدرته ، وكما أنه يرسل ملك الموت ليقهرهم فإنه يرسل ملائكة تحفظهم بأمره ، قال السدي: (هم المعقبات من الملائكة ، يحفظونه ويحفظون عمله)[4] ، أي **يحفظون الأعمال في كتب** ، كما قال تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * **كِرَامًا كَاتِبِينَ** * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الإنفطار 20-12) ، أي أن جميع أعمال ابن آدم عليها **شاهد من الملائكة** يسجلها في دفاتر ، قال تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى **وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**) (الزخرف80) وقال تعالى (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ **يَحْفَظُونَهُ** مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (الرعد11) فهذه الملائكة موكلة بحفظ الإنسان فتدفع عنه الأذى غير ما قدره الله ، قال ابن عباس (هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه)[5] ، قال رسول الله ﷺ (**الْمَلَائِكَةُ يَتَعَاقَبُونَ** مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ)[6].

قوله (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) (61) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ فِي هذه الآية هم (أَعْوَانُ مَلَكِ الْمَوْتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ)[7] ، فالموت دليل قاطع على قهر الله لعباده ، (والأجل – والذي هو من قدر الله – يحفظ الإنسان من الموت ، فإذا انتهى الأجل جاءه الموت)[8].

---

[1] تفسير البغوي ج3 ص 133
[2]) تفسير البغوي ج3 ص 133
[3]) تفسير ابن كثير ج3 ص 244
[4]) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي
[5]) تفسير الطبري ج16 ص 371
[6]) رواه البخاري ج10 ص 500 رقم 2984
[7]) رواه ابن أبي شيبة ج13 ص 372 ومثله رواه الطبراني ج11 ص 410 رقم 13325، 13326

قوله (..وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) (61) أي لا يؤخرونه عن ساعة أجله حين يحين لحظة ، قال الزمخشري (**التفريط** التواني والتأخير عن الحدّ ، **والإفراط** مجاوزة الحدّ أي لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه)[1]، قال تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ **لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**) (الأعراف 34) .

قوله تعالى (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ..)(62) أي عند الموت ، قال ابن جزي معنى "المولى" مختلف في الموضعين ؛ فمعنى (مَوْلاَهُمُ الحق) أي : ربهم ، وهذا على العموم في جميع الخلق ، فهو الأحق بالولاية من غيره ، بخلاف قوله : (مَوْلَى الذين آمَنُواْ) فإنه خاص بالمؤمنين لأنه معنى الولي والناصر[2] ، أي أنهم حين يردون إلى الله ويرجعون له يعلمون حق العلم أنهم عبيدهم ولا يجادلون ، بينما في الدنيا يسعي كثير منهم إلى إرضاء غير الله وطاعة غيره ولو في معصيته سبحانه.

قوله (..أَلَا لَهُ الْحُكْمُ..)(62) عندئذ لا يقدر أحد من خلقه أن يعلن نفسه منافسا لربه كما كان حال بعض فراعنة الدنيا ، ونظيره قوله (**الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**) (غافر 16) ، وهذا يسري في الدنيا والآخرة ، قال ابن عجيبة في قوله (له الحكم) : «بسطك كي لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كي لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما ، كي لا تكون لشيء دونه »[3].

قوله (..وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (62) (فلا يشغله حساب عن حساب ، ولا شأن عن شأن[4] ، يعني (لا يحتاج إلى رويّة ولا تقدير)[5] ، قال الشيخ طنطاوي (وبذلك تكون هذه الآيات الثلاث قد أقامت **أقوى البراهين وأصحها على كمال قدرة الله ، ونفاذ إرادته** ، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا)[6].

قوله (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ) (64) قال الرازي (بين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله ، ولا تعويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عندهم في كل الأحوال والأوقات ، لكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة ، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية ، ويقدم على الشرك)[7].

---

[8]) انظر في هذا المعنى تفسير أبي السعود ج2 ص 378
[1]) الكشاف ج2 ص 130
2) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 2071
[3]) البحر المديد ج2 ص 156
[4]) البحر المديد ج2 ص 156
[5])النيسابوري : الكشف والبيان ج4 ص 155
[6]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1474
[7]) تفسير الرازي ج6 ص 320

قوله (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: " قُلْ مَنْ **يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً " ، يقول:"إِذَا ضَلَّ الرَّجُلُ الطَّرِيقَ دَعَا اللَّهَ: " لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " [1]

قوله (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ) عم بعد التخصيص[2] ، والكرب غاية الغم [3]، وفي ذلك دعاء مأثور يدل على الاستعانة بالله في الكروبات فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ **رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ **وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**)[4]

قوله (ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ) قول الرازي (الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة إلى **الأسباب الجسمانية** ، ويقدم على الشرك)[5] ، قال الألوسي (ولم يذكر **متعلق الشرك** تنبيهاً على استبعاد الشرك في نفسه) ، (وتنبيها على أن من أشرك في عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده رأساً إذ التوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة) ، و(المقصود **التوبيخ** بأنهم مع علمهم بأنه لم ينجهم إلا الله تعالى كما أفاده تقديم المسند إليه أشركوا ولم يخصوا الله تعالى بالعبادة) ، (وكلمة "**ثم**" ليس للتراخي الزماني بل **لكمال البعد بين إحسان الله تعالى عليهم وعصيانهم**) [6].

يقول الشعراوي (يعلم سبحانه بعلمه الأزلي أنهم **بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك** به ؛ لأن الإنسان عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى (كَلاَّ إِنَّ الإنسان **ليطغى** * أَن رَّآهُ استغنى) [العلق : 6-7] والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، **ولا يعصم الإنسان** من مثل هذا الموقف **إلا الإيمان بالله**؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح في بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا في ضوء **منهج الله** فهو يعرف كيف يرعى الله في كل ثراء يمنحه له الله ، أما الذي يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرّ ، فإذا ما أنجاه الله ادعّى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد في الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقي وهو الله)[7].

المسألة الثانية : تحذير النبي قومه من عذاب الله النازل بأشقيائهم

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 260
[2]) البحر المحيط ج5 ص 181
[3]) تفسير البغوي ج3 ص 153
[4]) رواه مسلم ج13 ص 264 رقم 4909
[5]) تفسير الرازي ج6 ص 320
[6]) تفسير الألوسي ج5 ص 364
[7])تفسير الشعراوي ج1 ص 2573

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) **قُلِ** اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) **قُلْ** هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

قال تعالى (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (65) العذاب الذي من فوق هو الرجم ، والذي من تحت فهو الخسف ، وجعلهم شيعا أي أحزاب متنازعة ، يحارب بعضهم بعضا ، إذ فرقت الآية بين نوعين من العذاب ، أحدهما هلاك عام مباشر يخص المشركين ، والآخر هلاك غير مباشر يخص بعض المسلمين ، فعن الحسن في قوله "عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم" قال : **هذا للمشركين** "أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض" قال : **هذا للمسلمين**)[1] .

فأما النوع الأول الخاص بالمشركين ، فعَنْ أُبَيٍّ قَالَ (هِيَ أَرْبَعُ خِلاَلٍ ، وَكُلُّهُنَّ وَاقِعٌ لاَ مَحَالَةَ ، فَمَضَتِ اثْنَتَانِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا ، **أُلْبِسُوا شِيَعًا , وَذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** ، وَاثْنَتَانِ وَاقِعَتَانِ لاَ مَحَالَةَ : **الْخَسْفُ وَالرَّجْمُ**)[2] ، أي أن الخسف من تحت أرجلهم ، والرجم من فوقهم ، تهديدا لمن لم يطبق حدود الله ، فإنه يستحق الرجم – شرعا –وسوف يخسف الله القرية الظالم أهلها برمتها.

فعن سهل بن سعد : أن رسول الله ﷺ قال : (**سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ**) قيل : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : (إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر)[3]

أما النوع الثاني الذي خص الله به المسلمين من العذاب ، **فذلك ليتميز الخبيث من الطيب** ، وفيه شغل المسلمين بتنقية الصف وما فيه من صرف شيء من الطاقة لجهاد المنافقين ، كما في قوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ **جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ** وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (التحريم 73)

قوله (..أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا..) قال البخاري (قوله "يَلْبِسَكُمْ" يَخْلِطَكُمْ مِنَ الِالْتِبَاسِ"يَلْبِسُوا" يَخْلِطُوا"شِيَعًا"فِرَقًا)[4]، قال أبو حيان (أي يخلطكم فرقاً مختلفين على **أهواء شتى** كلّ فرقة منكم مشايعة لإمام ومعنى خلطهم انشاب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال)[5] .

---

[1]) السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج4 ص 75
2) مصنف ابن أبي شيبة ج15 ص 180
[3]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج6 ص 150 رقم 5820 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج5 ص 236 رقم 2203 وقال صحيح بمجموع طرقه
[4]) البخاري ج14 ص 159
[5])البحر المحيط ج5 ص 182

وقال الشعراوي (والمقصود بلبس الأمر أي خلطه بصورة لا يتبينها الرائي ، و« شيعاً » هي جمع « شيعة » ، والشيعة هم : **المتعاونون على أمر ولو كان باطلا** ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة) [1] .

قال الطيبي قوله تعالى "أو يلبسكم شيعا" أي **يجعل كل فرقة منكم متابعة لإمام وينشب القتال بينكم** وتختلطوا وتشتبكوا في ملاحم القتال يضرب بعضكم رقاب بعض ويذيق بعضكم بأس بعض ، والمعنى يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى)[2] .

فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ قَالَ (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ "أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ**)[3] . ، ولذلك قال النبي ﷺ هذا أوهن وأيسر

وقوله (..وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ..) ظاهر معناه في قول النبي ﷺ (حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا)[4] من السجن والحبس ومصادرة الأموال ..الخ .

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إني سألت الله فيها ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها **وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها**)[5]

وفي الصحيح قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا **وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**)[6]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي **أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ** وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا **مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ** يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ **بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**)[7].

وقوله (..انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) أي أن العبرة من إنزال العذاب وتنوعه بهم على ما ذكر رجاء أن يتحقق فهمهم الدقيق لمعنى الإيمان بالله والتوكل عليه واليقين بقدره ، قال ابن عاشور (ذلك أنهم تبعوا دواعي الخوف المشاهد وذهلوا عن الخوف المغيب عن أبصارهم، وهو خوف الله فكان ذلك من قلة فهمهم للخفيات)[8].

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2574
2) تحفة الأحوذي ج 6 ص 331
[3]) رواه البخاري ج14 ص 160 رقم 4262
[4]) رواه مسلم ج14 ص 68 رقم 5144
[5]) رواه الترمذي ج8 ص 85 رقم 2102 وصححه الألباني : صحيح سنن الترمذي ج5 ص 175 رقم 2175
[6]) رواه مسلم ج14 ص 69 رقم 5145
[7]) رواه مسلم ج14 ص 68 رقم 5144
8) التحرير والتنوير ج28 ص 93

أي أن **الحرب الدائرة بين المسلمين هي في حقيقتها بين من يفقهون ومن لا يفقهون** ، فالذين يفقهون يعلمون أن الله سبحانه هو مدبر الأمر ، والعبد يسلم أمره لتدبير الله ويؤمن بقدر الله ، أما من لا يفقه فإنه يظن أن الأسباب هي التي تنجيه وهي التي تنفعه ، من هذا **المنطلق العقائدي** يتنازع المسلمون بعضهم مع بعض ليحق الله الحق بيد الطائفة التي تفقه دينها .

فعن زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ: " قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ " الآيَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ**"، قَالُوا: وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ:"نَعَمْ"، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا **أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ**، فَنَزَلَتْ: " انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ "[1].

قوله (**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ** قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)(66) فالعبرة في معرفة الحق ليس بكثرة المتبعين له ،ولا بقلة المخالفين له ، بل الحق أحق أن يتبع ولو لم يسبق لاتباعه أحد .

وفي ذلك قصة مشهورة تبين أن سبب ضلال بعض الصحابة وتأخرهم عن ابتاع الحق انشغالهم بعادات وتقاليد قومهم ، فعن عبد الله بن أبي بكر قال : قرأ عبد الله بن سهيل على أبيه (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل) فقال : (أما والله يا بني **لو كنت إذ ذاك** –ونحن مع النبي ﷺ بمكة – **فهمت منها –إذ ذاك– ما فهمت اليوم ، لقد كنت إذ ذاك أسلمت**)[2] ، أي أنه لو لم يعظم شأن قومه وعاداتهم وتقاليدهم التي عميت بصيرته حالما كان مشركا ، ولاطلع واستمع إلى ما يقوله محمد ﷺ ذاك اليوم بعين البصيرة ولم يعر اهتماما لمخالفة قومه له لسبق إسلامه من أسلموا قبله ،ولكن العصبية القبلية **أخرته عن الفهم ومعرفة الحق وإدراك الخير في هذا الدين** ، وقد استبان له ذلك بعدما حارب قومه النبي ﷺ ، فلم ينتصروا عليه ، بل ظهرت معايبهم وعصبيتهم وظلمهم ، ولكن الله سبحانه نجاهم منهم ونصره عليهم .

وهناك موقف آخر يبين أن الذين أسلموا بعد الفتح كانوا هم أعقل الناس ، وما أخرهم عن الإسلام إلا قلة التدبر ، فعن سهيل بن عمرو قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر اقتحمت بيتي وأغلقت على بابي وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن أطلب لي جوارا من محمد ﷺ : فإني لا آمن أن أقتل ، فذهب عبد الله بن سهيل فقال : يا رسول الله – ﷺ أبي تؤمنه قال : نعم هو آمن بأمان الله ، فليظهر ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : **من لقي منكم سهيلا فلا يشد إليه النظر فليخرج فلعمرى أن سهيلا له عقل وشرف ، وما مثل سهيل جهل الإسلام**)[3].

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 267

2) تفسير ب أبي حاتم ج5 ص 268 رقم 7451

3) رواه السيوطي في جامع الأحاديث ج35 ص 182 ومروي في كنز العمال ج10 ص 503 ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين:ج3/ص317 ح5225 ، والواقدي في المغازي ج2 ص 847 ، وأسد الغابة لابن الأثير ج1 ص 622 ، والاستيعاب لابن عبد البر ج1 ص 281

قوله (..وَهُوَ الْحَقُّ..) قال سيد قطب (والخطاب لرسول الله ﷺ يعطيه ويعطي المؤمنين من ورائه الثقة التي تملأ القلب بالطمأنينة ، الثقة بالحق – ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب – مقررًا أنه الحق ، ولا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم!)[1].

قوله (..قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)(66)

قوله تعالى (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)(67) قال الشنقيطي أي: (**لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه**، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين) [2]، ذلك أن الذي يكذب لايمكنه أن يكذب كل الوقت ، ولو حاول ذلك لوجب عليه أن يتذكر كل تفاصيل ما رواه من كذب ، لأنه حين يعيد الكلام يحرص على أن لا يغير الرواية ، وهذا يحتاج لجهد خارق في التذكر ، فإذا ما استطال عليه الزمان لابد وأن يخطئ ، والعكس كذلك صحيح فإن الصادق إذا لم يصدقه الناس اليوم ، فإنهم سوف يصدقونه كلما مر الزمان وتحقق شيء مما ذكره لهم ، ولذلك فإن **مضي الزمن عامل من عوامل إظهار الحقيقة** ، لكن **العاقل** هو **من يصدق الصادق قبل أن تظهر كل الحقائق** ، **لظهور أماراتها** ، ويكذب الكاذب لثبوت كذبه من أول مرة

أما **الغافل** فهو من ينتظر أن تصيبه المصيبة حتى يصدق الصادق بأن مصيبة سوف تلحقه إن لم يتحرز لها ، وعَنْ مُجَاهِدٍ فِي الآية قال (مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَسَوْفَ تَرَوْنَهُ، وَمَا كَانَ فِي الآخِرَةِ فَسَوْفَ يَبْدُو لَكُمْ) [3].

وقد أخبر النبي ﷺ **بوقوع العذاب بالمشركين المكذبين** ، فعن الْحَسَنَ أنه قَرَأَ: " لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ " ، قَالَ:"**حُبِسَتْ عُقُوبَتُهَا حَتَّى إِذَا عُمِلَ ذَنْبُهَا أُرْسِلَتْ عُقُوبَتُهَا**"[4]

المسألة الثالثة : مرحلة (الإعراض) الجهاد السلبي مع المشركين والمنافقين ، أو التذكير بلطف

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا **فَأَعْرِضْ** عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ **فَلَا تَقْعُدْ** بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) **وَذَرِ** الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا **وَذَكِّرْ بِهِ** أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

---

1) في ظلال القرآن ج3 ص 75 مع بعض التصرف
2) أضواء البيان ج6 ص 350
3) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 269
4) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 269

قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (68) هذه المرحلة من أضعف صور إنكار المنكر ، وكان ذلك فيما مضى من أقوى صور الإنكار في العهد المكي

قال صاحب الظلال (لقد كان هذا الأمر للرسول ﷺ ويمكن في حدود النص أن يكون **أمراً لمن وراءه من المسلمين** . . كان هذا الأمر في مكة . حيث كان عمل الرسول ﷺ يقف عند حدود الدعوة ، وحيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التي أرادها الله في هذه الفترة ، وحيث **كان الاتجاه واضحاً لعدم الاصطدام بالمشركين ما أمكن** . . فكان هذا الأمر بألا يجلس النبي ﷺ في مجالس المشركين متى رآهم يخوضون في آيات الله ويذكرون دينه بغير توقير ، والمسارعة إلى ترك هذه المجالس – لو أنساه الشيطان – بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه ، وكان المسلمون كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . . والقوم الظالمون ، المقصود بهم هنا القوم المشركون . كما هو التعبير الغالب في القرآن الكريم . . فأما **بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة** ، فكان للنبي ﷺ شأن آخر مع المشركين ، وكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، حيث لا يجترىء أحد على الخوض في آيات الله!)[1].

والحكم المشار إليه لا يختص بالمشركين وحده ، **فهو يتعدى كذلك إلى المنافقين** ، فقد ورد نظير هذه الآية في العهد المدني في سورة النساء ، في قوله (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ) ، ولعل مناط تطبيق الحكم هو أن المنافقين كانت لهم شوكة في المدينة ، ولم يكن بالمستطاع إنكار المنكر عليهم غير بتلك الطريقة السلبية واعتزالهم وجهرهم حال تلبسهم بالمنكر ، ولذلك يقول النبي ﷺ "ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم، **فلا يكونن عريفا ولا شرطيا ولا جابيا ولا خازنا**"[2]، وأساس هذا الحكم في تلك المرحلة قوله تعالى **(وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)** (هود113)

قوله (وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (68) فالنسيان أمر عارض على الإنسان ، ولا أحد معصوم منه ، حتى النبي ﷺ يقول (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي)[3]

قوله (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) (69) أي من يتقي مجالستهم اعتراضا على استهزائهم وكفرهم فقد برئ منهم ، ولا يتحمل وزرهم وقد أنكر منكرهم بتلك العزلة والإعراض عنهم ، فذلك أضعف الإيمان .

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 76
2) رواه ابن حبان وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 701 رقم 360
3) رواه البخاري ج2 ص 161 رقم 386

قال أبو حيان في قوله (الذين يتقون) هم المؤمنون والضمير في (حسابهم) عائد على المستهزئين الخائضين في الآيات)[1]، قال ابن عاشور (لما كان الإعراض عن مجالس الذين يخوضون بالطعن في الآيات قد لا يحول دون بلوغ أقوالهم في ذلك إلى أسماع المؤمنين من غير قصد أتبع الله النهي السابق **بالعفو عما تتلقفه أسماع المؤمنين من ذلك عفوا**، فتكون الآية عذرا لما يطرق أسماع المؤمنين من غير قعودهم مع الطاعنين)[2].

قوله (..وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) يفيد أن المسلم لا ييأس إطلاقا من دعوته ، ولا من الذين يدعوهم في سبيل الله ، بل عليه أن يتخذ موقفا إزاء المنكر ولو بإعلان اعتراضه ، فالمولى سبحانه يرسل عباده المؤمنين لهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله **رجاء تذكيرهم** ، **ورجاء حصول تقواهم** ، ولو بتلك المواقف السلبية ، وإعلان رفضهم الخوض في الباطل معهم ، فيتقي المشركون حزن المؤمنين منهم ، وهجرهم لهم بسبب ذلك ، فيتركوا الخوض ترضية لهم .

فعن قتادة (وَذَلِكَ أَنَّ الْقَوْمَ كَانَ يُعْجِبُهُمْ مُجَالَسَةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانُوا إِذَا خَاضُوا قَامَ عَنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَكَانُوا **يَتَّقُونَ الْخَوْضَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَقُومَ عَنْهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ** ﷺ) [3]، وعَنِ السُّدِّيِّ، قَوْلَهُ "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" ، قال:"لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ **مَسَاءَتَكُمْ**"[4]، أي مخافة أن يهجرهم المؤمنون لسوء أدبهم مع آيات الله .

وفي ذلك دليل على أن **العلاقة بين المسلمين والكفار آنذاك إن لم تتخذ شكل المواجهة والعناد** ، فإنها أحيانا تأخذ أسلوب الترضية والتعايش في وطن واحد ، قال أبو حيان (**عليكم أن تذكروهم ذكرى إذا سمعتموهم يخوضون** بأن تقوموا عنهم وتظهروا كراهة فعلهم وتعظوهم لعلهم يجتنبون الخوض في الآيات حياء منكم ورغبة في مجالستكم) [5]

إذن هجرة مجالس الكفار يكون سلاحا فعالا في تغيير المنكر **إذا ما كان للمسلمين حضور بينهم** ، أما إذا لم يكن لهم شأن بين قومهم فكيف يعبرون بصمتهم عن رفضهم الخوض في الباطل ؟ كيف تصير لسلبيتهم تأثير في قومهم وهم في الأصل منعزلون منهم ، ولذلك يقول النبي ﷺ (**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**)[6]، بذلك استبان متى تحقق العزلة تأثيرها وسببها ، وأنها ضرورة تقدر بقدرها ولا يتوسع فيها .

بل إن الواحدي له رأي حثيث في الجلوس معهم بنية الإصلاح ، حيث أجاز ذلك متى كانت المصلحة أكبر من المفسدة ، وذلك في حالة تذكيرهم بالله ونهيهم مباشرة عن الخوض ، وتلك مرحلة أقوى من مرحلة الإعراض عنهم ، فقال (أمر الله تعالى رسوله عليه السَّلام فقال : إذا رأيت المشركين يُكذِّبون بالقرآن ، وبك ، ويستهزئون فاترك مجالستهم (حتى

---

[1]) البحر المحيط ج5 ص 185
[2]) التحرير والتنوير ج6 ص 154
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 273
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 274
[5]) البحر المحيط ج5 ص 185
6) رواه الترمذي ج9 ص 47 رقم 2431 والبخاري في الأدب المفرد ج1ص 140 رقم 388 وابن ماجة ، وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 162 صحيح ابن ماجة ج2 ص 373

يخوضوا في حديث غيره) حتى يكون خوضهم في غير القرآن (وإمَّا ينسينَّك الشيطان) إنْ نسيت فقعدت (فلا تقعد بعد الذكرى) فقم إذا ذكرت ، فقال المسلمون : **لئن كنَّا كلَّما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم ، لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ، وأن نطوف بالبيت** ، فرخَّص للمؤمنين في القعود معهم يُذَكِّرونهم فقال : (وما على الذين يتقون) الشِّرك والكبائر (من حسابهم) آثامهم (من شيء ولكن ذكرى) يقول : ذكِّروهم بالقرآن وبمحمَّد ، فرخَّص لهم بالقعود بشرط التَّذكير والموعظة (لعلَّهم يتقون) لِيُرجى منهم التَّقوى[1] .

من هنا أجاز بعض العلماء المعاصرين التقدم لدخول المجالس النيابية في البلدان التي لا تطبق شرع الله ، بنية تذكيرهم بالله ، والعمل على تقليل الضرر منهم قدر المستطاع ، ولذلك قال ابن تيمية (" الورع " المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته ، وهو ما يعلم تحريمه ، وما يشك في تحريمه ، وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله – ... وكذلك من " الورع " الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه ... **وتمام " الورع " أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها** ، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات)[2].

مثال ذلك مناقشة قوانين الزواج والطلاق والولاية على النفس والحضانة عند المسلمين حتى لا تخرج عن إطار الشريعة أو تخفيف الأضرار عند مخالفتها قدر الإمكان ، وقس على ذلك كافة أوجه الإصلاح قدر الاستطاعة .

ثم انتقد الإمام تقي الدين أبو العباس مسلك بعض الناس الذين أخطئوا في العمل بالورع ، فتركوا الجهاد مخافة إعانة الإمام الظالم ، وليس ذلك من الورع في شيئ أو تركوا الجمعات لمخافة الصلاة خلف أهل البدعة والفجور ، فعلق الإمام على هذا بأنه خطأ لأنه أدى إلى توسيع المفاسد لأجل تحصيل مصالح أقل .

والحق أنه قلما دخل أناس من هذا الباب بنية صالحة ، وإن دخلوا بنية صالحة فقلما تجد أحدهم بعدما دخل إلا فسدت نيته وساء عمله ، **فأهل المغالبة لهم حيل ومكايد** ، ولا شك أن مخالطة الجسد الضعيف للمرضى تؤثر فيه ، أما إن كان الجسد قويا بما يكفي لمقاومة المرض ، وقد اتخذ الاجراءات الاحترازية لمنع نقل العدوى وانتشارها ، فهنا **قد يؤدي المخالط دور الطبيب إن كان من أهل المهنة ، وإلا فإنه يتحذلق ويكون أول الهالكين** ، وهو ما حذر منه الشيخ الألباني[3] ، من ذلك نفهم أن المسألة تحتاج لفقه وإمام وتدريب على استخراج المرض من الجسد ، وهو ما نصح به الشيخ الحويني ، فلا تسير بعفوية أو بمجرد الشجاعة .

قوله (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) على وجه التعزيز كقوله تعالى (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً)[4] ، قال الثعالبي (**هذا أمر بالمتاركة** ، وكان ذلك **بحَسَب قلَّة المسلمين يومَئِذٍ**)[5]، أي (لا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت وإن

---

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 190
[2]) جامع الرسائل ج2 ص 142 مجموع الفتاوى ج10 ص 512
[3]) https://www.al-albany.com/audios/content/13158/الرد-علي-شبهة-من-يقول-إن-تبليغ-الحق-لا-يكون-إلا-بالدخول-في-المجالس-النيابية-أو-الإضرابات/
[4]) أحكام القرآن للكيا الهراسي ج3 ص 1 وقاله مجاهد ، انظر : الدر المنثور للسيوطي ج4 ص 78
[5]) تفسير الثعالبي ج1 ص 475

كنت مأمورا بوعظهم)[1]، وهذا من باب المخاصمة في الله ، **وتلك هي أقل درجات إنكار المنكر وتغييره بالقلب** ، وهو أمر كذلك يتفق وطبائع الأمور ، لاسيما وقد تعذر أن يجتمع من اتقى الله والتزم أمر دينه بمن اتخذ دينه لعبا ولهوا، قال البيضاوي أي (**بنوا أمر دينهم على التشهي** وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً) [2]، فلا يجتمع من عزف عن الدنيا وأقبل على الآخرة بمن غرته الحياة الدنيا ولن يشبع منها ، بذلك استبان متى تكون العزلة مستحبة ومتى تكون المخالطة هي الأولى ..

قوله تعالى (وَذَكِّرْ بِهِ..) **استدراك** كي لا يظن ظان أن مقتضى أن الأمر بأن يذرهم والإعراض عنهم ، أن يترك الدعوة وإيصالها لهم وإنما المعنى (اعرض عنهم **واترك معاشرتهم وملاطفتهم** ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم ، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه تعالى قال "وذكر به" أى **بالقرآن** من يصلح للتذكر)[3].

قوله (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (70) وأصل كلمة "تبسل" البسل وهو المنع أي ترهن حتى لا محيص لها [4] ، فالغاية من التذكرة الانتفاع بها ليقي نفسه من أن تُحبس في النار بما كسبت ، كما في قوله (**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**) (المدثر 38)

جاء في لسان العرب (قال الحسن أُبْسِلوا أُسلِموا بجَرائرهم وقيل أَي ارْتُهِنوا وقيل أُهلِكوا وقال مجاهد فُضِحوا وقال قتادة حُبِسوا وأَن تُبْسَل نفس بما كسَبَت أَي تُسْلَم للهلاك) [5]، يقول الدكتور مهران ماهر (أقوال المفسرين لا يمكن أن ترادف اللفظَ القرآني فكان جمعُ جميع أقوالهم في الآية أحسن وأكمل)[6]

قوله (..لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا..) (70) قال الإمام الرازى (والمقصود من هذه الآية : بيان انسداد وجوه الخلاص على تلك النفس ، فلا "**ولي**" يتولى دفع ذلك المحذور ، ولا "**شفيع**" يشفع فيها ، ولا "**فدية**" تقبل ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع ، فإذا كانت وجوه الخلاص هي هذه الثلاثة في الدنيا ، وثبت أنها لا تفيد في الآخرة البتة ، وظهر أنه ليس هناك إلا **الإبسال** الذي هو الارتهان والانغلاق والاستسلام ، فليس لها البتة دافع من عذاب الله تعالى ، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد **يرعد** إذا أقدم على معاصي الله تعالى)[7].

---

[1]) تفسير القرطبي ج7 ص 15
[2]) تفسير البيضاوي ج2 ص 165
[3]) تفسير اسماعيل حقي الاستانبولي ج3 ص 458 – روح البيان ج3 ص 39
4) ، انظر : الجياني ، التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 192
5) ابن منظور : لسان العرب ج11 ص 53
6) د. مهران ماهر عثمان : الشرح اليسير على مقدمة أصول التفسير ج1 ص 32
7) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 1805

قوله (..أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ:" " أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا " ، يَعْنِي فُضِحُوا" [1]، أي على رؤوس الأشهاد وهم محبوسون موقوفون في أرض المحشر مرتهنون بأعمالهم ينتظرون الحساب ، كما في قوله (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات24)

قوله (..لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (70) ونظيره قوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا **يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي** الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (الكهف 29)

المسألة الرابعة : التذكير بنعمة الاستنقاذ من الضلال وأن الحشر لله

قال تعالى (**قُلْ** أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا **قُلْ** إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى **وَأُمِرْنَا** لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ **أَقِيمُوا** الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي **خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ **كُنْ فَيَكُونُ** قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (73)

قوله (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ) السؤال هنا استنكاري ، بمعنى لا يليق لنا أن ندعو من دون الله ما يملك النفع ولا الضر ، مع العلم أن الله وحده هو النافع وهو الضار ، قال رسول الله ﷺ (اعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[2].

قوله (..وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ..) أي أتريدوننا أن نكفر بالله بعد أن استنقذنا من الضلالة بالإسلام[3] ، أي بعد أن تعرفنا على الله وعلمنا أنه المجيب لدعائنا نتنكس ونعود للوراء فندعو غيره ، ونسأل أرزاقنا من غير الله ، وهذا يدل على المحبة ، فالذي يكره الكفر ويحب الإيمان يكون قلبه قد تزين بالمحبة لله ، قال تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات 7) ،يقول النبي ﷺ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[4].

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 277
2) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 3440
3) قاله غير واحد من ذلك الزمخشري :انظر الكشاف ج2 ص135
4) رواه البخاري ج1 ص 26 رقم 15

كما لا يمكن للمحب لله أن يتخلى عن الإسلام بالكلية أو شيء منه ، فالمعنى كذلك ألا نتخلى عن مبادئ الإسلام التي تساومونا عليها لأجل أن تحتفظوا بمكانتكم بين الناس فلا يشارككم العبيد والضعفاء تلك المكانة ، إذ كان هدف المساومة التي أجراها المشركون مع النبي ﷺ ليدخلوا في الإسلام هو إقصاء أصحابه عنه ، وهم لا يدرون عاقبة هذا الأمر ، وأنه سوف يؤدي إلى مزيد من الكره والبغض بينهما ، والإسلام جاء ليؤلف القلوب ، ولم يأتي ليشرعن لحياة العصبية القبلية والجاهلية البغيضة ، فيغير بعضهم على بعض ، فبتلك الفكرة البغيضة يهدمون مبادئ الإسلام بدلا من أن تبنى في ضمائرهم وعقيدتهم ، فيؤمنوا بالمساواة بين البشر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

والنَّبِيّ ﷺ حذر من ذلك فقَالَ (لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)[1] قال النووي (ذلك كفر فى حق المستحل بغير حق)[2]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ محذرا (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)[3] ،وقال (فلا **يكفر به عند أهل الحق كفرا يخرج به من الملة إلا إذا استحله)** [4].

وقيل أي : (**كفارا لنعمة الإسلام تاركين الشكر فيه** ، فإن من الشكر على نعمة الإسلام مواصلة أهله ، وموافقتهم ، واجتماع الكلمة فيه ، والتحاب لأجله ، وترك التقاطع وبغي بعض على بعض ؛ لأن من أحب شيئا أحب أهله ، ألا ترى إلى قوله ﷺ : « لا تؤمنون بي حتى تحابوا »[5].

وقد كان رسول الله ﷺ يقول (**اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**)[6] أي (أتممها ولاتبطلها)[7] ، قال السيوطي أي (بترك هجرتهم ورجوعهم عن مستقيم حالهم المرضية) [8] ، أي لا تجعل سعيه في هجرتهم خائبا ، بل سدد خطاهم ووفقهم لمرضاتك ، فلا يرتدوا إلى الكفر بعد أن ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلك ، وثبتهم على طاعتك ، وقيل أي (تَوْفِيقَهُمْ وَعَوْنَهُمْ عَلَى مُلَازَمَةِ الْمَدِينَةِ دَارِ الْهِجْرَةِ مِنْ إمْضَاءِ الْهِجْرَةِ لَهُمْ وَتَصْحِيحُهَا فِي جَنْبَتِهِمْ)[9] ، لأن **شأن الهجرة عظيم** ، وقد يرتد في الطريق بعضهم ، وقد ثبت أن بعضهم لم يتحمل جو المدينة فارتد ، وبعضهم لم يتحمل كثرة غزوات الرسول فارتد إلى البادية حيث الراحة والرعي ، قال العلماء وفيه دليل على تعظيم أمر الهجرة وأن ترك إتمامها مما يدخل تحت قوله: "ولا تردهم على أعقابهم"[10].

فالانقلاب على الأعقاب كناية عن الرجوع للوراء بعد المشي قدما ، فيبطل سعيه إلى وجهته ، وقد قطع منها شوطا ، بل من الناس من كاد أن يصل لوجهته ، ولكنه لما انقلب على عقبه ورجع إلى الوراء خسر المسافة التي قطعها ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ)[11]("**الحَوْر**" : **الرجوع** و"الكَوْن" : الحصول على حالة جميلة يريد التراجعَ بعد الإقبال)[12] ،

---

[1]) رواه البخاري ج21 ص 157 رقم 6360
[2]) شرح النووي على مسلم ج2 ص 55
[3]) رواه البخاري ج18 ص 475 رقم 5584
[4]) شرح النووي على مسلم ج2 ص 54
[5]) بحر الفوائد المسمى بمعني الأخيار للكلاباذي ج1 ص 81 حديث رقم 51
[6]) رواه البخاري ج5 ص 43 رقم 1213
[7]) شرح النووي على مسلم ج 11 ص 79
[8]) الديباج على مسلم ج4 ص 224
[9]) المنتقى شرح الموطأ ج4 ص 80 رقم 1258
[10]) تقي الدين القشيري المعروف بابن دقيق العيد : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ج1 ص 385
[11]) رواه مسلم ج7 ص 57 رقم 2393

قال السندي (والحور بعد الكور الكور لف العمامة والحور نقضها **والمراد الاستعاذة من النقصان بعد الزيادة** أو من الشتات بعد الانتظام أي من **فساد الأمور بعد صلاحها**)[1].

قوله (..كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ..) قال الأصفهاني أي (**حملته على اتباع الهوى**)[2] ، قال ابن منظور أي (**زيَّنت له الشياطينُ هَواه**)[3] .

قال الشعراوي أي (جعلته يتقبّل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن **صار عجينة تشكله الشياطين كما تشاء**)[4].

(فساعة ترى « همزة » و"سيناً" و« تاء » واقعة على شيء من الأشياء ، فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه ، كما في « استطعم » ، وفي « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد في القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه. (« فاستهوته » طلبت هُوِيَّة ، فمعنى « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه ، أي " طلبت الشياطين أن يكون **هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله**" [5].

وقال ابن عاشور (وهو تمثيل بهيئة متخيلة مبنية على اعتقاد المخاطبين في أحوال المسوسين....، ذلك لأن الحالة التي تتوهمها العرب **استهواء الجن يصاحبها التوحش** ، وذهاب المجنون على وجهه في الأرض راكبا رأسه لا ينتصح لأحد)[6]

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي فيكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول : (مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان كمثل رجل كان مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض ، وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من تبعكم بعد المعرفة لمحمد ، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام) [7].

ولذلك ورد في القرآن ذم من اتبع الهوى كما في قوله (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا)

وقوله (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)(الأنعام 56)

وقوله (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ)(الشورى 15)

وقوله (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً)(4) [القصص50]

---

12) محمود بن عمر الزمخشري الفائق في غريب الحديث والأثر ج4 ص 71
[1]) حاشية السندي على النسائي ج8 ص 273
2) غريب القرآن ج1 ص 548
[3]) لسان العرب ج15 ص 371
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2590
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 3077
[6]) التحرير والتنوير ج6 ص 162
[7]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 281 ، تفسير ابن كثير ج3 ص 279 ، تفسير الطبري ج11 ص 452 ، الدر المنثور ج4ص79

وقوله (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية23]
وقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) [محمد 16]
وقوله (وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الأنعام 119] .

قوله (..حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا) قال الشعراوي ("الحَيْرة" هي التردد بين أمر ومقابله ، و"الحَيْرة" في هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابه ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛ لذلك يكون حيرانا : بين هاوية ونجاة ، والشيء **الذي يهوي لا استقرار ولا اتجاه له** . . أما من يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى فهو إلى هدى أي المنهج والطريق الموصل للغاية ، فالصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذي يضع الغاية هو من صنعها)[1].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: " قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا .." ، قَالَ:"هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلآلِهَةِ، وَلِلدُّعَاةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلى اللَّهِ، **كَمَثَلِ رَجُلٍ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ تَائِهًا ضَالا إِذْ نَادَاهُ مُنَادٍ**: فُلانُ ابْنَ فُلانٍ، **هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ**، وَلَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ: يَا فُلانُ، **هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ**، فَإِنِ اتَّبَعَ الدَّاعِيَ الأَوَّلَ انْطَلَقَ بِهِ حَتَّى يُلْقِيَهُ فِي هَلَكَةٍ، وَإِنْ أَجَابَ مَنْ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى اهْتَدَى إِلَى الطَّرِيقِ، وَهَذِهِ الدَّاعِيَةُ الَّتِي تَدْعُو فِي الْبَرِّيَّةِ مِنَ الْغِيلانِ، يَقُولُ: مَثَلُ مَنْ يَعْبُدُ مِنَ الآلِهَةِ هذه دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، فَيَسْتَقْبِلَ الْهَلَكَةَ وَالنَّدَامَةَ"[2].

ففي الآية تصوير لمشهد المتحير في الضلال ، وقلبه متوزع بين آلهة متعددة ، كما في قوله (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(الزمر 29) فهو حيران لأنه لا يستطيع أن يرضي كل هؤلاء الشركاء جملة واحدة ، في حين أن العبد الذي له مالك واحد ويستطيع أن يرضيه يكون بعيدا عن هذا التشتت والتيه الذي أصيب به من يملكه عدة شركاء متشاكسون ، كل منهم يأمره بأمر خلاف الآخر ويعاقبه على مخالفة أمره ، فما أتعس هذا العبد حين يحاول أن يرضي أحد أسياده فيغضب عنه الآخرون ، ولذلك يقول النبي ﷺ (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ)[3].

يقول سيد قطب (. . ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله –.. ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرآت هذا النص . . ولكن مجرد تصور . . حتى رأيت حالات حقيقية ، يتمثل فيها هذا الموقف ، ويفيض منها هذا العذاب . . حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه – أياً كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق – ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة ، تحت قهر الخوف والطمع . . ثم إذا هم في مثل هذا البؤس المرير . . وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة ، وماذا يعني هذا التعبير!) [4].

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2590
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 282
[3]) رواه البخاري ج10 ص11 رقم 2673
[4]) في ظلال القرآن ج3 ص 81

قوله (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (71) هذا هو المنهج الذي يريده الله ، منهج يقوم على الاستسلام لله والانقياد لحكمه والوقوف بين يديه وإطاعة أمره واجتناب نواهيه ، المنهج الذي يذكرنا باليوم الآخر ، نتذكر اليوم الذي نقف فيه ونحشر أمام الله مجبرين .

أما الذين يعيشون في حيرة وتيه فهم الذين دعاهم القرآن إلى الهدى ليهتدوا به ، وليس ثمة هدى دون التسليم لله رب العالمين ، وليس ثمة هدى دون إقامة شرعه وأول ذلك إقامة الصلاة ، وليس ثمة هدى دون أن تنهى الصلاة العبد عن الفحشاء والمنكر ، وليس ثمة هدى دون تذكر المصير الأخروي ، فإذا اهتدى العبد للطريق فإن قلبه لابد وأن ينشرح وهو يمضي في طريقه إلى الله ، قال رسول الله ﷺ (**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**)[1]، قال ابن تيمية (الرِّضَا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ " فَأَصْلُهُ وَاجِبٌ ، وَهُوَ مِنْ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْمَحَبَّةِ قَالَ تَعَالَى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[2].

وإضافة (رب العالمين) للاستسلام يؤكد أن الإنسان مطالب بأن يستسلم الله اختيارا كما استسلم الكون كله لله اضطرارا ، **فإذا استسلم الجسد لقدرة الله ، أفلا يستسلم الإنسان بقلبه لله ، (فالوجود كله يستسلم للقوانين التي وضعها الله له** ؛ ولا يملك الخروج عليها ، والإنسان – كذلك- يستسلم تركيبه العضوي لهذه القوانين ، ولا يملك الخروج عليها . . فجسده يعمل بطريقة لا يستطيع أن يتدخل فيها أو يوقفها القلب يضخ الدم والرئتين تستنشق الهواء وتخلطه مع الدم ، والأمعاء تمتص الغذاء من الطعام وتحوله للدم ، كل ذلك والإنسان لا يتدخل في ذلك مطلقا ، إنما هو الله رب العالمين ، يبقى أن يستسلم قلب الإنسان لله ، وهذا هو جانب الاختيار فيه (اختيار الهدى أو الضلال). . فلو استسلم قلبه كما استسلام كيانه العضوي ، لاستقام أمره ، وتناسق تكوينه وسلوكه ، وجسمه وروحه ، ودنياه وآخرته ..)[3]

قوله (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (72) أي بعد الإيمان والاستسلام الكامل لله تجيء بعد ذلك التكاليف التعبدية والتزكية النفسية : (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) **فالأصل** هو الاستسلام لربوبية رب العالمين ، وسلطانه وتربيته وتقويمه ، **ثم تجيء** العبادات الشعائرية القائمة على تزكية النفس لتحقيق التقوى)[4] .

قوله (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(72) قوله (وهو الذي..) تكرر في هذه السورة كثيرا ، إشارة إلى الله سبحانه مدبر الأمر ، لكي تخلص القلوب له وحده ، فعندما يكون إليه المنتهى ، وإليه المصير ، وإليه تحشرون ، تتحدد الغاية على نحو دقيق ، فلا يشغل المسلم عنها شاغل ، وقد علم هذه الحقيقة واستيقنها في قلبه .

---

[1]) رواه مسلم ج1 ص 137 رقم 49
[2]) مجموع الفتاوى ج10ص 41
[3]) سيد قطب ظلال القرآن ج3 ص 82
[4]) في هذا المعنى سيد قطب ظلال القرآن ج3 ص 82 لكن العرض بأسلوب الكاتب

قوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ[1]..) قال أبو السعود في الآية استئنافٌ لبيانِ أنّ خلقَه تعالى لما ذَكر من السمواتِ والأرض ليس مما يَتوقَّفُ على مادّةٍ أو مُدّة بل يتَمّ بمحض الأمرِ التكوينيّ **من غير توقفٍ على شيءٍ** آخَرَ أصلاً)[2] .

يقول الشعراوي (إياك أن تغرك الأسباب ولكن **سلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى الله**)[3]

وقال ابن عاشور (والمعنى أنه أنشأ خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه يعيد الخلق الذي بدأه بقول حق، **فلا يخلو شيء من تكوينه الأول ولا من تكوينه الثاني عن الحق**)[4].

قوله (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)(73) أى : أن الملك لله تعالى وحده فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه)[5]، كقوله (**لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار**) (غافر) ، قال أبو السعود (تقييدُ اختصاصِ الملك به تعالى بذلك اليومِ مع عموم الاختصاصِ لجميع الأوقات لغاية ظهورِ ذلك **بانقطاعِ العلائقِ "المجازيةِ" الكائنةِ في الدنيا** ، المصحِّحة للمالكيةِ المجازية في الجملة)[6]، يَقُولُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ **أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ**)[7] ، وفي رواية (يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ **أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ**..)[8].

يقول صاحب الظلال (إن تصور حقيقة الحشر يوحي للناس بأن يستسلموا لله رب العالمين قبل أن يقفوا أمامه مسؤولين ، فيكون تصور هذه الحقيقة موحياً بالاستسلام في المبدأ ، ما دام أنه لا مفر من الاستسلام في المصير!)[9] .

---

[1]) قال أكثر من مفسر : { قوله الحق } : مبتدأ ، و { يوم يقول } : خبر مقدم ، أي : قوله الحق حاصل يوم يقول : { كن فيكون }
ابن عجيبة : البحر المديد ج2 ص 161
{ قوله الحق } : مبتدأ ، و { يوم يقول } : خبر مقدم ، أي : قوله الحق حاصل يوم يقول : { كن فيكون }
[2]) تفسير أبي السعود ج2 ص 385
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2596
[4])التحرير والتنوير ج6 ص 167
[5]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1483
[6]) تفسير أبي السعود ج2 ص 385
[7]) رواه البخاري ج15 ص 16 رقم 4438
[8]) رواه مسلم ج13 ص 373 رقم 4995
[9]) في ظلال القرآن ج3 ص 83 مع شيء من التصرف

المطلب الثالث

محاجة النبي ﷺ قومه

وفيه ست مسائل :-

المسألة الأولى : الاستشهاد بنموذج عملي (محاججة نبي الله إبراهيم قومه) :

انتقال إلى نموذج عملي بين كيف واجه النبي ﷺ قومه بالدعوة الإسلامية ، وطريقته محاججة لهم

قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (90)

قوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ..) (74) في البداية حاول نبي الله إبراهيم محاولة صريحة وقوية لإنكار المنكر وهو لا يخشى في الله لومة لائمة رغم أنه لا يملك شيئا من أسباب القوة لدفع المنكر ، فأنكر المنكر في مواجهة أبيه وقومه ، ذلك أن (العقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة)[1]، ويظل يحاجهم ويناظرهم ويحثهم علي النظر والتفكر ، فقال لأبيه: (أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً) **إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى**)[2] ، لأن

1) في ظلال القرآن ج3 ص 87
2) محاسن التأويل للقاسمي

كل ما سوى الله فهو باطل ، كما قال النبي ﷺ (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ) [1]، قال بعض الحكماء (كل ما عبد من دون الله، بل كل ما يشغل عن الله تعالى يقال له: "صنم"[2].

وعلى هذا الوجه قال إبراهيم (اجنبني وبني أن نعبد الأصنام) [إبراهيم 35] ، ومعلوم أن إبراهيم مع تحققه بمعرفة الله تعالى، واطلاعه على حكمته لم يكن ممن يخاف أن يعود إلى عبادة تلك الجثث التي كانوا يعبدونها ، فكأنه قال: اجنبني عن الاشتغال بما يصرفني عنك)[3].

فقوله (..إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (74) أنكر عليهم دون شفقة أو ترخص ، موضحا لهم سوء عبادتهم وضلالهم المبين دون خجل منه ولا مواربة ، وذلك هو **الحب الحقيقي الذي يقدمه المسلم لقومه** ، وهذا هو الانتماء الحق لأبيه وقومه ، فلا يهادنهم في الحق ولا يسايرهم في ضلال ، وإنما يبصرهم الهدى وينكر ضلالهم دون استشعار لحرج .

وقوله (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ[4] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (75) قال ابن عجيبة (**العارف يرى الحق في الخلق** كقول بعضهم ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه)[5]

وقال ابن تيمية (وَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ : مَا رَأَيْت شَيْئًا إلَّا وَرَأَيْت اللَّهَ قَبْلَهُ لِأَنَّهُ رَبُّهُ وَالرَّبُّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعَبْدِ أَوْ رَأَيْت اللَّهَ بَعْدَهُ ؛ لِأَنَّهُ آيَتُهُ وَدَلِيلُهُ وَشَاهِدُهُ ؛ وَالْعِلْمُ بِالْمَدْلُولِ بَعْدَ الدَّلِيلِ أَوْ **رَأَيْت اللَّهَ فِيهِ بِمَعْنَى ظُهُورِ آثَارِ الصَّانِعِ فِي صَنْعَتِهِ** فَهَذَا صَحِيحٌ)[6].

وكذلك رأى نبي الله محمد ﷺ ربه في الدنيا بمعنى رأى قدرته في ملكوته ، قال رسول الله ﷺ (رأيت ربي في أحسن صورة قال فيم يختصم الملأ الأعلى فقلت أنت أعلم يا رب قال فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماوات والأرض وتلا (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) [7]، إذ اتفق المحققون من أهل السنة والجماعة على أن هذه الرؤية وقعت في المنام (الرؤيا)، لا في اليقظة الدنيوية[8]، وبناءً على ذلك انحسم الخلاف في امتناع رؤية الله بـ"عين اليقظة" في الدنيا.

وهكذا ارتقي نبي الله إبراهيم عليه السلام في الفهم ، **ليدرك حقيقة الملكوت** وأن فاعلية الأسباب بيد الله وحده ، قال تعالى (**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ، فالله تعالى بيده ملكوت السماوات والأرض

---

[1]) رواه البخاري ج12 ص 212 رقم 3553
[2]) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ج1 ص 287
[3]) أبو القاسم ، الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ج1 ص 593
4) (كلمة « ملكوت » معناها مبالغة في الملك ، مثل رهبوت أي الرهبة الشديدة ، ورحموت أي الرحمة الشديدة ، وكلها صيغة « فعلوت » وهي صيغة المبالغة) انظر تفسير الشعراوي ج1 ص 3145 ، تفسير البغوي ج3 ص 158
[5]) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم ج1 ص 30
[6]) مجموع الفتاوى ج2 ص 401
7) رواه الدارمي ج2 ص 170 رقم 2149 وصححه الألباني : مشكاة المصابيح ج1 ص 160 رقم 725
[8]) انظر فتوى ابن العثيمين : https://binothaimeen.net/ar/voice_library/lessonDetails/

، والأسباب ما هي إلا خلق من خلق الله تعالى ، **فالاعتماد علي الأسباب شرك** ، فلا يعبد السبب ، ولكن يتمسك به ، مع العلم بأن الله هو مسببه ، قال ابن عجيبة (أهل السير من المريدين يشهدون الكون ثم يشهدون المكون عنده) [1] .

في قوله (..وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (75) فنبي الله إبراهيم كان يرى قدرة ربه في كل عمل وفي كل حال ، وهو يدرك تماما أن ما من حركة ولا سكنة في السماوات والأرض إلا وقد صرفها الله على هذا النحو ، ولكن هذا الإدراك يسمى باليقين ، لكنه عندما يعاين الملكوت يزداد يقينا بالمعاينة فيسمى ذلك بعين اليقين ، فإذا ما تعايش مع الملكوت واستشعر به وتعلم أسبابه وقوانينه ازداد يقينا على اليقين ، وتلك المرحلة تسمى بعين اليقين ، ولذلك روي ابن أبي الدنيا عن خالد بن معدان ، قال : «**تعلموا اليقين كما تعلموا القرآن حتى تعرفوه فإني أتعلمه** »[2]، ففي الحديث قال النبي ﷺ لأبي هريرة (اذْهَبْ .. فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ **مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ** فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ) [3]، فإذا استيقن القلب أن إلى الله المصير وعمل لهذا اليوم فقد حظى بتلك البشرى ، أي بالجنة .

فالمحصلة أنه يتوصل إلى إدراك مرتبة اليقين بالتفكر في الملكوت أي (خلق الله) ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ بِلَالٌ يُنَادِي–أي بالأذان– فَلَمَّا سَكَتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا يَقِينًا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[4] ، فقوله (**يقينا**) هو ما يبين شرط دخول الجنة إذا ما أديت العبادات واتبعت الشعائر ، حيث يلزم أن يكون القلب موقنا بها ، وهو ما حصله نبي الله إبراهيم في عبادته لربه .

فأمور الغيب تدرك في الدنيا باليقين ولا تدرك بعين اليقين لأنها غيب ولا بحق اليقين لأنها لم تباشر ، ويكفي للإيمان بها مجرد اليقين ، لكن ذلك لا ينفي أن يصل العبد لأعلى مراتب اليقين دون معاينة ولا مباشرة ، فعن الحسن قال : « **ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع ووجل** ، وذل واستقام ، واقتصر حتى يأتيه الموت »[5].

وعليه فإن مراتب اليقين تنقسم إلى ثلاثة :-

1- علم اليقين
2- عين اليقين
3- حق اليقين

قال ابن القيم (ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة : حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين كما قال تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين) فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها عليه وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه كعلم اليقين بالجنة)[6] ، وهذه المرتبة هي أول مراتب اليقين وهي

---

[1]) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم ج1 ص 30
2) اليقين لابن أبي الدنيا ج1 ص 8 رقم 7
[3]) رواه مسلم ج1 ص 133 رقم 46
[4]) رواه النسائي ج3 ص 63 رقم 668 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج1 ص 60 رقم 246 وقال الحاكم في المستدرك صحيح : ج1 ص 321 رقم 735 ووافقه الذهبي في التلخيص
5) اليقين لابن أبي الدنيا ج1 ص 17 رقم 16
6) التبيان في أقسام القرآن ج1 ص 111

علمه وتيقنه وهي الكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئي للبصر ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها الى العين كنسبة الاول الى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الادراك التام)[1].

وقد **تبوأ نبي الله إبراهيم مرتبة حق اليقين عندما أدرك صنع الله في ملكوته وكيف أنه أبطل فاعلية النار بكوني بردا وسلاما فكانت كذلك** ، قال الشعراوي (سيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من الموقنين في كل أدوار حياته؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء؛ وعواقبها ، فعندما أُخذ ليطرح في النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا ، ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن **هذا ظاهر المُلك وظواهر الأشياء** ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذي خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفئ الله النار بظاهر الأسباب ولكن جعلها الله ليّاً لأعناق خصومه ، فأوضح الحق : يا نار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقي **(قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ)** [الأنبياء : 69] إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء الملك الظاهر)[2] .

والذي يحول بين الإنسان ودرجات اليقين هو الانشغال بغير الله ، وكلما قل ذلك الانشغال كلما زاد اليقين ، يقول الرازي (نور جلال الله تعالى –شرعه– لائح غير منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب –أي محجوبة من الرضا–، **وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى** ، فإذا كان الأمر كذلك **فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل التجلي)**[3]، أي تجلي قلب المؤمن لنور الله –حكمه وشرعه– الذي يقذفه فيه بعد إزالة هذه الحجب.

قوله (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (79) استلهم إبراهيم عليهم السلام من النظر في الملكوت حججا لإبطال ضلال قومه في عبادة غير الله ، ولم يتكلف في الأمر بل إنه نظر في وقت الليل تارة ووقت النهار تارة دون أدنى تكلف ، فوجد الظرف الذي يحيط به في الليل وقد ظهر القمر ، وكذلك الظرف الذي يحيط به في النهار فوجد الشمس ، **فأثبت أنهما حدثتان ومتغيرتان** ، والله تعالى ليس بحادث يعرض ولا بمتغير ، فأبطل عبادتهم للكواكب من هذا المنطلق .

---

1) مفتاح دار السعادة ج1 ص 149
2) تفسير الشعراوي ج1 ص 2607
3) تفسير الرازي ج1 ص 1812

وفي هذا الصدد لابد من الوقوف على أمرين في حجة إبراهيم عليه السلام التي قدمها لقومه ، أحدهما أمر إثبات والآخر نفي

فأما الأمر الأول فهو قوله (هذا ربي) : قال الرازي (يقال إن إبراهيم عليه السلام **لم يقل هذا ربي ، على سبيل الإخبار ، بل الغرض منه أنه كان يناظر عبدة الكوكب** وكان مذهبهم أن الكوكب ربهم وآلهم ، فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله)[1] .

والأمر الثاني هو إثباته لأفول الكواكب ، لأن (**الأفول الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها**)[2]

قال ابن الجزي (أي **لا أحب عبادة المتغيرين** ؛ لأن التغير دليل على الحدوث ، والحدوث ليس من صفة الإله ، ثم استمرّ على ذلك المنهاج في القمر وفي الشمس ، فلما أوضح البرهان ، وأقام عليهم الحجة ، جاهرهم بالبراءة من باطلهم)[3]

قال ابن عجيبة (التغير بالاستتار والانتقال يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية)[4]

وقال أبو حيان الأندلسي (أي لا أحب عبادة **الآفلين المتغيرين عن حال إلى حال** المنتقلين من مكان إلى مكان المحتجبين بستر ، فإن ذلك من صفات الأجرام وإنما احتج بالأفول دون البزوغ ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن **الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب** ، وجاء بلفظ "الآفلين" ليدل على أن ثم آفلين كثيرين ساواهم هذا الكوكب في الأفول فلا مزية له عليهم في أن يعبد للاشتراك في الصفة الدالة على الحدوث)[5] .

قوله (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (79) وجهي أي (قصدي)[6] ، قال الواحدي أَيْ : (جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله عزَّ وجلَّ)[7] ، قال ابن تيمية (فَإِقَامَةُ الْوَجْهِ ضِدُّ إزَاغَتِهِ وَإِمَالَتِهِ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، **فَإِذَا قَوَّمَ قَصْدَهُ وَسَدَّدَهُ وَلَمْ يَنْحَرِفْ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا كَانَ قَصْدُهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)[8] ، قال رسول الله ﷺ (مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ **إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ** وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ وَكَانَ يَقُولُ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ)[9]

---

[1]) تفسير فخر الرازي ج1 ص 1816
[2]) أضواء البيان للشنقيطي ج1 ص 486
3) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 438
[4]) البحر المديد ج2 ص 164
[5]) البحر المحيط ج5 ص 199
6) فتح الباري لابن حجر ج1 ص 204
[7]) الوجيز للواحدي ج1 ص 193 ابن الجوزي :زاد المسير ج2 ص 367 نقلا عن الزجاج ، ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج2 ص 432
[8]) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج2 ص 432
[9]) رواه أحمد ج36 ص 28 رقم 16972 وصححه الألباني من رواية الطبراني : في ظلال الجنة ج1 ص 82- 85 رقم 219 - 225

قوله (لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) أي: (**إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه**)[1].

فإذا قيل لك : بم عرفت ربك ؟

فقل : بآياته ومخلوقاته ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما [2]، والدليل قوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [فصلت 37]

وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف54] .

كذلك قيل لبعض الاعراب بم عرفت ربك فقال البعرة تدل على البعير وآثار الخطا تدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج كيف لا تدل على العلي الكبير[3]، وقد أشارت الرسل عليهم السلام إلى هذا المعنى في قوله تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(إبراهيم11) .

وقوله (..حَنِيفًا..) (79) مائل عن الباطل والاعوجاج إلى الحق والاستقامة ، قال القرطبي (و"حنيفا" مائلا عن الأديان المكروهة إلى الحق)[4]، مأخوذ من الميل والاعوجاج ، قال الشعراوي (الحنف هو الاعوجاج ، فالعدول عن المعوج استقامة)[5] ، ولذلك قيل نفي النفي إثبات (فالحنيف المائل إلى العبادة)[6]، (فالأحنف الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها)[7]

[1]) تفسير ابن كثير ج3 ص 292
[2]) الإمام محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة الأصول ج1 ص 187 ، تيسير الوصول إلى معرفة الثلاثة الأصول ج1ص4
[3]) شرح العقيدة السفارينية ص34
[4]) تفسير القرطبي ج2 ص 139
[5] (https://www.youtube.com/watch?v=GmNLq6HvkcY
[6]) ابن الجوزي : كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 142
[7]) الزجاج : لسان العرب ج9 ص 56 ، قد قيل إن الحَنَف الاستقامةُ وإنما قيل للمائل الرِّجْل أحنف تفاؤلاً بالاستقامة.

قال الأصفهاني (**مَيْلٌ مِن الضَّلالِ إِلَى الاسْتِقَامةِ**)[1]، يعني: (متبعًا أمرَ الله وطاعته، **مستقيمًا على محجَّة الهدى** التي أمر بلزومها)[2] .

وقوله (..وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (79) قال النسيابوري (**لا شركاً جلياً ولا شركاً خفياً**)[3] ، هذا نتيجة لتوجيه القصد –في كل عمل – لله بإخلاص ، والميل عن الضلال إلى الاستقامة على الهدى ، فكان مؤدى ذلك ولازمه الاحتراز من الشرك بالله تعالى ، **ونتائج هذا الإعلان** بأنه لا يشرك بالله ، **أنه لا يرضي** لنفسه غير الإخلاص لله دينا ، ولا يأبه برضاء قومه عنه في معصية الله ، **ولا يبالي** بغضبهم منه في طاعة الله ، أي أنه يعلن تبرؤه من شركهم صراحة ، وأنه لا يقبل أن يساومه أحد في هذه المسألة ، ولو قيد أنملة .

قوله (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (80) أي بعد أن قدم إبراهيم لقومه الحجة الدامغة ، فإنه **ليس بحاجة لأن يأتي بحجة تعضدها** ، **وليس عليه أن يستطرد في الإتيان بالحجج** ، بل الواجب عليه –بعد ذلك – أن ينشغل ببيان أحكام الإسلام وشريعته لمن يتبعه من المسلمين ، فكان لابد وأن يقتصد في محاجاتهم ليفرغ إلى التزكية أي "التربية لمن اتبعه" ، وليس عليه أن يبارز الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، فقد قدم الدليل الدامغ على الحق وكفى .

بيد أنه وقبل أن يشرع في ذلك وجه إليه المشككون وابل من الحجج المصطنعة ليعطلوه عن دعوته ، ويبادلونه الحجة بالحجة فيحاجونه كما يحاجهم ، قال الإمام البقاعي (ولما أبدى هذه الأدلة في إبطال الضلال بالكواكب والشمس التي هي أوضح من الشمس ، عطف عليها الإخبار بأنهم لم يرجعوا إليه بل حاجوه ، ولما كان من المعلوم أن محاجتهم – بعد هذه الأدلة الواضحة في غاية من السقوط – سفلت عن الحضيض ، **نزه المقام عن ذكرها** ، إشارة إلى أنها بحيث لا يستحق الذكر ، وبين جوابه لما فيه من الفوائد الجمة بقوله : (قال) أي بقول منكراً عليهم موبخاً لهم (أتحاجوني) [4]

قوله (..أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ..) (80) أي في وحدانيته [5]، وهنا يأت الرد من القلب السليم المطمئن بذكر الله ، فيقول لهم مستنكرا (أَتُحَاجُّونِّي) قال ابن عاشور (الاستفهام إنكار لعدم تذكرهم مع وضوح دلائل التذكر ، والمراد التذكر في **صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية**، وفي صفات الإله الحق التي دلت عليها مصنوعات)[6]

---

[1]) المفردات للراغب الأصفهاني ، انظر تاج العروس ج1 ص 5784 ، روح المعاني للألوسي ج21 ص 39 ،
[2]) تفسير الطبري ج6 ص 494
[3]) تفسير النيسابوري ج4 ص 405
[4]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج2 ص 661
5) ابن عجيبة : البحر المديد ج2 ص 166
6) التحرير والتنوير ج6 ص 185

وهذا إن دل فإنه يدل على سعة صدر النبي وقبوله لمحاجاتهم وبقدرها ، لكنهم ما لبثوا أن انقلبوا عليه وبدأوا بتهديده وإخافته ، فهم ليسوا بأهل فكر ولا يحترمون الحجة ، **وإنما الشرك يعني القمع وهو الترجمة الحقيقية لكبت الحريات** ، ولذلك رد عليهم بأنه لا يخاف ما يخوفونه به .

قوله (..وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا..) (80) قال ابن عجيبة أي : (لا أخاف معبوداتكم أن تصيبني بشيء؛ لأنها جوامد لا تضر ولا تنفع ، إلا أن يشاء ربي شيئًا أن يصيبني بقدَره وقضائه ، فإنه يصيبني لا محالة ، لا بسببها)[1] ، لأنه أيقن أن الضر والنفع من الله ، فإذا أصابه ضر فليس منهم في شيء وإنما هو قدر الله وابتلاءه لعبده ، وقد رضي به وصبر عليه ، قال أبو السعود (أي لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم في وقتٍ من الأوقات **إلا في وقتِ مشيئتِه تعالى** شيئاً من إصابة مكروهٍ بي من جهتها ، وذلك إنما هو **من جهته تعالى من غير دَخْلٍ لآلهتكم فيه** أصلاً)[2] .

وقد ثبت في السيرة أن النبي ﷺ أصيب بالسحر نتيجة أعمال لبيد الأعصم ، فكان ذلك بقضاء الله وقدره ، وقد شفاه الله منه ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ..ثم قالت عائشة في آخر الحديث (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ –أي السحر من مكانه– قَالَ (قَدْ عَافَانِي اللَّهُ)[3] ، فاستغنى بذلك عن استخراجه وقد عافاه الله .

وفي قوله (..وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا..) (80) قال أبو حيان (ذكر عقيب الاستثناء سعة علم الله .. فلا **يستبعد أن يتعلق علمه بإنزال المخوف بي إما من جهتها .. أو مطلقاً**)[4].

فالله يجعل للضر أسبابا ، ليتدبر الإنسان ضعفه ، (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ (النساء: 28) ، ولا يغتر بقوته ، (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا) (النازعات 27) ، فيجعل غيره ، ومن هو أضعف منه قادر على أن يقهره ، من ذلك الفيروسات والأمراض فإنها تهلك أعتى العتاة ، ولا يخفى من ذلك حكم كثيرة ، فها هي الجبال الرواسي الشامخات من أشد مظاهر القوة في الأرض يقطعها الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس ، والحديد تذيبه النار بحرارتها العالية ، والماء يطفء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح تعبث بالسحاب فترسله يمينا وشمالا ، والإنسان يتقي الريح بثوبه وبيته ، والنوم يغلبه ويقهره ..الخ .

ولعلنا نلحظ ذلك من سيرة الأنبياء يوسف ويعقوب وأيوب وسليمان ويونس وموسى ..الخ ، فلكل قصة منها حكمة فيما ابتلاه الله منهم بشيء من الضر.

---

[1]) البحر المديد ج2 ص 166
[2]) تفسير أبي السعود ج2 ص 390
[3])رواه البخاري ج18 ص 53 رقم 5321
[4]) البحر المحيط ج5 ص 203

فجعل مس الشيطان سببا لأن يصيب نبي الله أيوب الضر ، فقال (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) (ص41)

وكذلك فُتن سليمان ، وسلب ملكه (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) (ص34)

وكذلك فتن موسى لما سحرت عينه وأعين الناس واسترهبوهم (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) (الأعراف 116) ، وفي سورة طه (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) (طه 68)

كذلك فتنة يونس لما التقمه الحوت وهو مليم (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (المؤمنون 88)

وفي قوله (..أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (80) قال الشعراوي (يدل على أن **قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة** ، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر)[1].

قوله (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ..) (81) قال ابن عاشور (ذلك إثبات أن **المتصرف المطلق في أحوال الموجودات هو الله** تعالى بعد أن أثبت بالجمل السابقة أنه محدث الموجودات كلها في السماء والأرض)[2].

ذلك أن المشركين دوما يخوفون أولياء الله فيقولون (**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**) ، وأولياء الله لا يخافون إلا الله ، فلا يأبهون لقولهم ، بل يتعجبون ويستنكرون أن يخوفونهم غير الله ، كما في قوله (إِنَّمَا ذَلِكُمُ **الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران 175)

قوله (..وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا..) (81) قال القطان (إنه لمن العجب أن أخاف ألهتكم الباطلة ولا تخافون أنكم عبدتم مع الله ، الذي لا إله إلا هو ، آلهةً باطلة!؟)[3]، وفي ذلك إبطال لتهديدهم إياه بأن ينزل به ضر منهم ، بالإتيان بتهديد مثله ، وهو الحق ، ذلك أنهم إذا زعموا عدم خوفهم من الله الذي اشركوا معه غيره ، فإذا كان هذا هو زعمهم ، وقد هددوه بأن يصيبه الضر من آلهتهم ، فإنه من حقه كذلك أن يعلن لهم في ثقة أنه لا يخاف ما يخوفونه به من تهديدات ، **وذلك من باب التحدي لهم وإثبات الثقة في الله** ، بل ويهددهم بالله أن يعاقبهم على شركهم به ، فكيف يأمنون عقابه ، أي إنه إذا كان أهل الباطل يدافعون عن باطلهم ولا يخشون الله ، بل ويموتون من أجل باطلهم ، فأولى بأهل الحق أن يدافعوا عنه جهارا نهارا ولا يخشون في الله لومة لائم ، ولا يهابون الموت لأجل إعلاء كلمة الله.

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2614
2) التحرير والتنوير ج6 ص 42
[3]) تفسير القطان ج1 ص 482

قوله (..مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا..) (81) أي أنكم تعبدون هذه الآلهة بدون دليل من الشرع ، فلم ينزل وحي يوحى بإجازة عبادتها ، أو اعتبارها وسطاء كما تزعمون ، فليس لكم مستند من العقل ولا من النقل ، فعلام تعبدون ما ليس لكم فيه دليل ، إلا أن تكون عبادتكم هذه إلى ضلال ، لأن الأصل في العبادة المنع إلا بدليل ، فإذا لم تأتوا بالدليل فلا شك أنها باطلة دون حاجة لإثبات ذلك .

قال أبو حيان (**والسلطان الحجة** ، والإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة ، وكأنه لما **أقام الدليل العقلي على بطلان الشركاء وربوبيتهم** ، **نفى أيضاً أن يكون على ذلك دليل سمعي** ، فالمعنى أن ذلك **ممتنع عقلاً وسمعاً** فوجب إطراحه) [1].

قوله (..فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (81) قال الشعراوي (وهذا منتهى **الحيدة في الجدل** ، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال ، وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه ﷺ على هدى وأنهم على ضلال ، **وهذا هو الجدل الارتقائي** ، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه **(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)** [سبأ : 24] **(قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** [سبأ : 25][2] .

إذن الشعور بالإمن هو رهين بالإيمان ، فعندما يؤمن العبد بالله يعطيه الله شعورا بالأمان في قلبه لا يفارقه ، كما في قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد 28)، وقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة277) ، وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ (الأنعام: 82).

بينما يشعر الكافر بالله بالخوف والفزع ، ولا يشعر بالأمن إطلاقا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، كما في قوله (**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾ [آل عمران: 151].

قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (82) جملة الصلة بتعريف الآمنين من عذاب الله يوم القيامة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ " شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**) [3]، جاء في الشرح (ولم يلبسوا أي لم يخلطوا)[4]، أي (**لا تخلط الإشراك بالإيمان بالله** وسائر ما يجب الإيمان به إن الشرك لظلم عظيم استئناف تعليل أي **فإنه يبطل الإيمان** ويستأصله **ولا يجتمع معه** أصلا فضلا عن غيره من

1) البحر المحيط ج5 ص 203
2) تفسير الشعراوي ج1 ص 2615
3) رواه مسلم ج1 ص 311 رقم 178 وروى البخاري مثله ج21 ص 260 رقم 6424
4) فتح الباري لابن حجر ج1 ص 197

الأعمال)[1]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ** مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي **تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)** [2].

قوله (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (83) قال الشيخ سيد طنطاوي أى : (وتلك الحجة التى لا يمكن نقضها أو مغالبتها فى إثبات الحق ..أعطيناها إبراهيم ليكون مستعلياً بها على قومه ، قاطعاً لألسنتهم عن المجادلة والمخاصمة)[3]

قال الرازي (جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد ، وهو أنها محدثة ممكنة ، وكل محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع ، وإذا عرف الإنسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه ذلك في الاستدلال على الصانع .. ، وكأنه- إبراهيم- قد طالع جميع الملكوت بعين عقله وسمع بأذن عقله شهادتها بالاحتياج والافتقار)[4] أي الاحتياج لله والافتقار له ، فما من مخلوق إلا ظهرت فيه الحاجة والافتقار لخالقه .

ويعلق صاحب الظلال على رحلة إبراهيم الشائقة مع الفطرة الصادقة بأنها (**رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الوعي!** الإيمان الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع؛ والذي لا يكل الله – سبحانه – جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها ، فيبينه لهم في **رسالات الرسل** ، ويجعل **الرسالة** – لا الفطرة ولا العقل البشري – هي **حجته عليهم** ، وهي مناط الحساب والجزاء ، عدلاً منه ورحمة ، وخبرة بحقيقة الإنسان وعلماً)[5].

قوله (..نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (83) أي: (علا بها عليهم، وفلجهم بها)[6] ، فعن مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) قَالَ (بِالْعِلْمِ)[7]، وهكذا كان المسلمون هم السابقون في علم المناظرة والكلام والجدال بالحق ، وهو ما يسميه البعض بعلم (المنطق) أو (الفلسفة) أو (الحكمة) .

فرفع الله نبيه إبراهيم على النمرود الذي أله نفسه ، وأراد محاجاة إبراهيم فبهته إبراهيم بالبرهان (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة : 258] .

المسألة الثانية : الحجة تتوارث عبر الأجيال ولا تنقطع عند جيل

---

1) الملا علي القاري : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج14 ص 449
2) رواه مسلم ج14 ص 254 رقم 5300
3) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1492
4) تفسير الرازي ج6 ص 342
5) في ظلال القرآن ج3 ص 88
6) تفسير السعدي ج1 ص 263
7) رواه أحمد ج1 ص 426 رقم 421

قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (87) قال النيسابوري (اعلم أن الله تعالى ذكر أربعة من الأنبياء وهم : نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ، ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر نبياً : داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، فالمجموع ثمانية عشر ، وأنه لم يراع الترتيب بينهم في الآية لا بحسب الفضل والشرف ولا بحسب الزمان والمدة)[1]

وقال الشعراوي (وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلا ، أي بقى سبعة وهم (إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا)[2] ، وهؤلاء السبعة مشار إليهم بقولهم (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ) فهم جميعا إما أباء لأنبياء مثل آدم أو من ذرية الأنبياء وكذلك أخوة لأنبياء سواء في النسب مثل موسى وهارون أو في الزمن مثل لوط وإبراهيم.

فقد استجاب الله لدعوة نبيه إبراهيم حيث أبدله الله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وبارك في ذريته فجعلهم أنبياء ، قال تعالى (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ **وَمِن ذُرِّيَّتِي** رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) (إبراهيم 40) ، وأظن والله أعلم أن جمعهم في هذا الموضع والإشارة إلى أنهم ذرية بعضها من بعض ، أو لأنهم أخوان مثل أخوة موسى وهارون في النسب ، وأخوة إبراهيم ولوط عليهما السلام في الدعوة ، للتأكيد على أن نبي الله إبراهم لما خاصم أبيه وقومه في الله لما رفضوا دعوته وحاولوا حرقه ، فإن الله تعالى بارك في ذريته وأصحابه فجعلهم أنبياء ، **ليعلم الناس أن دعوة الإسلام لا تفرق بين الأب وابنه ولا الأخ وأخيه** كما اشتهر الإفتراء علي النبي ﷺ من كفار قريش بأنه (**فَرّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتّتَ أَمْرَنَا** وَإِنّمَا قَوْلُهُ كَالسّحْرِ يُفَرّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَابْنِهِ وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ)[3] ، بل على العكس من ذلك فإن **الإسلام يحث المرء على أن يبدأ في دعوته بأقرب الأقربين إليه** ، قال تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)(الشعراء 214) ، وقد بارك الله في ذرية نبيه إبراهيم فكانوا أنبياء .

لكن يجب الاحتراز والفهم أنه إذا وقف النسب أو وقفت صلة القربى أمام الدعوة فلا يحول بين مضيها في طريق الحق حائل كما كان في قصة إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ).

قوله (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) قال ابن كثير أي: (إنما حصل لهم ذلك **بتوفيق الله وهدايته** إياهم)[4]، قال الرازي (المراد من هذه الهداية : **الإرشاد إلى النبوة والرسالة** ، لأن الهداية المخصوصة بالأنبياء ليست إلا

---

[1]) تفسير النيسابوري ج3 ص 305
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2624
[3]) زاد المعاد لابن قدامة ج3 ص 545
[4]) تفسير ابن كثير ج3 ص 299

ذلك)[1]، وقال (واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الهدى هو **معرفة التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك** ، لأنه قال بعده : (وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأنعام : 88] وذلك يدل على أن المراد من ذلك الهدي ما يكون جارياً مجرى الأمر المضاد للشرك)[2] .

قوله (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (88) هذه الآية تثبت **عصمة الأنبياء عن الشرك بالله** تعالى ، وذلك قبل البعثة أو بعدها ،(قال أهل اللغة (لو) –(هو **حرف امتناع لامتناع** – أي امتناع الجواب لامتناع الشرط، وهذا الحرف لا عمل له– أي أنه شرط غير جازم) (حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه ، لأجل امتناع وقوع شرطه)[3]، قال الشعراوي (وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم) [4].

قال ابن تيمية (الْقَوْلَ بِأَنَّ **الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ دُونَ الصَّغَائِرِ** هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَجَمِيعِ الطَّوَائِفِ حَتَّى إنَّهُ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ)[5]، قال النيسابوري (يعني ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم بربهم تعالى ذكره فعبدوا معه غيره (لحبط عنهم) أي بطل عنهم وذهب عنهم ما كانوا يعملون) [6]

ونظير ذلك قوله (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (الزمر 65-66) ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ)** [7]، فالأنبياء أخلص الناس لله ولا يريدون من عملهم جزاءً ولا شكورًا.

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) "**الكتاب**" كناية عن المنهج الرباني الذي كلف الله به عباده أي الشريعة المتبعة ، "**الحكم**" وهو قوة السلطان ، لأن السلطان حارس للشريعة ، وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم ، و"**النبوة**" الدعوة للحق ، ويرثها أنبياء عن أنبياء ، كما في الحديث (كلما مات نبيه خلفه نبي بعده) ثم يرثها عنهم العلماء كما في الحديث (العلماء ورثة الأنبياء)

قال الشعراوي (والحق سبحانه وتعالى **لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين "داود وسليمان"** حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث مَلِكاً رسولاً؛ لأن المِلك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان في حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريده بالاختيار ، ولذلك **جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً**)[8].

---

[1]) تفسير الرازي ج6 ص 361
[2]) تفسير الرازي ج6 ص 361
[3]) انظر الاتقان للسيوطي ج1 ص 508 ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج4 ص 47
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2625
[5]) مجموع الفتاوى ج4 ص 319
[6]) الكشف والبيان ج4 ص 167
[7]) رواه مسلم ج14 ص 255 رقم 5301
[8]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2624

قوله (.. فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ **وَكَّلْنَا** بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) (89) أي **إن تنكب عن حمل أمانة الدعوة قوم ، حمَّلها الله لقوم غيرهم يستخلفهم بدلا منهم** يكونوا خيرا منهم وأهلا لحملها ، قال العثيمين (المراد "بالتوكيل" الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون)[1]، قال ابن تيمية (فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ – وَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْهُ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ – لَا يَضُرُّونَ الْإِسْلَامَ شَيْئًا ، بَلْ يُقِيمُ اللَّهُ مَنْ يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ وَيَنْصُرُ دِينَهُ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ) [2].

قال ابن عاشور (**التوكيل هنا استعارة** ، لأن حقيقة التوكيل إسناد صاحب الشيء تدبير شيئه إلى من يتولى تدبيره ويكفيه كلفة حفظه ورعاية ما به بقاؤه وصلاحه ونماؤه ، يقال : وكلته على الشيء ووكلته بالشيء فيتعدى بعلى وبالباء . وقد استعير في هذه الآية للتوفيق إلى الإيمان بالنبوءة والكتاب والحكم والنظر في ما تدعو إليه ورعايته **تشبيها لتلك الرعاية برعاية الوكيل** ، وتشبيها للتوفيق إليها بإسناد النظر إلى الوكيل ، لأن الوكالة تقتضي وجود الشيء الموكل بيد الوكيل مع حفظه ورعايته ، فكانت استعارة " وكلنا " لهذا المعنى إيجازا بديعا يقابل ما يتضمنه معنى الكفر بها من إنكارها الذي فيه إضاعة حدودها)[3].

إذن في الآية ذكر لفظين " الإيتاء" و "وكلنا" ، فالإيتاء للكتاب ، **ووكلنا أي عهدنا لأهل الكتاب القيام بأمر الدعوة ، فالوكالة** تعني إسناد الأمر إلى من يتولى الحفظ والتدبير والرعاية ، أما **الإتياء** فيعني الأخذ ولا يلزم منه إسناد الأمر لمن يحفظه ويقوم عليه) [4]، وهذا هو ما وقع فيه بعض أهل الكتاب الذين حرفوه وبدلوه .

وفي مفهوم الوكالة عن الله قال ابن القيم الجوزية (**فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له وخلعة منه عليه** لا عن حاجة منه وافتقار إليه كموالاته)[5]، وقال ابن القيم (فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعا لهم)[6].

ويقول صاحب الظلال (وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله؛ لأن الذي يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا؛ لأنه يقوم بالمطلوب له – سبحانه – **وجعل من نفسه سبباً له**؛ لأن الله رب الجميع ، ومربي الجميع ، وراعي الجميع ، ورزّاق الجميع ، وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه وكيلاً عن الله في أن يشيع الخير في خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف أضعاف ما أعطى)[7].

---

[1]) القول المفيد على كتاب التوحيد ج2 ص 97
[2]) مجموع الفتاوى ج18 ص 301
3) التحرير والتنوير ج6 ص 204 ، في ذات المعنى البحر المحيط ج5 ص 209
[4]) روائع البيان القرآني : https://albayanalqurany.com/clause/
[5]) مدارج السالكين ج2 ص 127
[6]) زاد المهاجر ج1 ص 42
[7]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2624

والمعنى بهذه الوكالة في الأصل هم الأنبياء وكذا من تبعهم ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: " فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ " يَعْنِي"**أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَالأَنْصَارَ**"[1]، قال قتادة : (**وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر** الذين ذكرناهم يعني قبل هذه الآية)[2]، وقال ابن القيم (والقوم الموكلون بها هم الانبياء أصلا **والمؤمنون بهم تبعا**، فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها ،ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعا وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته فهم الموكلون بها)[3].

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ) ذلك (أن **الأنبياء دينهم واحد**، وشرعهم شرع لنا)[4] ، مالم يأت دليل بنسخه ، والمعنى العام يدل على ذلك ، يقول الكيا هراسي (يستدل به على وجوب اتباع شرائع الأنبياء وإلتزامها)[5]، قال السعدي (أمره الله رسوله ﷺ أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم .

وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: [**أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه**] وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه، وكذلك قوله تعالى: " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ " [الأنعام: 153]، وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلاً وتركاً، اعتقاداً وانقياداً، **وأضافه إلى نفسه** في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده)[6].

قال الواحدي (ويحتمل أن يكون فيه تخصيص) أي : (**اصبر كما صبروا**؛ فإنَّ قومهم كذَّبوهم فصبروا)[7] ، والمعنيان جائزان معا مفهومان من السياق بلا تعارض .

المسألة الثالثة : طلب "الأجرة" مبطل "للحجة"

قوله تعالى (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (90) قد ألغي الشارع الحكيم حظ المكلفين من الدعوة الإسلامية ، فجعل دعوتهم خالصة لوجهه لا يجوز أن يبتغي المكلف منها أجرًا من غيره ، وهو ما يعني بطريق التضمن **إلزام كل نبي أن يتخذ مهنة يقتات منها ليقيم بها دنياه** ، ولذلك كان لكل نبي مهنة يكتسب منها قوته وقوت عياله .

فنبي الله آدم كان يصنع اللباس ، ونبي الله نوح كان نجارًا ومهندس تشييد والدليل على ذلك أنه صنع سفينة ضخمة ، ونبي الله إبراهيم كان بناءً فقد بنى الكعبة ، ونبي الله داود كان حدادًا ويصنع الدروع وأمره الله بأن يقدر في السرد ، ونبي الله

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 310
[2]) مدارج السالكين ج2 ص 126
[3]) مفتاح دار السعادة ج1 ص 161
[4]) تفسير آيات من القرآن الكريم ج1 ص 67
[5]) أحكام القرآن للكيا الهراسي ج3 ص 2
[6]) القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 13
[7]) الوجيز للواحدي ج1 ص 195

عيسى كان طبيبا يداوى المرضى ، وهكذا لم يخل نبي من مهنة حتى أن نبي الله محمد ﷺ عمل بالرعي ثم التجارة وثم الإدارة المدنية ثم الإدارة العسكرية .

قال رسول الله ﷺ (**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ** فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ)[1]، قال العلماء (وليس الإبل لأنها تكسبه الهدوء والسكينة والرفق، إذ لا يمكن أن يتجبّر على شاة صغيرة، أما الجمل فإنه إذا هاج إن لم تتجبر عليه قضى عليك)[2]، فإذا كانت لكل نبي مهنة فإنه يستعف بمهنته عن رزق قومه ، فلا يسألهم أجرا مقابل دعوته لهم ، وقد حبذا الإسلام أن يكون طيب الطعام من عمل يد المرء نفسه ، فعن رسول الله ﷺ قال (**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**)[3].

المسألة الرابعة : الاقتصاد في الرد على أهل الجدل ثم تركهم بعد إفحامهم

قال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

قوله (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) (91) قال ابن تيمية أي (**مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ** وَمَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، **وَمَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ**)[4]، فهذه العبارة من جوامع الكلم في علم العقيدة ، وذلك بنفي كل ما قدره البشر في شأن الله تعالى ، فكل ما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك [5]، ذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع العليم ، (**فمن لم يوحد الله فما قدر الله حق قدره** ، كيف يمكن لعاقل أن يسوى بين الخالق والمخلوق في الحب والخوف والرجاء ، كيف يمكن لعاقل أن يسوى بين الملك والمملوك في الاستغاثة والدعاء) [6] .

ومن جهة ثانية فإن الملائكة وإن كانت تعبد الله ولا تعصيه فإنها تقر بأنهم لم يعطوا الإله حقه من العبادة ، ففي الحديث قال النبي ﷺ (يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن

---

[1]) رواه البخاري ج8 ص 21 رقم 2102

[2]) شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم ج10 ص 4
والحكمة من ذلك أن يتمرن الإنسان على رعاية الخلق وتوجيههم إلى ما فيه الصلاح، لأن الراعي للغنم تارة يوجهها إلى واد مزهر مخضر، وتارة إلى واد خلاف ذلك، وتارة يبقيها واقفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام سيرعى الأمة ويوجهها إلى الخير عن علم وهدى وبصيرة كالراعي الذي عنده علم بالمراعي الحسنة، وعنده نصح وتوجيه للغنم إلى ما فيه خيرها، وما فيه غذاؤها وسقاؤها .
شرح رياض الصالحين ج1 ص 631 لابن عثيمين ج1 ص 631

[3]) رواه البخاري ج7 ص 235 رقم 1930

[4]) مجموع الفتاوى ج8 ص 24

5) العقيدة : شيخ محمد عبد الوهاب ج19 ص 34
خالد بن عبد الله بن محمد المصلح : شرح لمعة الاعتقاد للمصلح ج 3 ص 23
حمد بن عبد المحسن بن أحمد التويجري : شرح الفتوى الحموية ج1 ص 110

[6]) أسماء الله الحسنى ج2 ص 10

هذا ؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي فتقول الملائكة : **سبحانك ما عبدناك حق عبادتك** ويوضع الصراط مثل حد الموس فتقول الملائكة : من تجيز على هذا ؟ فيقول : من شئت من خلقي فيقول : **سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)**[1].

قوله (..إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) (91) الذي أطلق هذه الشبهة وقال : (إنّ الله لا يبعث رسولاً من البشر) ، هذا ما قدر الله حقّ قدره، لأنّه اتهم الله سبحانه وتعالى بأنّه **ترك عباده بدون هداية ولا بيان**، ولا بيّن لهم طريق الحقّ من طريق الباطل، ولا وضّح لهم)[2].

وأغلب المفسرين ينسبون هذا القول لكفار قريش ، لأن أهل الكتاب يعلمون أن الله أنزل التوراة والإنجيل ، ولكن لا يستبعد إطلاقهم لمثل هذه الشبهة ويخصون بها محمد ﷺ ، قال النيسابوري (**كفار قريش متشاركين مع اليهود والنصارى في إنكار نبوة محمد ﷺ**)[3] ، معنى كلامه أن أصحاب هذا القول الباطل هم كفار سواء أكانوا من المشركين أم من اليهود أو من الملحدين ، فجميعهم يتفقون على إفراغ الدين من مضمونه بنفي الرسالة وتجريدها من المنهج ، ليكون الدين عندهم – بنفي الرسالة – بلا منهج صالح للتطبيق ، فيستوون في ذلك بمن لا يؤمنون بإله أصلا .

قوله (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ..) لقن الله نبيه الإجابة على الشبهة التي أثارها مشركي مكة ، وهي نفي الرسالة ، أي نفي المنهج الذي مع النبي ، وذلك بالإشارة إلى التوراة ، فتلك الإجابة تحيلهم للبحث عما سبق القرآن من كتب أنزلها الله على عباده ، أي أحال في إجابته إلى اليهود الذين يؤمنون بموسى عليه السلام عليه ، فهؤلاء هم أهل الكتاب ، ومشركوا مكة يعرفونهم ، ويتعاملون معهم .

قال ابن عاشور : أي (**فذكّرهم بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب**, وهو رسالة موسى ومجيئه بالتوراة وهي تدرس بين اليهود في البلد المجاور مكة، واليهود يترددون على مكة في التجارة وغيرها، وأهل مكة يترددون على يثرب وما حولها وفيها اليهود وأحبارهم، وبهذا لم يذكرهم الله برسالة إبراهيم عليه السلام لأنهم كانوا يجهلون أن الله أنزل عليه صحفا)[4]، ولعل السبب لعدم تذكيرهم برسالة عيسى عليه السلام أن اليهود كانوا منتشرين في جزيرة العرب دون النصارى الذين كانوا يستوطنون الشام ومصر في العهد المكي للنبوة ،ولا يزال المسلمون بلا دولة.

فاليهود كانوا إذاك أقرب للمسلمين من مشركي مكة ، **ولعل ذلك إيذان إلى قرب الهجرة إلى المدينة** المنورة والاستعداد لمعاملتهم ودعوتهم للإسلام أو مواجهتهم كما جرت بذلك الأحداث .

---

1) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 629 رقم 8739
2) صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان : إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ج2 ص 320
3) تفسير النيسابوري ج3 ص 310
4) التحرير والتنوير ج6 ص 212

وبذلك **أسبر القرآن عن حجج المشركين** ، وقسمها إلى فئات ، **فاستبعد الذين لا يؤمنون بكتاب** عن تلك المجادلة في هذه المسألة لأن الأولى أن يدور الجدال معهم في المسألة الأصلية وهي أين الله ؟ وما هي صفاته وأسمائه ؟ أما أهل الكتاب فأحرى بهم وحدهم أن يتحروا عن مسألة التصديق بالقرآن الكريم وبعث النبي ﷺ إليهم .

ولا غرو كذلك في أن يكون المخاطب بهذه الآية بعض مشركي مكة الذين يكنون في صدورهم احتراما لليهود من أهل المدينة وما حولها والذين هم أقرب لليهود من عبادة الأصنام .

قوله (..تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا..) المقصود ذم أهل الكتاب الذين أخفوا الحق وكتموه ، فعمُّوا على أهل مكة حقيقة النبي ﷺ وهو مكتوب عندهم في التوراة ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، قال الطبري (والمراد منه المكتوب في القراطيس)[1] ، قال القرطبي (هذا لليهود الذين أخفوا صفة النبي ﷺ وغيرها من الأحكام)[2].

قال الرازي (فمن المعلوم بالضرورة أن **هذه الأحوال لا تليق إلا باليهود**)[3] ، ولذلك قال الله في حقهم (**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ** وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة 75)

وفي قوله تعالى (..وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ)(91) عَنْ قَتَادَةَ قال:"هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَوْمًا **آتَاهُمُ اللَّهُ عِلْمًا فَلَمْ يَقْتَدُوا بِهِ، وَلَمْ يَأْخُذُوا بِهِ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ**، فَذَمَّهُمُ اللَّهُ فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ"[4]، قال الشوكاني (والخطاب لليهود ، أي والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، .. والذي علموه هو الذي أخبرهم به نبينا محمد ﷺ من الأمور التي أوحى الله إليه بها ، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم ، ولا على لسان أنبيائهم ، ولا علمه آباؤهم)[5].

وفي ذلك تأكيد على تفاعل اليهود عند نزول آيات القرآن وقد فوجئوا بأنها **بينت لهم ما كانوا يخفونه من قبل** ، أي وعلى الرغم من أن اليهود حرفوا التوراة وبدلوا أحكامها وأخفوا بعضا منها إلا أنه لا يزال كتابهم مشهورا وإن كان محرفا ، ولا

---

[1]) تفسير الطبري ج11 ص 526
[2]) تفسير القرطبي ج7 ص 37
[3]) تفسير الرازي ج6 ص 371
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 316
[5]) فتح القدير ج2 ص 444

يزال العرب يتحدثون عما عندهم من علم عن الله بذلك الكتاب "التوراة" ، فلما نزل القرآن الكريم وقد أخبرهم ببعض ما كانوا يخفونه من كتبهم ، أضحى ذلك حجة عليهم

قوله (قُلِ اللَّهُ) فذلك إجابة للسؤال السابق (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى) ودلالته أن **الذي أنزل التوراة التي تعرفونها ، هو الذي أنزل القرآن الذي تنكرونه** ، والدليل هو إخبار القرآن عما في التوراة من أحكام كانوا يخفونها .

وفي قوله (ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) أي **لا تنشغل بما يثيرونه من شبهات** القصد منها تعطيلك عن المضي في طريق الدعوة ، وانشغل باستكمال وظيفتك دون التفات إلى كل حجة يلقونها إليك ، قال الشعراوي (هذا لعب منهم ولن يستطيعوا الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة في طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذي يصنعونه هو خوض في باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد)[1] .

المسألة الخامسة : إثبات أن القرآن هو الحجة المباركة من الله للناس كافة والإيمان به لاحق للإيمان بالبعث

قال تعالى (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)

قوله (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) (92) التفات إلى كتاب الله المبارك ، بالتركيز على ما فيه من خير وفير وبركة عظيمة ، وكنوز جليلة ، كما في قوله (وَهَذَا كِتَابٌ **أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام155) ، وقال تعالى (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (الأنبياء50) ، وقال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ **مُبَارَكٌ** لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص29) ، فهو كتاب مبارك من كل وجه ، فهو بركة لقارئه ولسامعه ولمتدبره ولمن عمل به واتبعه ، ويكفي من بركته أنه يزيد الإيمان بتلاوته ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ (الأنفال: 2).

قال الرازي (ومعلوم أنه **لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة والرحمة**)[2].

قال صاحب الظلال (الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر)[3].

وقال الشعراوي (وبركة القرآن غالبة ومهيمنة ، فحجم القرآن مقارنة بحجم الكتب الأخرى أقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ورغم كثرة المؤلفات والتفاسير فيه ما استطاع

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2631
[2]) تفسير الرازي ج4 ص 312
[3]) في ظلال القرآن ج3 ص 97

واحد أن يصل إلى حقيقة المراد من الله؛ لأن **القرآن لو جاء وأفرغ عطاءه في القرن** الذي عاش فيه الرسول **فكيف تستقبله القرون الأخرى؟!** إنه يكون استقبالا خاليا من العناية به لأنه سيكون كلاماً مكرراً ، إذن فقد بيّن فيه كل شيء ومنه أخذ كل إنسان وزمان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسّره أحد غير من انفعل له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله ﷺ أيستطيع واحد بعد ذلك أن يقول شيئا في التفسير؟! **إذن لو فسره الرسول ﷺ لجمّده** لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتي بتفسير بعد الرسول ، **وقد علم الرسول ﷺ أن عطاءات القرآن لا تتناهى** ، لذلك لم يفسّره ، بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصرة حتى لا ينصرفوا عنه... ، إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، **وإذا ما جدّ جديد نجد الأمر مكنوزاً في القرآن ، ونجد تأويلا جديداً لا ينسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقي به**)[1]

قوله (..مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ..) (92) فتصديقه لما في التوراة والإنجيل من أحكام عامة لم يطلها النسخ هو كفيل بإثبات أنه من عند الله تعالى ، لأن **العقائد لا تنسخ ، والمبادئ العامة في الأخلاق والمعاملات –كالأمانة والصدق– لا يطولها النسخ** ، ولذلك جاء القرآن بتصديق ما فيهما من أحكام اعتقادية ومبادئ عامة ، فمن التزم منهم بتلك الأحكام فهو هو الذي يقبل على الإسلام وصدره منشرح له ، أما من خالف هذه الأحكام التي في التوراة والإنجيل ، ولم يؤمن بها فهذا الذي يجد في صدره حرجا وضيقا وهو يصعد في السماء .

قوله تعالى (..وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا..) (92) فدلالة بركته هو توسع دائرة المؤمنين به حول مكة وأقطارها ، قال ابن عاشور (الاقتصار على إنذار أم القرى ومن حولها لا يقتضي تخصيص إنذار الرسول ﷺ بأهل مكة ومن حولها، فإن الرسول ﷺ بعث للناس كافة)[2]، قال تعالى "وَمَا **أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**" [سبأ: 28] ، قال الشعراوي (**الحول هو المحيط الذي حول النقطة** ، وحول كل نقطة قُطْر ، وكلما بعدت المساحة فهي حول هذه النقطة ، إذن فكلمة الحول تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان)[3].

وإنما المقصود هو تكليفه ﷺ بإنذار أم القرى ومن حولها من القرى ، فهذا هو طاقته ووسعه في زمانه ، ثم بعد ذلك انتشر الإسلام إلى ربوع الأرض حتى وصل إلى بلاد الهند والسند شرقا والمغرب والأندلس غربا ، وامتد إلى أطراف ووسط أوروبا شمالا ، ووسط أفريقيا وجنوب آسيا كذلك

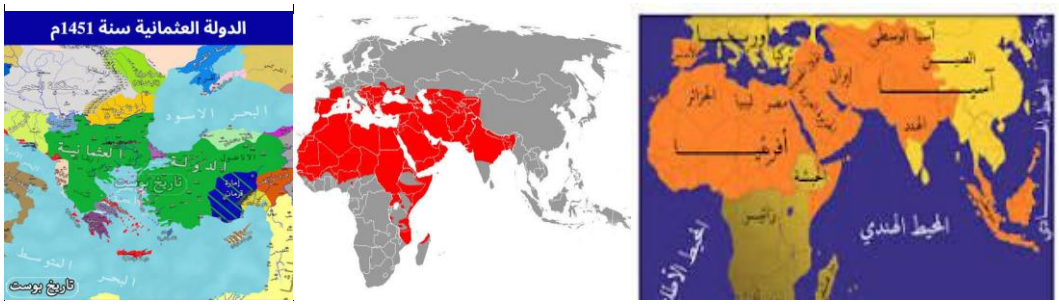

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2633
[2]) التحرير والتنوير ج25 ص 107
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2635

تبين الخرائط لامتداد العالم الإسلامي أن مكة المكرمة تتوسط هذا الامتداد عبر التاريخ

قَالَ رسول الله ﷺ (**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ** فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ)[1] ، قال طنطاوي (وسميت مكة بأم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها **أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها كما يتبع الفرع الأصل** ، وفى ذكرها بهذا الاسم المبنىء عما ذكر إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة) [2] .

قوله (..وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (92) أي **أقرب الناس للإيمان بالرسالة المحمدية ، وبالقرآن المبارك هم الذين لا ينكرون البعث واليوم الآخر** ، فإذا كانت عقيدتهم تؤمن باليوم الآخر ، فإن الرسالة المحمدية تؤكد هذا الاعتقاد ، فيكونون هم أولى الناس بالبلاغ ، قال النيسابوري (لأن **أصل الدين خوف العاقبة** فمن خالفها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ، وفيه أن **كفار مكة يبعد منهم قبول هذا الدين** لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والحشر)[3] .

بذلك تضمنت الآية إرشاد الدعاة إلى الله إلى **ترتيب الخطاب الدعوى وأولويته** ، ليكون خطابهم منصب ابتداء على **شرح عقيدة الإيمان باليوم الآخر** ، قبل الشروع في بيان أن القرآن هو كتاب الله المنزل للبشر ، ولذلك روي عَنْ جُنْدُبٍ قَالَ : كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ** ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ)[4]، وعن ابن عمر يقول : لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدثنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن ثم قال : لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه ينثره نثر الدقل)[5].

وفي ذلك اختصار كبير لجهد الدعاة إلى الله تعالى ، وذلك عندما يجادلهم الذين كفروا في التصديق بالقرآن الكريم ، وهم في الأساس لا يؤمنون بالآخرة ، فكان الواجب في دعوتهم إعادة ترتيب الخطاب الدعوي ، لينصب – ابتداء – على تصحيح اعتقادهم في قضية البعث والحساب والجزاء حتى يتسنى بعد ذلك الانتقال لقضية الكتاب والمنهج ، فمن **آمن بالبعث أشفق على نفسه الحساب** ، ومع علم أنه سوف يحاسب على ما يعمل اتقى الله فيما عمل ، ومن ثم يسهل توجيهه فيما يعمله ومالا يعمله .

---

1) رواه البخاري ج11 ص 315 رقم 3235
2) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1500
3) تفسير النيسابوري ج3 ص 312 ومثله في ذلك الرازي في تفسيره
4) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج3 ص 120 رقم 5498
5) رواه الحاكم ج1 ص 91 رقم 101 وقال صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة ولم يخرجاه ، ومثله الذهبي

كما وصفت الآيات المرجو إيمانهم بالله وتصديقهم بالكتاب بأنهم هم الذين يحافظون على الصلاة لله ، قال النيسابوري (يعني أن **الإيمان بالآخرة كما أنه يحمل المكلف على الإيمان بالنبي وبالكتاب كذلك يحمله على المحافظة على الصلوات** ، وخصت "الصلاة" بالذكر —من جملة التكاليف الشرعية– لأنها عماد الدين وسنام الطاعات ، وكاد المحافظ عليها أن يأتي بأخواتها كلها ويجتنب المنكرات بأسرها)[1]، إذ لا يخلو دين من صلاة وزكاة ، ولذلك مهما بدل أهل الكتاب في دينهم ، فإنهم يعلمون أن عليهم صلاة وأنها من أعمال القربات إلى الله ، ولذلك قال النبي ﷺ (لا خير في دين لا ركوع فيه)[2].

المسألة السادسة : تهديد الظالمين المبدلين لشرع الله بعذاب البرزخ

قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ **أُوحِيَ إِلَيَّ** وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ **الظَّالِمُونَ** فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ **جِئْتُمُونَا فُرَادَى** كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) ونظير ذلك قوله تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا **لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا** إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) (الأنفال 31) ، من ذلك ما روي عن النضر بن الحارث كان يشتري كتبا فيها أخبار الأعاجم فكان يقول للعرب : محمد يحدثكم عن عاد وثمود **وأنا أحدثكم عن رستم و اسفنديار**)[3] .

قوله (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (93) وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (غمرات الموت) قال : (سكرات الموت)[4]، بوب البخاري بابا بعنوان بَاب مَا جَاءَ فِي **عَذَابِ الْقَبْرِ** وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ..)، وذكر بعده هذه الآية [5]، ونظيرها كقوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) [الأنفال: 50] ، قال البغوي أي:(**أرواحكم كرها**) ، لأن (نفس المؤمن تنشط للقاء ربها) [6]، أما **نفس الظالم فإنها تجزع ، وتتأبى أن تخرج طوعا** ، قال الرازي (هذا صريح أن النفس غير البدن)[7].

---

[1]) تفسير النيسابوري ج3 ص 312 ومثله في ذلك الرازي في تفسيره
2) رواه أحمد وأبو داود
[3]) شعب الإيمان للبيهقي ج4 ص 305
[4]) الدر المنثور ج4 ص 101
[5]) رواه البخاري ج5 ص 159
[6]) تفسير البغوي ج3 ص 169
[7]) تفسير الرازي ج10ص128

عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا **اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ** كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اخْرُجِي حَمِيدَةً **وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ** فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى **تَخْرُجَ** ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ مَنْ هَذَا فَيَقُولُونَ فُلَانٌ فَيُقَالُ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ **اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ** كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ **اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ** فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى **تَخْرُجَ** ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ مَنْ هَذَا فَيُقَالُ فُلَانٌ فَيُقَالُ لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَيُرْسَلُ بِهَا مِنْ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ)[1].

قال الشعراوي في قول الملائكة للظالمين حين الموت (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ) (كأن ملائكة قبض الروح تقول لهم : **إن كنتم متأبّين على الله** في كثير من الأحكام لقد تأبّيتم على الله إيماناً ، وتأبّيتم على الله أحكاماً ، وتأبّيتم على الله في تصديق الرسول ، فهاهو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، **فهل أنتم قادرون على التمرد** على مرادات الحق؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته في **التأبّي على قبض روحه**)[2] ، قال تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) **ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**)(مريم 69)

قوله (..الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ **بِمَا كُنْتُمْ** تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ **وَكُنْتُمْ** عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (93) **الإفتراء** على الله الكذب ، **والاستكبار** عن قبول آياته هما سببا لحوق عذاب الهون بهم .

قال ابن القيم (عذاب الهون المراد به **عذاب البرزخ** الذي **أوله** يوم **القبض والموت** ، ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهذه الاذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة فإنه معطوف على قوله (يضربون وجوههم وأدبارهم) وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه)[3]

قوله (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (94) قال القطان (**لقد تأكدتم الآن أنكم بُعثتم أحياء من قبوركم** ، كما خلقناكم أول مرة ، وجئتم إلينا منفردين عن المال والولد ، تاركين وراءكم في الدنيا كل شيء كنتم تغترّون به ، إننا لا نرى معكم اليوم أولئك الشفعاء الذين زعمتم أنهم ينصرونكم عند الله ، لأنهم شركاء له في العبادة . . . لقد تقطّعتْ بينكم وبينهم كل الروابط ، وخابت آمالكم في كل ما زعمتم ، فلا فداء ولا شفاعة ، ولا يغني عنكم من عذاب الله من شيء)[4].

---

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 314 رقم 4252 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج 2ص 420رقم 3437
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2642
[3]) مفتاح دار السعادة ج1 ص 43 ، التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 39
[4]) تيسير القرآن للقطان ج1 ص 486

قوله (..وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ..) أي (**ما أعطيناكم من الأموال والأولاد**)[1]، فعنِ السُّدِّيِّ، قَوْلَهُ:" " وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ "مِنَ الْمَالِ وَالْخَدَمِ"[2] ، والمعنى المراد إيصالهم عدم الحرص على الدنيا ، فالإنسان لابد وأن يغادر كل ما فيها ، يقول النبي ﷺ (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي قَالَ **وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**)[3]، وقَالَ ﷺ (يَقُولُ الْعَبْدُ **مَالِي مَالِي** إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ مَا أَكَلَ فَأَفْنَى أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى **وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**)[4]

قوله (..لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ..) قال رسول الله ﷺ (**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**)[5]، المشار إليه الأسباب الدنيوية التي كانت تربط الناس بغير الخالق سبحانه ، ولذلك يقول عز وجل (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ **وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**) (البقرة 166).

قوله (..وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) أي **لم ينفعكم شيء مما كنتم تعتزون به في الدنيا** ، فهو في الآخرة غير نافع ، كما في قوله (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) [الأحقاف:5، 6]، قال تعالى: (**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا** كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) [مريم:82، 81] .

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 446
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج 5 ص 327
[3]) رواه مسلم ج 14 ص 207 رقم 5258
[4]) رواه مسلم ج14 ص 208 رقم 5259
[5]) رواه مسلم ج14 ص 209 رقم 5260

المحور الثالث

تصحيح العقيدة وتأصيل حق الألوهية بمنهج دعوى بليغ

وفيه ثمانية مطالب بالإضافة إلى مطلب تمهيدي

مطلب تمهيدي "توطئة" : استظهار دلائل القدرة الإلهية كاف لإبطال شبهات الملحدين

المطلب الأول : سرد ضلالات المشركين في الاعتقاد

المطلب الثاني : تصحيح التصور عن الله

المطلب الثالث : ترشيد الجهد الدعوى إزاء عناد المشركين مجادلتهم

المطلب الرابع : إظهار شعار الإسلام أبلغ وسيلة لتصحيح التصور الاعتقادي في الله

المطلب الخامس : الرسل حجة الله علي قومهم

المطلب السادس : مناظرة المشركين في مسألة أن التشريع حق خالص لله ولا لأحد سواه

المطلب السابع : إرشاد الناس للصراط المستقيم باستظهار علة التحريم

المطلب الثامن : استمرار توارث الدعوة رغم صدوف المكذبين وتشيعهم فرقا

مطلب تمهيدي

توطئة : استظهار دلائل القدرة الإلهية كاف لإبطال حجج الملحدين

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ **فَالِقُ** الْحَبِّ وَالنَّوَى **يُخْرِجُ** الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ **وَمُخْرِجُ** الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) **فَالِقُ** الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ **سَكَنًا** وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ **حُسْبَانًا** ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ **النُّجُومَ** لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ **يَعْلَمُونَ** (97) وَهُوَ الَّذِي **أَنْشَأَكُمْ** مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ **يَفْقَهُونَ** (98) وَهُوَ الَّذِي **أَنْزَلَ** مِنَ السَّمَاءِ مَاءً **فَأَخْرَجْنَا** بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ **فَأَخْرَجْنَا** مِنْهُ خَضِرًا **نُخْرِجُ** مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ **انْظُرُوا** إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ **يُؤْمِنُونَ**) (99)

لما ذكر الله تعالى أن الذين يؤمنون بالآخرة هم الذين يؤمنون بالقرآن **كان مقتضى ذلك** أن ينشغل الدعاة في سبيل الله تعالى بتعريف الناس بركن من أركان الإيمان وهو الإيمان بالآخرة ، وعندئذ يكون الإيمان بالقرآن تبعا للإيمان باليوم الآخر ، **لكن لما كان أمر الأخرة من الأمور الغيبية** ، وكان أمر الكتاب هو إيمان بما هو مشاهد ، وقد يكون تبليغ الناس بأمور الآخرة أصعب من تبليغهم بأمر الكتاب ، **ظهرت الحاجة** لأن يصور لنا القرآن أمور الآخرة لاسيما البعث بأمور نشاهدها بأعيننا ليُقَرِّب تصوير أمر الآخرة لآذهان الناس ، فكان في تنزيل هذه الآيات **شرحا وافيا** لإثبات قدرة الله تعالى على البعث بدلالة قدرته سبحانه على تدبير أمور الدنيا ، ولذلك قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) ، أي يفلق الحب ليخرج منه نباتا أخضرا ويفلق النوى فينبت منه الشجر .. وهكذا .

فتضمنت الآيات أبلغ رد من الله تعالى على **الملحدين** الذين ينكروا وجود الله سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث ، كما أنها **تدرجت** معهم رويدا رويدا لتنقلهم من لحظة **التكذيب** وعدم الإيمان المقترن بالإفك **والافتراء** لتدحض افتراءهم ثم تحملهم إلى التأمل **والتفكر** في تقدير الله وتدبيره للكون ثم تأطرهم جميعا إلى مرحلة **العلم** ، حيث يفصل المولى الآيات الدالة علي قدرته تفصيلا كافيا ، فتكون شاهدة على أن الله سبحانه وحده هو المتصرف في هذا الكون وهاديه ، لينتقل الشاك إلى مرحلة **الفقه** والفهم عندما يتفكر في الخلق ونشأته وقد علم أن الله لم يخلق ذلك عبثا ، ولم يأت شيء إلى الكون مصادفة ، وحينما يدقق النظر بكل صنعة أبدعها الرحمن وكل نبتة صورها وخلقها عندئذ **يستقر الإيمان في قلبه** .

قوله (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ) (95) **تشهد هذه الآية بقدرة الله تعالى على البعث والإحياء** ، قال ابن عجيبة أي : (يفلق **الحب** تحت الأرض لخروج النبات منها ، ويفلق **النوى** لخروج الشجر منها)[1]، قال الرازي (إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ، ثم مر به قدر من المدة أظهر الله تعالى في تلك الحبة والنواة من أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً آخر ، أما الشق الذي يظهر في أعلى الحبة والنواة فإنه يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء ، وأما الشق الذي يظهر في أسفل تلك

[1]) البحر المديد ج2 ص 177

الحبة فإنه يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة ، وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة في الهواء بالشجرة الهابطة في الأرض)[1]

والمقصد من ذلك أن يتفكر الإنسان في طعامه الذي هو بحاجة له كل يوم ، (**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ** * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا) (عبس 24-28) ، قال أبو حيان قوله : "فالق الحب والنوى" من **جنس إخراج الحيّ من الميت** لأن النامي في حكم الحيوان ألا ترى إلى قوله : (يحيي الأرض بعد موتها)[2] ، قال ابن عاشور (**فلق الحب ينشأ عنه إخراج الحي من الميت**)[3] ، أي أن ذلك كله توطئة للمتفكر في أن يؤمن بالبعث بعد الموت .

قوله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)(95) قال الشعراوي (فالشيء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره **ميتاً** لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شيء في الوجود له حياة)[4] ، فالموت هنا معنى **مجازي** لأن **الحبة ليست بميت** كما أنها ليست بالحي،وإنما **بها مقومات الحياة** التي أستودعها الله فيها

---

[1]) تفسير الرازي ج6 ص 384 واستطرد قائلا : (ثم إن ههنا عجائب : فإحداها : أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضي الهوى في عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء؟ وإن كانت تقتضي الصعود في الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة في الأرض؟ فلما تولد منها هاتان الشجرتان مع أن الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى ، علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية ، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع . وثانيها : أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة ، فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم . وثالثها : أنه يتولد من تلك النواة شجرة ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإن قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة وفي وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف يشبه العهن المنفوش ، ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ويتولد على الأغصان الأوراق أولاً ، ثم الأزهار والأنوار ثانياً ، ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر ، وتحت ذلك القشر الذي يشبه الخشب ، وتحته ذلك القشر الذي هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحته ذلك اللب ، وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف هو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف وهو الدهن ، وهو المقصود الأصلي ، فتولد هذه الأجسام المختلفة في طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها مع تساوي تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة والطبائع الأربع ، يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر لا بتدبير الطبائع والعناصر . ورابعها : أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة في الفاكهة الواحدة ، فالأترنج قشره حار يابس ، ولحمه بارد رطب ، وحماضه بارد يابس ، وبذره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه بارد يابس ، وماؤه ولحمه حار رطب ، فتولد هذه الطبائع المضادة والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة لا بد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار . وخامسها : أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب في الداخل والقشر في الخارج كما في الجوز واللوز وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة في الخارج ، وتكون الخشبة في الداخل كالخوخ والمشمش ، وبعضها يكون النواة لها لب كما في نوى المشمش والخوخ ، وبعضها لا لب له ، كما في نوى التمر وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر ، بل يكون كله مطلوباً كالتين ، فهذه أحوال مختلفة في هذه الفواكه وأيضاً هذه الحبوب مختلفة في الأشكال والصور فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان اتصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحمص على وجه آخر ، فهذه الأشكال المختلفة ، لا بد وأن تكون لأسرار وحكم علم الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل ، وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ومنفعة أخرى وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاء لحيوان وسماً لحيوان آخر ، فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال مع اتحاد الطبائع وتأثيرات الكواكب يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم . وسادسها : أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت خطاً واحداً مستقيماً في وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان ، وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة يمنة ويسرة في بدن الإنسان . ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب أخر ، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار بسبب الصغر ، فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطاني خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر والخالق تعالى إنما فعل ذلك حتى أن القوى الجاذبة المركوزة في جرم تلك الورقة تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجاري الضيقة ، فلما وقفت على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة الواحدة علمت أن عنايته في تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايته في تكوين جملة النبات أكمل .

[2]) أبو حيان البحر المحيط ج5 ص 220

[3]) التحرير والتنوير ج6 ص 231

[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2646

قال الشيخ طنطاوي والمعنى : (أن الله وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامى ، ويشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية ، وفى ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التى لا تحد ، وعلى أنه هو المستحق للعبادة لا غيره)[1] .

وهذا المعنى ظاهر في الحيوان والنباتات ، **فجنين الحيوان** يتغذى في بطن أمه على مواد أولية مما تتغذى عليه الأم ، وهذه المواد تتحول بقدرة الله تعالى إلى كائن حي ثم يتحول بعد ذلك إلى مولود جديد ، وكذلك النباتات ، **فالحبة** تتغذى في التربة على **مواد أولية** وأملاح ومعادن وماء ثم هي تبدأ في الانفلاق كما ذكرت الآية السابقة فينبت من أسفلها الجذر وينبت أعلاه الساق والورق والثمر ، ثم يتغذى هذا النبات على ثاني أكسيد الكربون ليقوم بعملية البناء الضوئي كما نعلم ، وهكذا يكون المقصود مثل (أن يخرج الإنسان من النطفة ، والدجاجة من البيضة ، ويخرج النبات من الأرض ويخرج النطفة من الإنسان)[2]

يقول الدكتور زغلول النجار أن (هذه الآية تشير إلى قدرة الله تعالى على **خلق الأحياء من المواد الأولية** التي أوجدها مع بدء خلق الكون ، وهي **مواد ميتة لا روح فيها ولا حياة** ، وبعد انتزاع الروح من الكائن الحي يعود جسده إلى تلك المواد الأولية التي بدأ خلقه منها ، وهي عمليات مستمرة إلى قيام الساعة ومنضبطة بسنن كونية)[3] .

وقال آخرون (إن الله يخرج من ظهر الفاجر أو الفاسق عالما) ، روي عن عُمَر قَالَ:" " يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ " ، يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ"[4] فتأمل سبحان الله .

وفي قوله (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) عن مجاهد قال (الناس الأحياء من النطف **والنطفة ميتة** تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضاً) [5].

وقال آخرون المقصود مادي ملموس ، وضربوا لذلك الأمثلة منها (حال إثمار النبات والشجر، وإخراج البيض واللبن والمسك واللؤلؤ وحجر"البازهر"من بواطن الحيوان الحي)[6]، وهذا الذي يخرج من الكائن الحي فيه نفع للناس.

---

[1]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1505

[2]) أبو القاسم الحسين بن محمد : المفردات في غريب القرآن ج1 ص 140
ويقول « فرانك أللن » العالم في الطبيعية :« إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية . فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها ، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار ، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام ، فيكون في ذلك تتابع الفصول ، الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة . ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ، ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على 500 ميل) » .« ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا ، منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية . والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها . والمطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة . ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة »
في ظلال القرآن ج3 ص 108

[3]) فضيلة الدكتور زغلول النجار : تعليقه على الآية 19 سورة الروم : الموقع الالكتروني

[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 330

[5]) الدر المنثور ج4 ص 103

[6]) انظر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج6 ص 231

والعلماء عندما تأملوا هذه الآية وبحثوا عن الشيء العجيب فيها ، كما وجدوه في إخراج الحي من الميت ، وجدوا أن ثمة أمور لو تفكر فيها الإنسان لازداد دهشة وتعجبا ، فتوصلوا إلى أن جهاز الإخراج لديه يخرج من جسمه سموما لو ظلت في جسده لافسدته ومات ، فكيف يخلصه الله منها بقدرته سبحانه ؟

فمن المعلوم أن **الجسم يطرد العديد من السّموم المتراكِمة** بشكلٍ ذاتيّ عن طريق **الكبد** والأجهزة **الهضميّة والتنفسيّة والبولية والتعرّق)**[1]، ويُعدّ الكبد أكبر عُضوٍ مسؤول عن التخلُّص من السّموم في جسم الإنسان، فكلّ مادّةٍ تدخل الجسم من أيّ مكان حتّى الجلد تمرّ عبره، ويُحوّل **الكبد** الموادَّ السّامة إلى عناصر قابلة للذّوبان في الماء؛ ليستطيع الجسم إخراجها مع البول أو البراز، كما تُخلّص **الكليتان** الجسم من السّموم النّاتجة عن الأدوية والموادّ الكيميائيّة الأخرى؛ حيث تصفّيان الدّم، وتُخرِجان السّموم مع البول ، وتُخلّص **الأمعاء** الجسم أيضاً من كميّات كبيرة من السّموم الصّلبة، ويتمّ ذلك عن طريق من خلال عملية الهضم أو البكتيريا النّافعة الموجودة في الأمعاء؛ حيث تحلّل هذه البكتيريا الموادّ غير المهضومة، فتتخلّص الأمعاء من كميّات كبيرة من الدّهون والمعادن الثّقيلة داخلها، ويتخلّص الجهاز **التنفسيّ** بدوره من الغازات السامّة في الجسم، وذلك عن طريق عملية التنفس، أمّا **الجلد** الذي يُعدّ أكبر جهاز مناعة ودفاع أوَّليّ للجسم، فإنّ الغُدد **العرقيّة** فيه تُفرِز العرق المحتوي على موادّ سامّة من مخلّفات عمليّات الأيض القابلة للذّوبان في الماء، مثل: موادّ اليوريا، وحمض البوليك)[2].

وقد لاحظ فاضل السامرائي الفارق بين قوله تعالى (يخرج) ، (مخرج) فقال (استعمل لفظ (يخرج) مع الحي والحركة ، و(مخرج) اسم فاعل مع الميت)[3]، قال تعالى (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة 28]

1) ""Detoxes" and "Cleanses": What You Need To Know", nih, Retrieved 27/4/2022. Edited.
2) "ORGAN SYSTEMS: DETOXIFICATION", vetmed, Retrieved 27/4/2022. Edited.
3) لمسات بيانية : يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي : قناة الشارقة - فاضل السامرائي

وصدق الله إذ قال (..ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)(95) الإفك معناه : (الكذب المتعمّد)[1] ، والمعنى **أن الذي ينكر قدرة الله في البعث هو كاذب متعمد** ، إذ كيف يظل "الملحد" على إلحاده والله ينجيه كل يوم من تلك السموم التي لو أمسكها فيه لما استطاع أن يظل على إفكه ونشر إلحاده[2] .

دخل ابن السماك على الرشيد يوماً فبينما هو عنده إذ استسقى ماء، فأتى بقلة من ماء– وفي الإحياء: فقال لابن السماك عظني– فلما أهوى بالماء إلى فيه ليشربه قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة فبكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال: اشرب، هنأك الله، فلما شربها، قال له: أسالك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك فبماذا كنت تشتريها، قال: بجميع ملكي، قال ابن السماك: إن ملكاً قيمته شربة ماء وبولة لجدير ألا ينافس فيه! فبكى هارون).[3]

قوله (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(96) عن ابن عباس في قوله (فالق الإصباح) قال : (يعني بالإصباح ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل)[4] .

الإصباح هو وقت الصبح ، وهو قبيل طلوع الشمس ، أي قبل طلوعه وقريب من ذلك ، حيث يسبق ضوء النهار طلوع الشمس فيفلق ظلمة الليل ، كما قال الشاعر

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي . . . بصبح وما الإصباح منك بأمثل

يستظهر المولى أية أخرى تدل على قدرته في تدبير الكون ، ليقسر الملحد علي أن ينتقل من مرحلة الإفك والكذب المتعمد إلى مرحلة التفكر في تقدير العزيز العليم لو أنه تفكر في هذه الآية ، فعندما يتأمل **كيف تسير دورة الكون ابتداءً من طلوع الفجر** حيث يفلق ضوء الصبح ظلمة الليل ، وذلك كل يوم جديد ، فإنه لابد وأن يعلم أن البعث مثل ذلك ، وليس بعيي على الله أن يحيي الموتى ، كما أحيا الصباح بعد سكون ليل حالك.

قوله (..وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا..) أي جعل الليل ظرفا زمانيا لتأوي الكائنات إلى أوكارها ، **حيث يعود للكون السكون والظلام** من مرة أخرى بعد نهار طويل مملوء بالنشاط والحيوية ، حتى تستريح الكائنات النهارية من تعب العمل ونصب السعي للرزق بما يتوافق مع ساعتها البيولوجية .

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2648

[2]) فالكلية التي تقوم بتنقية الدم من السموم تحتوي على مليون وحدة تنقية تسمى النيفرونات ، وتقوم بإخراج أنواع الفضلات التي تنتجها خلايا الجسم نتيجة التفاعلات الكيميائية والعمليات الحيوية التي تجري بلا انقطاع أو ما يسمى "الأيض" أو "الاستقلاب" metabolism ، وتنقسم الفضلات إلى نوعين رئيسين : إما فضلات كربونية وأهمها ثاني أكسيد الكربون وتخرج من الرئتين ، أو فضلات نيتروجينية وأهمها اليوريا والأمونيا وحامض اليوريك والكريتانين وتخرج من الكلى ،

[3]) وردت هذه القصة في كتب التاريخ مثل تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الخلفاء للسيوطي

[4]) الدر المنثور ج4 ص 104 ورواه البخاري ج21 ص 329 رقم 6467

وفي قوله (..وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(96) أي أن حركة الشمس والقمر بحساب محكم ، قال الرازي (حساب الأوقات لا يعلم إلا بدورهما وسيرهما)[1] قال الشعراوي (لم يقل (بحسبان) لأنها هي في ذاتها حساب وليست محسوبة ، أي أن حسابها آلي) [2] ، وهكذا تظهر الشمس صباحا والقمر ليلا في أوقات معينة وبحساب محدد وتقدير محكم ، ليتفكر الملحد في تقدير الله، ألذي يفعل ذلك قادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم ؟

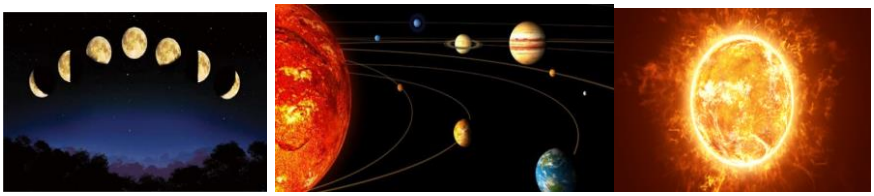

قال إسماعيل حقي (إنه تعالى قدر **حركة الشمس** بمقدار من السرعة والبطئ بحيث تتم دورتها فى سنة وقدر **حركة القمر** بحيث تتم الدورة فى شهر ، وبهذا التقدير **تنتظم المصالح** بالفصول الأربعة كنضج الثمار وأمور الحرث والنسل ونحو ذلك مما يتوقف عليه قوام العالم وباختلاف منازل القمر وتجدد الأهلة فى كل شهر تُعلم آجال الديون ومواقيت الأشياء)[3]

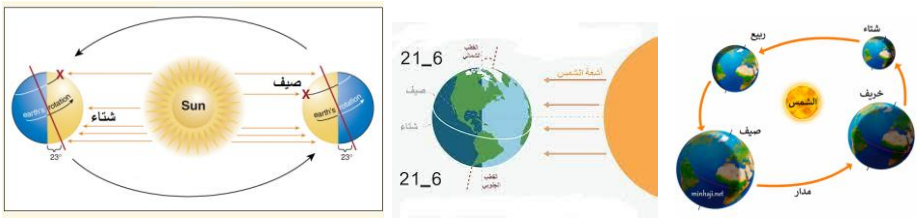

قال العلماء في تفسير ظاهرة تغير الفصول الأربعة **أنها تعتمد علي ميلان محور الأرض**، حيث إن للأرض محوراً وهمياً يقطعها من نقطة القطب الشمالي إلى نقطة القطب الجنوبي مروراً بمركزها ، وافترضوا أنه من الممكن أن يعمل هذا الميلان مع دوران الأرض حول الشمس في **اختلاف زاوية الأشعة الساقطة على الأرض**، ومن ثم في **اختلاف الأحوال المناخية** طوال العام، لتتشكّل بذلك ملامح الفصول المختلفة.

[1]) تفسير الرازي ج6 ص 392
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 424
[3]) تفسير حقي ج3 ص 495

فالثابت علميا أن الأرض تدور حول الشمس مرة كل 365 يوماً تقريباً بمحور مائل، فيتسبب هذا الدوران مع ميلان محورها إلى اختلاف كمية الأشعة الواصلة إلى نصفي الكرة الشمالي والجنوبي ، ومن العوامل المهمة لحدوث هذه الظاهرة **ثبات محور الأرض في ميلانه**، بمعنى أنه يميل في اتجاه واحد طوال دورته حول الشمس، ونتيجة لهذا الثبات، فإن القطب الشمالي يكون مواجهاً للشمس في إحدى مراحل الدورة ليحظى النصف الشمالي بنصيب وافر من الأشعة الشمسية، وبالتالي **يحدث الصيف في النصف الشمالي والشتاء في النصف الجنوبي** ، وبعد نصف دورة حول الشمس وبسبب ثبات المسألة في اتجاه ميلانه، يكون القطب الشمالي غير مواجه للشمس فيما يكون القطب الجنوبي هو المواجه، وبالتالي **يحدث الصيف في النصف الجنوبي والشتاء في النصف الشمالي**، وفي أثناء تحرك الأرض بين هاتين النقطتين تحدث الفصول الانتقالية وهي الربيع والخريف)[1].

(فلو فرضنا – جدلا – دوران الأرض حول الشمس بمستوى عامودي ، فإن مؤدى ذلك إختفاء ظاهرة الفصول المتتالية ، وستثبت الأحوال المناخية على حالها طوال العام، حيث ستسقط أشعة الشمس بشكل عامودي على خط الاستواء طوال العام، وبالتالي ستكون هناك مناطق صيفية دائمة، ومناطق شتوية دائمة، ومناطق انتقالية فيما بينهما، كما سيتساوى طول الليل والنهار في أي مكان على سطح الأرض كون الأشعة الشمسية تسقط عامودية بذات الدرجة على منتصف الأرض طوال العام، مما يخل بنظم الطقس والمناخ على الأرض، فتفاوت الفارق الحراري بين المناطق على دوائر العرض المختلفة سيعمل على خلق فارق كبير في مقدار الضغط الجوي ، ومن ثم في سرعة الرياح وأنماط الهطول، مما يعني أن أحوال المناخ ستكون كارثية)[2].

قوله (..ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(96) تذييل الآية ، كقوله تعالى (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) [الفرقان: 2] ، وقد عقب ابن الجزي عليه فقال (ما أحسن ذكر هذين الإسمين هنا لأن **العزيز** يقلب كل شيء ويقهره ، وهو قد **قهر الشمس والقمر** وسخرهما كيف شاء ، **والعليم** لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة)[3].

فكل شيء مقدر في هذا الكون لحكمة ، ولا شيء يسير عرضا أو مصادفة ، من ورقة الشجر التي تسقط على الأرض إلى الشمس والقمر الذين يجريان بحسبان كل ذلك بتقدير العزيز العليم ، يقول الشعراوي (**فالكَوْن من يسير بأمر خالقه ، منضبطًا لا يتخلف عن أمره** ، دليل ذلك أن السنة الشمسية 365 يوما تقريبا ، وفي كل يوم تطلع الشمس من مطلع معين ، ومعلوم دورة الفلك الميلادية 28 سنة ، يتكرر خلالها أيام الأسبوع بنفس تواريخ الأشهر الميلادية تماماً)[4].

---

1) Solar Energy Engineering:Processes and Systems,Soteris A. Kalogiro
Tilt Angle for Solar Panels:Interface for Determining Parameters
Jacobson, Mark Z. (2005). Fundamentals of Atmospheric Modeling (2nd ed.). Cambridge University Press

2) جاسم البناي : https://qafilah.com/ar/ محور الكرة الأرضية ؟ وتأكدت من هذه المعلومات من ابني الباحث / عبد المؤمن أحمد نصير - ماجستير في علوم الفضاء

3) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 448

4) أ. م. قاسم حسين علاوي الراوي- قسم الرياضيات- الدورات الفلكية وعلاقتها بالتقويم الميلادي- جامعة الأنبار : كلية التربية للعلوم الصرفة - العراق
https://epscollege.uoanbar.edu.iq/News_Details.php?ID=446

وقد سجل العلماء خلالها كل الظواهر ،فإذا رصدت مطلع الشمس في يوم من أيام السنة ، ثم جئت السنة التي تقابلها في الدورة الفلكية لترصد مطلعها في ذات اليوم لوجدتها تطلع من ذات المطلع ، أي في ذات اليوم وذات المكان بدقة متناهية ، فسبحان الخالق ، ومن ذلك حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئي أو حَلْقي ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً في ذات موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه؛ ولا تدخلُ لنا فيه) [1]، **فالذي قدر على كل ذلك** وأعاد الأيام والأسابيع هي ذاتها والظواهر الكونية في ذات ميعادها ، **ألا يقدر على أن يبعث البشر بعد موتهم**.

قوله (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (97) جعل الله النجم وسيلة السائر في الصحراء والبحر ليهتدي به في الليل فيعرف الطريق ، وذلك لا يتأتى إلا عن دراسة لمواقعها ومعرفة بأشكالها ، (**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**) ، فالذي يقدر على الاهتداء بالنجم ليعرف الطريق ألا يقدر على الاهتداء بها ليعلم أن الله هو الذي حدد للنجم موقعه ومسلكه ، هو العليم القدير.

تخيل لو أن **تائها في الصحراء** لا يعرف الاتجاهات ، وكذلك تائها في البحر لا يعرف الشمال من الجنوب كيف يسير وإلى أين يهتدي ، يقول الدكتور الدوغان: «لا نستطيع أن نتصور أهمية النجوم في الاستهداء عند العرب، إلا إذا تمثلنا رهبة الصحراء، وشح الماء، وانعدام المعالم، وانقطاع الطريق، وبعد الشقة، وتوهج الحرارة أو شدة البرودة، حينئذ نعرف كيف تمثل لهم النجوم، وكيف تصبح هي المعالم والأدلة التي لا تخطئ، والسراجات التي تضيء الطريق؟ وكم كانوا – حين يتيهون في أسفارهم – يسرون بصفاء السماء ، وكم كانوا يحزنون إذا غامت وانطمست معالمها، لأن ذلك يؤدي إلى المتاهة المحققة والهلاك المؤكد. ولذا سموا الصحراء المهلكة)[2]

آلَ المظفَّرِ أنتمُ النجمُ الذي .. لا يهتدي البازي —الصقر– بغيرِ ضِيائِهِ[3]

فمن الذي رتب النجوم على تلك الأشكال التي يعرفها العلماء ، ويحسبون بها سحاباتهم الفلكية ، لا شك أنه الله

قال صاحب الظلال (**الاهتداء بالنجوم** في ظلمات البر والبحر يحتاج **إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها** ... كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم . . فالاهتداء هو الاهتداء في الظلمات الحسية الواقعية ، وفي ظلمات العقل والضمير . . **والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي ، ثم لا يصلون ما بين دلالتها**

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5834
2) الدكتور محمد بن أحمد الدوغان، كتابه «الفلك، رؤية أدبية في التراث الفلكي العربي»، دار أروقة، الطبعة الأولى 2014.
3) دواوين الشعر العربي ج33 ص 183 – ديوان سبط ابن التعاويذي ج1 ص 475

ومبدعها ، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه ، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم . .)[1]، ولذلك قال الرسول ﷺ (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديم اهتديتم)[2].

قوله (..قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (97) فهذه آيات كونية مفصلة لمن تدبر وتفكر وتعلم ، فلابد وأن يهتدي بهذه الآيات إلى صراط الله المستقيم .

قال الشاعر : –

وما الناس دون العلم إلا بظلمة .. من الجهل لا مصباح فيها ولا نجم

فهل يهتدي إلا بنجم سمائه ... إذا ما بدا من أفقه ذلك النجم

فهذا أوان القبض للعلم فلينح.. عليه الذي في الحب كان له سهم

فليس بمبقى العلم كثرة كتبه ..فماذا تفيد الكتب إن فقد الفهم[3]

قال طنطاوي أي (لقوم يعلمون **وجه الاستدلال بها فيعلمون بموجب علمهم** ، ويزدادون إيمانا على إيمانهم)[4].

قوله (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (98) عن ابن عباس في قوله (فمستقر ومستودع) قال : ("**المستقر** " ما كان في الرحم ، وقال تعالى (وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى) ، و"**المستودع**" ما استودع في أصلاب الرجال والدواب)[5] ، روى الحاكم عن ابن عباس قال (المستقر في الرحم والمستودع في الصلب)[6] .

وعن ابن مسعود قال : (المستقر الرحم ، و"**المستودع**" المكان الذي تموت فيه)[7] ، قال تعالى(وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ) ، قال الألوسي (أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض **واستيداع في الأرحام أو في القبر أو موضع استقرار**)[8] .

---

1) في ظلال القرآن ج3 ص 109

2) جامع الأصول في أحاديث الرسول ج8 ص 556 رقم 6369 وضعفه الالباني لأن معناه ليس بصحيح بإطلاق ، لأن بعض الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ ، كخطأ عمر في تفسير الرؤيا ...وهكذا ، لكن معناه العام جائز الاستشهاد به في الاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم

3) دواوين الشعر العربي ج90 ص 6 ديوان ابن مشرف ج1 ص 80

4) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1508

5) الدر المنثور ج4 ص 108

6) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 552 رقم 3877 وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتابعه الذهبي وصححه

7) المعجم الكبير للطبراني ج9 ص 208 رقم 9035 - الدر المنثور ج4 ص 109

8) تفسير الالوسي ج5 ص 450

قال ابن عطية : (والذي يقتضيه **النظر** أن ابن آدم هو مستودع في ظهر أبيه ، وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل لا محالة ثم ينتقل إلى الرحم ثم ينتقل إلى القبر ثم ينتقل إلى المحشر ثم ينتقل إلى الجنة أو النار ، فيستقر في أحدهما استقراراً مطلقاً ، .... **وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الظرفين « مستقر » بالإضافة إلى التي قبلها و« مستودع » بالإضافة إلى التي بعدها** لأن لفظ الوديعة يقتضي فيها نقلة ولا بد)[1]

أي أن ماء الرجل الذي هو مستقر في صلبه هو ذاته مستودع لكثير من النطف ، فإذا ما انتقل إلى المرأة بالزواج والاتصال بالأنثى ولقح بويضتها عندئذ يتكون منهما المشيج المسمى بـ (الزيجوت) ثم يتطور ليكون جنينا مستقرا في رحم الأنثى ، فيكون مستقر في الرحم ومستودع فيها إلى مرحلة الولادة ، وتلك المراحل مذكورة في قوله تعالى(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف 189) ، ثم إذا استقر في الأرض وأمضى حياته الدنيا ثم انتقل إلى القبر كان القبر مستودعه إلى الآخرة .

وفي قوله تعالى (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) يقول الشيخ الشعراوي (والتفصيل يعني أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة؛ لأن الأفهام مختلفة ، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة ، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف **كل تفصيل حالة من حالات النفس البشرية**؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً ألا يفقه ، ولم يترك لأحد مجالاً ألا يتعلم)[2].

ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف مرة (لقوم يعلمون) ، ومرة (لقوم يفقهون) .. أراد الحق في قوله : "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" الدعوة للنظر في آيات **خارجة** عن ذات الإنسان (الشمس والقمر والنجوم) ، وهنا في قوله سبحانه : "لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ" لفت للنظر والتدبر في آيات **داخلة** في ذات الإنسان)[3].

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (99) تحمل هذه الآية الإنسان التفكر في خلق الله وتقديره وتدبيره للكون ، ما يحمله على الإقرار بالإيمان بالله تعالى ،فشأن التفكر في خلق الله تعالى عظيم ، **والتفكر هو أقصر الطرق للاستدلال على الله تعالى.**

قال أبو حامد الغزالي (**الفكر فهو أشرف العبادات** إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين **أحدهما** زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة ، **والثاني** زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله، فيحصل من الفكر المعرفة ، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة ، فالمحبة سببها المعرفة)[4].

---

[1]) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز ج2 ص 450
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2655
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2655
[4]) إحياء علوم الدين ج1 ص 336

قال ابن الجوزي (تأملت على أكثر الناس عاداتهم فإذا هي "**عادات**" ، فأما أرباب **اليقظة** فعاداتهم عبادة حقيقية ، فإن الغافل يقول سبحان الله "عادة" ، والمتيقظ لا يزال **فكره** في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق ، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: **سبحان الله**)[1].

(ولو أن إنسان تفكر في رمانة ، فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم ، وجعل الغشاء عليه يحفظه، وتصوير الفرخ في بطن البيضة ، والآدمي في حشا الأم ، إلى غير ذلك من المخلوقات، لأوعزه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال: سبحان الله، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر؛ فهذا تسبيح المتيقظين)[2].

قوله (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ..) قال أبو حيان (أشار إلى أن السبب واحد والمسببات كثيرة)[3]، وهذا يذكرنا بقوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء 30) ، فهذه الآية وحدها كافة وشاهدة على الخالق القدير ، لاسيما وأن الماء يمثل من 70 _ 90 % من جسم الإنسان البالغ ، بل إنه ليشكل ما يقرب 99 % من الجسم الزجاجي للعين ، و90 % من الدم و79% من القلب و75% من العضلات و75% من المخ ، و30 % من العظام و 1.8 % من مينا الأنسان ، ويساعد الماء على امتصاص الغذاء من الأمعاء ومرونة وليونة الجلد وامتصاص الصدمات داخل الأعضاء والحبل الشوكي ، وموازنة درجة حرارة الجسد ، كما يساعد على طرد السموم من الجسد ، وتنشيط الدورة الدموية والمحافظة على الطاقة والحيوية ، وتعزيز الجهاز المناعي[4] .

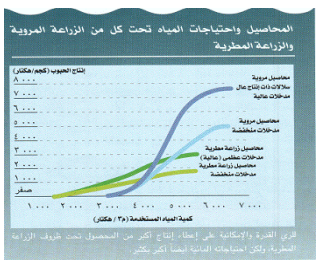

[1]) صيد الخاطر ج1 ص 134
[2]) صيد الخاطر ج1 ص 134
[3]) البحر المحيط ج5 ص 225
[4]) معلومات متوافرة للكافة

كما تعتبر الزراعات التي تعتمد على الأمطار الأصل فى الزراعة لأنها تمثل 83 % من زراعات العالم، فى حين تمثل الزراعات المروية 17% فقط [1].

قوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) فرق الشعراوي بين أخضر وخَضِرًا فقال (« خضرا » فيها أشياء كثيرة؛ فيه « لون » متعلق العين ، و« غضاضة » نعرفها بالحس ، وفيه "نعومة" نعرفها باللمس)[2]، فعلماء النفس يرشحون اللون الأخضر لإراحة النفس فهو يبعث السرور ويضيف البهجة والفرح والأمل ، ولذلك تجد الطبيب في العمليات الجراحية يرتدي اللون الأخضر لأنه يوحي بالطمأنينة والهدوء ، فسبحان الذي زين الأرض باللون الأخضر .

وقوله تعالى (نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا) دعوة أخرى للنظر إلى تفاصيل النبات الأخضر الذي يخرج الله منه الحب: وهو ثمر النبات، كالبر والشعير ، والنظر إلى انتظامه بشكل هندسي عجيب ، فقوله (متراكبا) المتراكب: الملتصق بعضه على بعض في السنبلة، مثل القمح وغيره .

قال ابن الجوزي ("حبا متراكبا" كالسنبل) 3 ، فمن الذي ركبها على هذه الهيئة ، فسبحان الله .

وقوله (وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ) يشحذ الذهن للنظر ف طلع النخل والتأمل في منظره ، والتفكر في صنع الله ، فالطلع أول ما يخرج من ثمر النخل)[4] ، قال ابن الجوزي (القنوان عذوق النخل)5 ، وفي المعجم (هو العذق بما فيه من الرطب) [6]، قال ابن عاشور (والقنو: عرجون التمر، كالعنقود للعنب، ويسمى العِذق ويسمى الكِباسة)[7] (القنوان هو الفرع

---

[1]) منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة / https://www.fao.org/land-water/solaw2021/facts/ar/
الدكتور نادر نور الدين ، اليوم السابع الجمعة 5 يونيو 2020 العدد 48759 سنة 144 ، https://gate.ahram.org.eg/daily/News/203405/4/765359/
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2658
[3]) ابن الجوزي : تذكرة الأريب تفسيري الغريب ج1 ص 164
4) عبد الله بن أحمد بن علي الزيد : مختصر تفسير البغوي : معالم التنزيل
[5]) ابن الجوزي : تذكرة الأريب تفسيري الغريب ج1 ص 164
[6]) معجم ألفاظ القرآن الكريم ص 915
[7]) التحرير والتنوير ج6 ص 240

الصغير ، وفي النخلة هو العذق الذي يحمل الثمر)[1] ، قال ابن منظور (العَذْقُ كل غصن له شُعَب)[2]، دانية (أي قريبة المتَناوَلِ والقِنْوُ الكباسة)[3]

فعن أبي أمامة بن سهل عن أبيه قال : أمر رسول الله ﷺ بصدقه فجاء رجل من هذا النخل بكبائس ...) [4] جاء في المعجم "كَبائس" (جمع كِباسة وهو العِذْق التامُّ بشماريخه ورُطبه) [5]، فهذه الصورة التي يصفها القرآن للنخل تثير الدهشة والاستعجاب بعدما لفت انتباهنا إلى تراكيب الحب في السنبلة واصطفافه بعضه فوق بعض بشكل يحمل على التأمل فيه ، ثم يصف هنا فروع النخلة التي تحمل التمر ، وهي تتدلى من فروع متعددة وتحمل أوزانا من التمر دون أن تنقطع ، كيف ذلك ؟ سبحان الله الذي خلقها .

قوله تعالى (وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) هذا تنوع بين ثمار شتى من عدة وجوه ، اللون والمذاق والمضغ ، فالعنب يتميز بأن طعمه حلو المذاق ، وبه مزازة ، والزيتون مذاقه لاذع شيئا ما ، وليس بحلو وفيه مرارة ، والرمان لاذع حلو ، كذلك في اللون ، فإن العنب أخضر وأحمر وأسود ، والزيتون أخضر وأصفر وأسود ، والرومان أحمر ، قال ابن الجوزي (مشتبها في المنظر وغير متشابهة في الطعم)6 ، فسبحان الله .

و"المشتبه" الملتبس بحيث يختلط بعضه ببعض في الظاهر وهو مختلف عنه في الحقيقة [7]، ويقصد به التشابه بين النوع الواحد من الثمار ، وعدم التشابه في الصفات ، فعلى سبيل المثال هناك أكثر من 1000 صنف من الزيتون متشابهة في

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 111
[2]) لسان العرب ج10 ص 238
[3]) لسان العرب ج15 ص 201
[4]) رواه الحاكم في المستدرك ج1 ص 559 رقم 1462
[5]) لسان العرب ج6 ص 190
[6]) ابن الجوزي : تذكرة الأريب تفسيري الغريب ج1 ص 164
[7]) أفاد شدة الالتباس ، الشيخ صالح التركي : https://www.youtube.com/watch?v=VsP0BUtf0PY

الشكل والمكونات مما يشتبه بعضها ببعض لكنها في الحقيقة غير متشابهة من الناحية الجينية، الأمر الذي حدا بالعلماء لوضع قواعد بيانات لها لكبر حجم المعلومات عن كل صنف [1] .

(وضع المجلس الدولي **OleaDB** للزيتون قواعد بيانات متطورة تشتمل على أكثر من **1200 إلى 1800 صنف** (**سلالة وراثية** (من الزيتون المستزرع .(*Olea europaea L.*) تُصنف هذه الأنواع علمياً بناءً على خصائصها المورفولوجية (الشكلية) والجينية، ونسب الزيت فيها، والغرض من استخدامها ، وأهم أوجه المقارنة الأساسية بينها أمران :-

الحجم واللب :الأصناف المخصصة للمائدة (مثل *سيرينولا والتفاحي*) (تمتلك ثماراً ضخمة ونسبة لب سميكة لسهولة الأكل. أما الأصناف الزيتية (مثل *كورونيكي*) (فتكون ثمارها صغيرة لأن التركيز يكون على استخلاص الزيت وليس اللحم .

طبيعة الزيت :الزيوت الناتجة عن أصناف مثل *كوراتينا وبيكوال* تتميز بمدة صلاحية طويلة جداً وحدّة في الطعم (لاذعة) بسبب محتواها الهائل من مضادات الأكسدة الـ .(Polyphenols) بينما أصناف *كـ أربيكينا* تعطي زيتاً ناعماً وحلواً يناسب من لا يفضلون طعم المرارة.

[1] :تلخص الجدول التالي مقارنة شاملة بين 10 من أشهر وأبرز أصناف الزيتون في العالم من عدة أوجه .**لغرض**

اسم الصنف	الخصائص والمميزات النكهية	شكل وحجم الثمرة	نسبة الزيت في الثمرة	الغرض الرئيسي من الاستخدام	بلد المنشأ الأصلي
كالاماتا (Kalamata)	قوام ملحم، طعم حامض معتدل ونكهة غنية	كبيرة الحجم، تشبه اللوز	(%منخفضة إلى متوسطة (~7	(زيتون مائدة (تخليل	اليونان GR
بيكوال (Picual)	زيت مستقر جداً، غني بمضادات الأكسدة ولذعة مرارة خفيفة	متوسطة، بيضاوية مدببة الطرف	(%مرتفعة جداً (22% - 27	(إنتاج الزيت (أساسي	إسبانيا ES
أربيكينا (Arbequina)	نكهة فاكهية حلوة، خالية من المرارة، ممتازة للأشجار القزمية	صغيرة الحجم، مستديرة	(%مرتفعة (18% - 22	إنتاج الزيت ومائدة	إسبانيا ES
كورونيكي (Koroneiki)	زيت عطري جداً، نكهة عشبية حارة وفاكهية مركزة	صغيرة جداً، بيضاوية	(%مرتفعة جداً (تصل إلى 28	(إنتاج الزيت (فاخر	اليونان GR
كوراتينا (Coratina)	زيت هجومي قوي، مرارة ولاذعية عالية جداً لغناه بالبوليفينول	متوسطة إلى كبيرة	(%مرتفعة جداً (تصل إلى 27	إنتاج الزيت ومائدة	إيطاليا IT
شملالي (Chemlali)	شجرة شديدة التحمل للجفاف، زيت خفيف بنكهة اللوز الأخضر	صغيرة، بيضاوية مستطيلة	(%مرتفعة (26% - 28	(إنتاج الزيت (أساسي	تونس TN
سيرينولا (Bella di Cerignola)	لب سميك وقاس، طعم زيدي خفيف، يتوفر بالأخضر والأسود	ضخمة جداً، بيضاوية ملحمية	منخفضة جداً	(زيتون مائدة (تخليل	إيطاليا IT
أسكولانو (Ascolana)	لب ناعم جداً، نكهة فاكهية تشبه التفاح والخوخ	كبيرة الحجم، بيضاوية دائرية	منخفضة إلى متوسطة	(زيتون مائدة (فاخر	أمريكا / إيطاليا US
التفاحي (Toffahi)	نسبة لحم عالية، سريع النضج في التخليل، لا يتحمل التخزين الطويل	كبيرة جداً، مستديرة كالتفاحة	(%منخفضة (5% - 7	(زيتون مائدة (تخليل سريع	مصر EG
ليوكوليا (Leucolea)	عند النضج، زيت نقي جداً ومنخفض المرارة **أبيض عاجي بالكامل**	متوسطة، بيضاوية	متوسطة	(أغراض دينية وثقافية (نادر	إيطاليا IT

كذلك الحال بالنسبة للعنب .إذ تحتوي قاعدة البيانات الدولية لأصناف العنب (**VIVC**) على أكثر من **23,000صنف** مسجل من العنب والكرمة من جميع أنحاء العالم، كما تشتهر دولة جورجيا وحدها بامتلاكها لأكثر من 500 صنف أصيل من العنب[2].

م	اسم نوع العنب	وجود البذور	اللون الخارجي	الاستخدام الرئيسي	طبيعة المذاق والنكهة
1	**طومسون سيدلس** البناتي الأبيض	عديم البذور	أخضر مائل للاصفرار	عنب مائدة وإنتاج الزبيب	حلو جداً وسكري مخفف
2	**فليم سيدلس** (Flame Seedless)	عديم البذور	أحمر داكن / قرمزي	عنب مائدة (طازج)	مقرمش، متوازن الحلاوة واللوذعية
3	(Crimson) **كريمسون**	عديم البذور	أحمر وردي فاتح	عنب مائدة طويل التخزين	حلو ونكهته غنية
4	**الرومي الأحمر**	يحتوي على بذور	أحمر باهت إلى وردي	عنب مائدة وعصائر محلي	حلاوة معتدلة مع حموضة خفيفة
5	**كوتون كاندي** (Cotton Candy)	عديم البذور	أخضر فاتح	عنب مائدة فاخر للتحلية	حلو جداً يشبه طعم "غزل البنات" تماماً

[1]) د إياد قنيبي ، فهم علمي للآية (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) سلسلة رحلة اليقين ، بحث من اكسفورد قام بإنشاء قاعدة بيانات لأصناف 500 نوع من الزيتون في إيطاليا وحدها مختلف جينيا رغم التشابه في المنظر والتركيب https://www.youtube.com/watch?app=desktop&v=jPAlyRHh8oA

[2])https://www.vivc.de/

6	**كونكورد** (Concord)	يحتوي على بذور	أرجواني داكن / أسود	العصائر، المربيات، والجيلي	نكهة قوية عطرية تشبه التوت ((ترابية
7	**المسقط** (Muscat / الإسكندراني)	يحتوي على بذور غليظة	أصفر ذهبي إلى أخضر	عنب مائدة، تجفيف، وعصائر	نكهة عطرية نفاذة شبيهة بالورد والمسك
8	**كابيرنيه ساوفيجنون**	يحتوي على بذور	أسود / أزرق داكن	إنتاج العصائر المخمرة والنبيذ	غني بالتانينات، نكهة العليق والكرز الأسود
9	**شاردونيه** (Chardonnay)	يحتوي على بذور	أخضر مخضر	إنتاج العصائر البيضاء الفاخرة	نكهات الفواكه التفاحية والليمونية مع زبدية
10	**سابليه سويت** (Sable Seedless)	عديم البذور	أسود حالك	عنب مائدة فاخر	حلو للغاية مع نكهة استوائية خفيفة

مقارنة بين 10 من أشهر أنواع العنب الموزعة بين عنب المائدة (للاستهلاك الطازج) وعنب التجفيف والعصائر

كما تشير الدراسات العلمية والزراعية إلى وجود **أكثر من 500 صنف ونوع مسمى من الرمان حول العالم**. يرجع هذا التنوع الهائل إلى انتشار الرمان جغرافياً منذ آلاف السنين وتنوعه الوراثي الكبير. وقد قام العلماء والباحثون في بنوك الجينات والمراكز الزراعية الدولية (مثل المجموعات الوطنية لحفظ الأصول الوراثية النباتية) بتسجيل وتوصيف هذه الأنواع في قواعد بيانات خاصة بالموارد الوراثية لدراسة خصائصها المورفولوجية والإنتاجية[1].

اسم صنف الرمان	النكهة والاستخدام الأساسي	(طبيعة البذور الداخلية (الأريل	لون القشرة الخارجية	المنشأ والانتشار الرئيسي
(Wonderful) وندر فول	.حامض حلو (حلو لاذع)، الأفضل عالمياً للعصير والتجارة	بذور متوسطة الصلابة، حمراء زاهية	أحمر داكن ولامع	الولايات المتحدة (فلوريدا وكاليفورنيا)
(Mollar de Elche) مولار دي إلتشي	.حلوة جداً ومنخفضة الحموضة، ممتاز للأكل الطازج	بذور ناعمة جداً وسهلة المضغ	أحمر فاتح مائل للاصفرار	(إسبانيا (منطقة إلتشي
(Parfianka) بارفيانكا	.نكهة غنية جداً تجمع بين الحلاوة الشديدة واللذعة الخفيفة	بذور ناعمة وصغيرة للغاية	أحمر زاهٍ جذاب	(تركمانستان (آسيا الوسطى
(Kandhari) قندهاري	.حامض حريف ولاذع، يستعمل بكثرة في الطهي وصناعة الدبس	بذور صلبة، ولونها أحمر غامق	أحمر قرمزي داكن	أفغانستان والهند
(Eversweet) إيفر سويت	.حلو جداً وخالٍ تماماً من المرارة والحموضة، يعصر دون تلوين اليدين	بذور ناعمة، ولون الحبات وردي فاتح/شفاف	أحمر فاتح أو وردي	الولايات المتحدة / آسيا
(Nana) هيمالايا القزمي	صنف قزمي للزينة، الثمار صغيرة وغير صالحة للأكل البشري بسب .مرارتها	بذور صلبة وصغيرة	أخضر مائل للبني مصفر	منطقة جبال الهيمالايا
(Dholka) دولكا	.حلوة للغاية وعصيرية جداً، وتشتهر بها المناطق الجافة	بذور صلبة ولونها أبيض خاطل	وردي فاتح أو أبيض مصفر	الهند
(Desertnyi) ديسيرتني	.(نكهة فريدة تشبه نكهة الحمضيات (حلو ولاذع خفيف	بذور ناعمة وسهلة الأكل	برتقالي برونزي إلى أحمر	تركمانستان
(Acco / Horsetooth) هيرش كوف / سن الحصان	".حلوة المذاق وتتفوق في حلاوتها على صنف "وندر فول	بذور متوسطة ولونها وردي	أحمر فاتح ممزوج بالوردي	إيطاليا وحوض المتوسط
(Black Ice) بلاك أيس	.والعمق في الطعم غنية جداً بمضادات الأكسدة، تجمع بين الحلاوة	بذور ناعمة، عصيرها أحمر حبري	أرجواني داكن قريب للأسود	آسيا الوسطى وامتدت لأمريكا

يوضح الجدول التالي مقارنة بين 10 من أشهر وأبرز أصناف الرمان العالمية

قوله (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ) حتى أن الثمرة يتطور خلقها حتى تبدو ناضجة قال ابن الجوزي (وينعه) (نضجه وبلوغه)[2]، وقبل نضوجه لا يستساغ طعمها كما لو نضجت

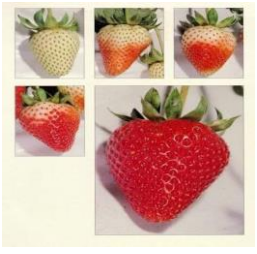

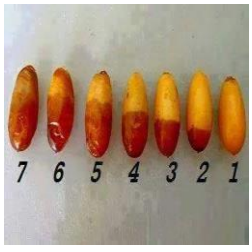

فمن الذي حول هذا الطعم إلى من طعم لا يستساغ إلى ما يستحسن طعمه ؟ فسبحان الله .

[1] (https://www.mdpi.com/563/6/10/7524-2311

[2]) ابن الجوزي : تذكرة الأريب تفسيري الغريب ج1 ص 164

قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) تلك الآيات لا تزال معروضة على الإنسان يشاهدها ليل نهار ، فلو أبصر طرفا منها لازداد إيمانا بالله تعالى ، ولم يزل الكافر على كفره ، ولصار الملحد بعد اليوم مؤمنا بالله وحده .

المطلب الأول

سرد ضلالات المشركين في الاعتقاد إجمالا

قال تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100)

قوله (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ..)(100) أي رغم أن الله هو الذي خلقهم لكنهم لم يعبدوا الله ولم يفردوه بالعبادة مخلصين له الدين ، بل جعلوا له شركاء من الجن ، فجعلوا الولاية للجن والشياطين وكقوله تعالى : **(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي)** [الكهف : 50] وجعلوا العبادة لهم ، قال إبراهيم لأبيه : (يَا أَبَتِ **لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ** إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً) [مريم : 44] ، وتلك مفارقة عجيبة بين ما تقدم من آيات أظهرها الله للقوم لعلهم يؤمنون ، وحال هؤلاء الكفار والمشركين الذين فسد اعتقادهم ، فعبدوا الجن مع عبادتهم لله ، دون تبصر لما تقدم من آيات ، وذلك باتخاذهم الجن شركاء لله تعالى في العبادة ، فاستعانوا بهم لجلب حاجاتهم ، ولم يقصروا الاستعانة على الله وحده لا شريك له ، قال تعالى **(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)** (الجن 6) ، فالاستعانة بالجن من باب الاستعانة بالأسباب غير المشروعة في جلب الحاجات ، كذلك الخوف منهم شرك ، فهم مخلوقون لا يضرون ولا ينفعون إلا بإذن الله ، قال تعالى **(وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ** وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ) (البقرة 102) ، والله تعالى علمنا أن نستعين به وحده بالتماس الأسباب المشروعة لجلب المصالح ، وهذا هو عين التوكل على الله.

قال ابن القيم (على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن **الأمر كله بمشيئته** ، سبق به علمه وحكمه ، وأن **السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم** ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية ، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم ، **فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها ، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحا ولا توصله إلى المقصود** ، فيجرد عزمه للقيام بها حرصا اجتهادا ، **ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريدا للتوكل واعتمادا على الله وحده** ، وقد جمع النبي بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح حيث يقول **(احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)** فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ، ونهاه عن العجز ، وهو نوعان تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها ، فالدين كله ظاهره وباطنه شرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوي)[1].

قال القاسمي (فإن قيل : فكيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن **طاعة الجن** ، وأمرهم بذلك ، كقوله : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ **وَلَآمُرَنَّهُمْ** فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ **وَلَآمُرَنَّهُمْ** فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً) [النساء : 117 - 119])[2].

---

[1]) مدارج السالكين ج3 ص 501

[2]) محاسن التأويل : تفسير القاسمي

وقوله (..وخلقهم..) أي الله خلقهم[1]، فاستنكر عليهم شركهم بدلالة خلقه لهم ، كما قول إبراهيم عليه السلام **(أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)** [الصافات: 95، 96] ، قال صاحب الظلال (وهي لفظة واحدة ، ولكنها تكفي **للسخرية من هذا التصور!** فإذا كان الله سبحانه هو الذي " خلقهم " فكيف يكون له شركاء في الألوهية والربوبية؟! ، كما قال النبي ﷺ في الحديث القدسي (أخلق ويعبد غيرى)[2] .

قال الشوكاني أي (وقد علموا أن الله خلقهم ، وخلق ما جعلوه شريكاً لله)[3]، قال ابن كثير أي: (وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، ، ومعنى الآية: (أنه سبحانه وتعالى **هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفْرَد بالعبادة وحده** لا شريك له)[4] .

قوله (وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) (100) قال أبو حيان أي (اختلقوا وافتروا)[5] ، وقال الفراء: معنى " خَرَقوا " افتعلوا ذلك كذباً وكفراً، قال: وخَرَقوا واخْتَرَقُوا، وخَلَقُوا واخْتَلَقوا: واحد)[6].

وقال الزمخشري : (ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه أي اشتقوا له بنين وبنات) [7]

وقال الشعراوي في قوله (وخرقوا له) أي (عملوا خرقاً في الشيء السليم الذي تأبى الفطرة أن يكون)[8] ، (الخرق إيجاد فجوة في الشيء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال في السفينة **(أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا)** [الكهف : 71] .

يقول السامرائي (**الخَرْق هو قطع الشيء على سبيل الفساد من غير تدبر ولا تفكّر** ، ويقال هذا ولد أخرق يعني لا يُقدر ولا يحسن العمل)[9].

قال ابن عاشور (وقد كان **دين العرب في الجاهلية خليطا من عبادة الأصنام ومن الصابئية عبادة الكواكب وعبادة الشياطين، ومجوسية الفرس، وأشياء من اليهودية، والنصرانية**، فإن العرب لجهلهم حينئذ كانوا يتلقون من الأمم المجاورة لهم ، التي يرحلون إليها عقائد شتى متقاربا بعضها ومتباعدا بعض، **فيأخذونه بدون تأمل ولا تمحيص** لفقد العلم فيهم، فإن العلم الصحيح هو الذائد عن العقول من أن تعشش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة، فالعرب كان أصل دينهم في الجاهلية عبادة الأصنام وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد **سلطة الجن والشياطين** ونحو ذلك ، فكان العرب يثبتون الجن وينسبون إليهم تصرفات، فلأجل ذلك **كانوا يتقون الجن** وينتسبون إليها ويتخذون لها المعاذات والرقي ويستجلبون رضاها **بالقرابين** وترك تسمية الله على بعض الذبائح، وكانوا يعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطان يوحي إليه الشعر، ثم إذا أخذوا في تعليل هذه التصرفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهية الله تعالى **تعللوا لذلك بأن للجن**

---

[1]) تفسير ابن أبي زمنين ج1 ص 191
[2]) جامع الأحاديث للسيوطي ج15 ص 52 ورواه البيهقي ج18 ص 126 رقم 8479
[3]) فتح القدير للشوكاني ج2 ص 457
[4]) تفسير ابن كثير ج3 ص 307
[5]) البحر المحيط ج5 ص 231
[6]) الأزهري : تهذيب اللغة ج2 ص 408 ، لسان العرب لابن منظور ج10 ص 73
[7]) الكشاف ج2 ص 150
[8]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2665
[9]) د فاضل السامرائي

صلة بالله تعالى فلذلك قالوا: الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن، كما أشار إليه قوله تعالى: **(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً)** [الصافات: 158] ، ومن أجل ذلك جعل كثير من قبائل العرب شيئا من عبادتهم للملائكة وللجن)[1].

قوله (..سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) (100) قال ابن كثير أي: (تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء)[2].

قال الشيخ أبو بكر (نزه الرب تبارك وتعالى نفسه عما وصفوه به كذباً بحتاً وتخرّصاً كاملاً من أن له بنين وبنات وليس لهم على ذلك أي دليل علمى لا عقلي ولا نقلي ، وق شارك في هذا الباطل العرب المشركون حيث قالوا الملائكة بنات الله ، واليهود حيث قالوا عزير ابن الله ، والنصارى إذ قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقول المبطلون)[3]

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلَهُ:" سُبْحَانَ اللَّهِ " ، قَالَ: "تَنْزِيهُ اللَّهِ نَفْسَهُ عَنِ السُّوءِ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا سُبْحَانَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةٌ أَحَبَّهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَرَضِيَهَا وَأَحَبَّ أَنْ تُقَالَ"[4].

[1]) التحرير والتنوير ج6ص 244
[2]) تفسير ابن كثير ج3 ص 308
[3]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 422
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 345

المطلب الثاني

تصحيح التصور عن الله

قال تعالى (**بَدِيعُ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ **وَخَلَقَ** كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ **رَبُّكُمْ** لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ **خَالِقُ** كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) **لَا تُدْرِكُهُ** الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) قَدْ جَاءَكُمْ **بَصَائِرُ** مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)

قوله (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (أَيْ مُبْدِعُهُمَا)[1]، قال الطبري معنى"مبدع" : (منشئ ومحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد)[2] ، قال الشعراوي أي (خلق السموات والأرض وكل ما فيهما على غير مثال سابق)[3] .

وفهم العبد لهذه الحقيقة الكائنة فتح من الله عليه ، إذ به يستحصل على رضاه وإجابة حاجته ، فعن أنس : كنت مع النبي ﷺ فدعا رجل فقال "يا بديع السماوات يا حي يا قيوم إني أسألك" فقال (أتدرون بما دعا والذي نفسي بيده دعا الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب)[4].

وإثبات أن السماوات والأرض ليس لهما مثيل سابق يعطي الفرصة للملحق أن يثبت عدم صحة القرآن ويطعن فيه ، وذلك إذا أثبت عكس الحقيقة التي قررها القرآن ، بأن يثبت أن ثمة سماوات أو أرض غير تلك التي خلقها الله ، فإن استطاع أن يثبت ذلك برهن على صحة اعتقاده الكفر والإلحاد ، ولكن لم يستطع أحد ذلك ، بل إن علماء الكون جميعا يقرون بأن الأرض هي الكوكب الوحيد الصالح لحياة البشر ، وأن السماء هي التي تحفظ لهذا الكوكب خصائصه تلك بما يحول دون تدميره .

فقد أثبت العلماء أن الأرض تتميز بظروف استثنائية ومتوازنة بدقة لا تتوفر مجتمعة في أي كوكب آخر تم اكتشافه في مجموعتنا الشمسية تتمثل فيما يلي :-

- **البعد المناسب عن الشمس** :تقع الأرض فيما يُعرف بـ "المنطقة القابلة للسكن" أو النطاق المعتدل، مما يسمح بوجود الماء بحالته السائلة.
- **الغلاف الجوي والمجال المغناطيسي** :يمتلك الكوكب غلافاً جوياً غنياً بالأكسجين والنيتروجين، إضافة إلى مجال مغناطيسي يحميه من الإشعاعات الشمسية والكونية الضارة.

---

[1]) مجموع الفتاوى ج2 ص 444
[2]) تفسير الطبري ج2 ص 540 – ومثله عبد المحسن العباد : شرح سنن أبي داود ج 8 ص 217
[3])
[4])رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 246 رقم 705 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 256 رقم 705 / 546

- **وجود الماء** :يُعد الماء السائل الأساس الجوهري لقيام واستمرار النشاط الحيوي .

ولا يزال بحث العلماء مستمرا عن وجود كواكب بديلة لكوكب الأرض : إذ يواصل العلماء عبر التلسكوبات الحديثة البحث ورصد كواكب خارجية شبيهة بالأرض وتقع ضمن النطاق الصالح للحياة (مثل بعض الكواكب المكتشفة حديثاً)، إلا أنه لم يثبت حتى الآن وجود غلاف جوي مستقر أو مياه سائلة مؤكدة أو حياة فعلية على أي منها

وقد اكتشف العلماء حديث كوكبا شبيها بكوكب الأرض ولكنه يختلف عنه كثيرا ، وغير صالح لحياة الإنسان عليه ، هذا الكوكب اسمه **كبلر(Kepler)** ، فهي مجموعة من الكواكب الخارجية (خارج مجموعتنا الشمسية) التي اكتشفها تلسكوب كبلر الفضائي التابع لناسا، وبعضها يُوصف بأنه "صالح للحياة" نظرياً ولكن **ليس للبشر حالياً**.

حيث اكتشف التلسكوب كواكب تقع في **المنطقة القابلة للسكن** — (**Habitable Zone**) وهي المسافة المناسبة من النجم التي تسمح بوجود ماء سائل على سطح الكوكب. من أشهرها: –

Kepler–452b:

يُعرف بـ "ابن عم الأرض الأكبر"، وهو أكبر من الأرض بنسبة 60% ويدور حول نجم يشبه شمسنا.

Kepler–186f:

أول كوكب مكتشف بحجم قريب جداً من الأرض يقع في المنطقة القابلة للحياة حول نجم قزم أحمر.

ويبرر العلماء الأسباب التي تجعل حياة البشر على هذا الكوكب رغم تشابهه بالأرض غير صالحة عليه في الأسباب التالية :–

المسافة الهائلة :تبعد هذه الكواكب عنا مئات أو آلاف السنين الضوئية. على سبيل المثال، Kepler–452bيبعد حوالي **1400 سنة ضوئية**، مما يعني أن الوصول إليه بالتكنولوجيا الحالية يستغرق ملايين السنين.

مكونات الغلاف الجوي مجهولة :العلماء يعرفون حجم الكوكب وبُعده عن نجمه، لكنهم لا يعرفون بدقة كيميائية غلافه الجوي، وهل يحتوي على أكسجين كافٍ للتنفس أم غازات سامة.

الجاذبية والبيئة :بعض هذه الكواكب أكبر حجماً، مما يعني أن الجاذبية هناك ستكون أقوى بكثير، وهو ما لا يتحمله جسم الإنسان بسهولة.

قوله (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (101) يمتنع وفقا للمنطق العقلي أن يكون لله ولد ، وذلك وفقا لتصورات البشر قبل إثبات أن له صاحبة ، وإذ يمتنع أن تكون له صاحبة باعتبارها دليل على تلبية الحاجة ، ودليل على النقص ، والله تعالى عن ذلك كله ، فالصاحبة (الزوجة) دليل على الحاجة إلى المشاركة والمتعة أو السكن والنسل، والله تعالى غني عن ذلك كله، فليس لديه نواقص واحتياجات كما لدي البشر ، لأنه هو الخالق لكل شيء

، أي أنه متفرد بذاته ، فمحال أن ينسب لله الحاجة والفقر والرغبة والشهوة والسكن ، قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى11).

إن الذين ينسبون لله ولدًا يسمون أنفسهم هذا الولد أي ينسبون أنفسهم لله ، كما قال تعالى (**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**) (18) فهدفهم تعظيم أنفسهم ، بتأليه أنفسهم بزعم أنها ارتقت إلى درجات ومراتب الألوهية ، بهذا الاعتبار لهم الحق أن يشاركوا الله في ملكه ، مثلما يرث الابن أباه ، ويدير معه ملكه وشركاته وأمواله وتجارته ، كما أن الأب لا يبخل علي أولاده بما يطلبون ، من هنا نشأ تعاظم الإنسان لرأيه وهواه ورغباته الشخصية ، ليزيل كل ما يحول بينه وبين تلك الرغبات الهاجئة والجامحة ، وهكذا يظلم الإنسان نفسه حين يسب ربه وينسب له النقص ويتعاظم ليعطي لنفسه الحق في أن يشارك الإله ملكه ، فيملك حق التشريع للناس بهواه ، ويملك الحق في أن يمنح الحياة لمن يشاء ويسلبها عمن لا يؤمن بهذه العقيدة الكافرة .

وفي قوله (..خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ..) قال ابن تيمية (**خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ يُنَافِي تَوَلُّدَهَا عَنْهُ**)[1]، وقد جاءت صيغة الماضي (خَلَقَ) هنا في مقام الاستدلال وإبطال دعوى الشرك والولد ، ردا على من زعموا أن لله ولداً، فذكرت الدليل الفعلي الواقعي ؛ بأنه سبحانه أوجد السماوات والأرض، و"خَلَقَ" كل شيء في الماضي، فهذه الدعوى باطلة لأن كل ما في الكون مخلوق له ، فصياغة الفعل في الماضي جاءت هنا لتقرر **حقيقة تاريخية وحدثاً ثابتاً** يقطع الحجة ، ويبطل هذا القول بالأدلة الكونية الدامغة.

قوله (..وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (101) أثبت علمه في هذا المقام **للتلازم بين الخلق والعلم** :فالذي يخلق الخلق لا بد أن يكون عالماً بتفاصيل ما يخلق ، وبدقائقه وظواهره وبواطنه ، كما في قوله (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) ، فإثبات خلق كل شيء يستلزم إثبات العلم بكل شيء.

ومن كان عليم بكل شيء ألا نأخذ منه العلم عن نفسه ، فلا يتقول أحد عنه بقول إلا أن يكون قد ثبت عنه بدليل شرعي صحيح ، فإن لم يكن المتقول على الله قد ثبت لديه العلم عنه ، فإنه يتكلم بجهل ولا شك ، وأمور العقيدة يمتنع أن يتحدث فيها الجاهلون .

قوله (..ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (102) قال السمعاني في قوله ("ذلكم اللَّهُ " (أكد ما سبق)[2] ، قال أبو حيان قوله ("ذلكم" أي الموصوف بتلك الأوصاف السابقة من كونه بديعاً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً خالق الموجودات عالماً بكل شيء هو الله **بدأ بالاسم العلم** ثم قال : "**ربكم**" أي مالككم والناظر

[1]) مجموع الفتاوى ج2 ص 444
[2]) تفسير السمعاني ج2 ص 131

في مصالحكم ، والناظر في مصالحكم ، ثم حصر الألوهية فيه ثم **كرر** وصف خلقه "كل شيء" ثم أمر بعبادته لأن من استجمعت فيه هذه الصفات كان جديراً بالعبادة وأن يفرد بها فلا يتخذ معه شريك)[1] .

ويلاحظ أنه جاءت تكرار وصف الخلق هنا بصيغة مختلفة إذ جاء **بصيغة اسم الفاعل (خَالِقُ)** في مقام **التعريف بالذات الإلهية واستحقاق العبادة**، بعد إبطال الشبهة جاءت لتقرر صفة ملازمة وثابتة لله تستوجب إفراده بالعبودية (فَاعْبُدُوهُ)؛ فاسم الفاعل يدل على **الدوام، والاستمرار، والثبوت**، فهو سبحانه متصف بهذه الصفة أزلاً وأبداً فاستحق أن يُعبد من هذا الوجه .

قوله (..وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)(102) قال ابن عجيبة أي : (هو متولي أمور جميع عباده ومخلوقاته التي أنتم من جملتها ، فَكِلُوا أمركم إليه ، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخروية ، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته وحفظه)[2] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وَدَّعَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ (**أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**)[3] ،ولذلك علمنا النبي ﷺ عند السفر أن نقول (**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ** وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ) [4].

يقول صاحب الظلال (لم يكن العرب – في جاهليتهم – ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون والناس ، ورازقهم كذلك. . لذلك لم يكن الإسلام يواجه الإلحاد في وجود الله سبحانه كما يقول اليوم « ناس »! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير! والحق أن هؤلاء الذين يجادلون في وجود الله اليوم قلة . وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية ، **وهو تلقي الشرائع في شؤون الحياة من غير الله** . . وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضاً! . . فالقاعدة التي يقيم عليها السياق القرآني هنا وجوب عبادة الله وحده ، ووجوب ربوبيته وحده – بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة .... وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التي لم يكن المشركون – في جاهليتهم – يجحدونها ، ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها ، وهو : الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك . .)[5].

قوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (103) قال الدكتور سفر الحوالي أي: (لكمال جلاله وعظمته أن يحيط بها أي شيء ، .. والله سبحانه وتعالى وهو أعظم من يُوصف ويُثنى عليه الثناء اللائق بجلاله، **لا يوصف بمجرد السلب** ..)[6]، ولذلك جاء بعدها (**وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**) **استدراكا على النفي** ، إذن فرؤية الله تعالى ممتنعة إطلاقا على أهل الدنيا سواء أكانت مجرد رؤية أو بالإدراك ، فنفي الإدراك ثابت بالآية .

---

[1]) البحر المحيط ج5 ص 232
[2]) البحر المديد ج2 ص 181
[3]) رواه ابن ماجة ج8 ص 343 رقم 2815 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 133 رقم 2278
[4]) رواه أبو داود ج7 ص 169 رقم 2232 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج7 ص 351 رقم 2339
[5]) في ظلال القرآن ج3 ص113- 119
6) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي ج1 ص 151

وأما نفي الرؤية فثابت بالحديث عَنْ مَسْرُوقٍ عن عَائِشَةَ قالت (**مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ** قَرَأَتْ (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ،(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) [1] ، **فعموم النكرة في سياق النفي** يدل على انتفاء أن يدركه شيء من أبصار المبصرين في الدنيا)[2].

أما في الآخرة فأهل السنة يثبتون الرؤية دون الإدراك في الآخرة لقوله تعالى : (**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**) [القيامة:22-23] ، إذن هذه الرؤية وإن كانت ممتنعة على أهل الدنيا باعتبار أن **الرؤيا جزاء** وهي خير الجزاء ، وأهل الدنيا لا يزالون في دار الابتلاء ، أما في الآخرة فهي دار جزاء ، ورؤية الله من الجزاء لأهل الإيمان والتقوى[3] .

فقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ..) (103) (لا ينفي الرؤية وإنما ينفي الإحاطة به إدراكاً)[4]، فلا تدركه الأبصار لكمال عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإحاطة بالشيء قدر زائد عَلَى الرؤية)[5] ، (فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ كَلَّا)، فَلَمْ يَنْفِ مُوسَى الرُّؤْيَةَ ، وَإِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ، فَالرُّؤْيَةُ وَالْإِدْرَاكُ كُلٌّ مِنْهُمَا يُوجَدُ مَعَ الْآخَرِ وَبِدُونِهِ، فَالرَّبُّ تَعَالَى يُرَى وَلَا يُدْرَكُ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا)[6] ،ولذلك فإنه يُرى لأهل الإيمان في الآخرة ، ولا يدرك في الدارين .

قال الخازن (القلوب تعرفه ولا تحيط به)[7]، (والله تعالى وضع دليلا على قمة الأدلة التي تؤكد أنه لا تدركه الابصار في نفس كل إنسان ، **فالروح التي في الجسد إن خرج ذهبت الحياة** من الجسد أصبح رمة ، **والإنسان لا يستطيع أن يدركها رغم أنه مؤمن بها)**[8] .

يقول صاحب الظلال (إن الذين كانوا يطلبون في **سذاجة** أن يروا الله ، كالذين يطلبون في **سماجة** دليلاً مادياً على الله! هؤلاء وهؤلاء لا يدركون ماذا يقولون! إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك . . كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون ، والقيام بالخلافة في الأرض . . **وإدراك آثار الوجود الإلهي** في صفحات هذا الوجود المخلوق . . **فأما ذات الله – سبحانه – فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها** ، لأنه لا طاقة للحادث الفاني أن يرى الأزلي الأبدي ، فضلاً على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض ، وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها .. وقد يفهم الإنسان سذاجة الأولين ، ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين! إن هؤلاء يتحدثون عن « الذرة » وعن « الكهرب » وعن « البروتون » وعن « النيوترون » . . وواحد منهم لم ير ذرة ولا كهرباً ولا بروتوناً ولا نيوترونا في حياته قط ، فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذي يضبط هذه الكائنات . . ولكنها مسلمة من هؤلاء ، كفرض ، ومصداق هذا الفرض

---

1) رواه البخاري ج15 ص 98 رقم 4477
2) التحرير والتنوير لابن عاشور ج6 ص 251
3) قال الشيخ صالح بن فوزان : (نفي الرؤية هذا في الدنيا، لأن موسى سأل ذلك في الدنيا، ولا أحد يرى الله في الدنيا لا الأنبياء ولا غيرهم، وأما في الآخرة فيرى المؤمنون ربهم، وحال الدنيا ليست كحال الآخرة)انظر إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ج 16ص48
4) شرح العقيدة الطحاوية ج1 ص 1747
5) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي ج1 ص 1748
6) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ج1 ص 113
7) تفسير الخازن ج2 ص 434
8) تفسير الشعراوي مع شيء من التصرف ج1 ص 190

أن يقدروا آثاراً معينة تقع لوجود هذه الكائنات ، فإذا وقعت هذه الآثار (جزموا) بوجود الكائنات التي أحدثتها! بينما قصارى ما تصل إليه هذه التجربة هو « احتمال » وجود هذه الكائنات على الصفة التي افترضوها! . . ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله – سبحانه – عن طريق آثار هذا الوجود التي تفرض نفسها فرضاً على العقول! يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويطلبون دليلاً مادياً تراه الأعين . . كأن هذا الوجود بجملته ، وكأن هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفي لتكون هذا الدليل!) [1].

قوله (..وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ..) (103) فإن العلم بأن الله (**محيط به**) خبير به وعليم بكل شيء هو ما يحتاج إليه العبد)[2] ، قال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) ، أي (لا تخفى عليه خافية ولا يفوته شيء)[3]

وهو ما يتضمن من باب الأولى إدراك الله لنوايا البشر وطموحاتهم المستقبلية ، إذا كان الله يحيط بالأبصار التي هي أدق الحواس وأسرعها تنقلاً، فمن باب أولى أنه (**محيط بالبصائر**) وهي العقول، والقلوب، والنيات، والطموحات المستقبلية.

ولذلك قال تعالى بعدما أثبت لنفسه صفة اللطف (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (الشورى 20)

قوله (..وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (103) قال ابن الأثير في تفسيره (هو الذي اجْتَمع له العِلْمُ بدَقَائق المصَالح وإيصَالها إلي مَن قدّرها له مِن خَلْقه)[4] ، (والرِّفْق في الفِعْل والتنفيذ)[5] ، وقيل (اللطيفُ الذي يُوَصِّل إليك أَرَبَكَ في رِفق)[6] قال البغوي (قيل: اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، وقيل: اللطيف الذي يُنسي العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا، وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء)[7]، ومن لطفه أنه اختص عباده باللطف فقال (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)(الشورى19)

كما استفاض الرازي في شرح أوجه معاني لفظ (**اللطيف**) فقال (المراد **لطف صنعه في تركيب أبدان** الحيوانات من الأجزاء الدقيقة ، والأغشية الرقيقة والمنافذ الضيقة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالى ، وأنه سبحانه **لطيف في الإنعام** والرأفة والرحمة ، وأنه لطيف بعباده ، حيث يثني عليهم عند الطاعة ، ويأمرهم بالتوبة عند المعصية ، ولا يقطع عنهم سواد رحمته سواء كانوا مطيعين أو كانوا عصاة ، وأنه لطيف بهم **حيث لا يأمرهم فوق طاقتهم** ، **وينعم عليهم بما هو فوق استحقاقهم**) [8] .

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص119- 120
[2]) البيضاوي ج2 ص 191
3) تفسير البغوي ج3 ص 174
4) انظر ابن منظور : لسان العرب ج9 ص 316
5)الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني: منهج السلف في فهم أسماء الله الحسنى ج23 ص 3
6) الشيخ/ محمد الدبيسي " تفريغ دروسه في شرح أسماء الله ج1 ص 5
7) تفسير البغوي ج3 ص 174
8) تفسير الرازي ج6 ص 425

(فهو سبحانه يعلم أن العباد مع إعراض أكثرهم عن طاعته لا قوام لهم ولا بقاء إلا بأسباب رحمته ؛ **فالخبير بهم لا بد أن يلطف بهم** وإلا تعطلت حكمته في خلقهم ، وفي دلالة الخبرة على صفة البصر والحكمة ، قال تعالى : (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)[الشورى27][1].

فصفة "اللطف" دائما تجتمع مع صفة "الخبرة" لزوما سواء بلفظها أو مفهومها ، أي تجتمع مع صفات تستلزم معناها مثل "القوي العزيز" أو "العليم الحكيم" ، ما يدل على الخبرة حصول كذلك.

فقد جاء هذا الاقتران في خمس سور من القرآن لبيان أن الله سبحانه يعلم دقائق الأمور وخفاياها (الخبرة)، ويسوق عباده إلى ما فيه صلاحهم برفق وحكمة من حيث لا يشعرون ، حيث ثبت التلازم المعرفي؛ لأن اللطف يتطلب علمًا بدقائق الأمور وخفاياها، وهو ما تحققه "الخبرة" .

قوله (لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ **اللَّطِيفُ الْخَبِير**) (**الأنعام** 103)

قوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ **مُخْضَرَّةً** ۗ إِنَّ اللَّهَ **لَطِيفٌ خَبِيرٌ**) (**الحج** 63)

قوله (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ **لَطِيفٌ خَبِيرٌ**) (**لقمان** 16)

قوله (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ **لَطِيفًا خَبِيرًا**) (**الأحزاب** 34)

قوله (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ **اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) (**الملك** 14)

ثانيًا: مواضع انفصال "اللطيف" عن "الخبير"

قوله (..وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي **لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ** ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (100) .(هنا جاء مقيدًا بـ "لما يشاء" ومتبوعًا بالعليم الحكيم) فقد كان السياق يتحدث عن تدبير خفي أوصل يوسف عليه السلام إلى الملك بعد المحن، فناسبه إظهار أثر اللطف في القدر الكوني والمشيئة الإلهية (لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ) ، وذلك كله لم يخرج عن علم الله وحكمته ، وهما مستلزمتان لصفة الخبرة

قوله (اللَّهُ **لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ** يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} (**الشورى** 19) (هنا جاء مقيدًا بـ "بعباده" ومقترنًا بالقوي العزيز) ، حيث كان السياق يتحدث عن الرزق ، والرزق يحتاج إلى قوة وقدرة وبسط، فناسبه الاقتران بـ (الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) ، وكلا الصفتان تستلزم الخبرة لاكتسابها ، فليس كل قوي بعزيز ، فإذا اجتمعتا كان ذلك دليل الخبرة .

قال الشعراوي (ولطيف تناسب (لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار) و(الخبير) يناسب (وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار)[2]، قال السيوطي (فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر والخبر يناسب ما يدركه)[3] ، وقال القزويني (الخبرة تناسب من يدرك شيئا فإن من يدرك شيئا يكون خبيرا به)[4].

---

1) أسماء الله الحسنى ج33 ص 128
2) تفسير الشعراوي ج1 ص 2672
3) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص 271
4) الإيضاح في علوم البلاغة ج1 ص 324

قوله (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)(104) قال ابن كثير "البصائر" : (هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ.

قال ابن عجيبة أي : (**براهين توحيده ، ودلائل معرفته** ، حاصلةَ من ربكم ، تنفتح بها البصائر ، وتبصر بها أنوار قدسه)[1].

فعن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ:" " قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ " ، قال:" " الْبَصَائِرُ " الْهُدَى، **بَصَائِرُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ لِدِينِهِمْ**، وَلَيْسَتْ بِبَصَائِرِ الرُّءُوسِ"، وَقَرَأَ: " فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " ، وَقَالَ:"إِنَّمَا الدِّينُ بَصَرُهُ وَسَمْعُهُ فِي هَذَا الْقَلْبِ"[2].

قال حقي (البصائر) : (**البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب**) [3].

وقال الشعراوي (**من لوازم الربوبية أن يعطي ما يهدي** ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله قد بلّغ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناولنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقي أن تؤدوا ولا عذر لكم من المشرع الأعلى الذي خلق وهو الرب)[4] .

قال ابن القيم (إذا صحت فكرة – يعني العقيدة- أوجبت للعبد البصيرة ، فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار وما أعد الله في هذه لأوليائه وفي هذه لأعدائه) [5]، أي أبصر أمور الغيب وكأنها رأي العين .

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم)[6]، وهي علي ثلاثة درجات من استكملها فقد استكمل البصيرة

1- بصيرة في الأسماء والصفات : فالبصيرة في الأسماء والصفات أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر .

2- بصيرة في الأمر والنهي : وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقى الأحكام من مشكاة النصوص

3- بصيرة في الوعد والوعيد : وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر عاجلا وآجلا في دار العمل ودار الجزاء وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته وعدله وحكمته فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته بل شك في وجوده فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة وإرسالها هملا وتركها سدى تعالى الله عن هذا الحسبان علوا كبيرا) [7]

---

[1]) البحر المديد ج2 ص 186
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 349
[3]) تفسير حقي ج4 ص 361
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2675
[5]) مدارك السالكين ج1 ص 123
[6]) مدارك السالكين ج1 ص 124
[7]) مدارك السالكين ج1 ص 123

قوله (..فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا..) أي (فمن أبصرَ) الحق ، وآمن به ، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه ، (فلنفسه) أبصر ، ولها نفع ، (ومن عَميَ) عنها ، ولم يرفع رأسًا ، وضل عن الحق ، (فعليها) وباله وضرره ، ولا يتضرر بها غيره)[1].

وذلك مثل قوله: (**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**) [الإسراء: 15] ، ولهذا قال (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا أي: فإنما يعود وبال ذلك عليه،كقوله: (**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**)[الحج: 46] [2].

وقوله تعالى (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) أي أن مهمة الرسول تنتهي عند ذلك ، قال تعالى (فَهَلْ **عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**) (النحل 35) ، فليس عليه غير أن يُبَصِّر الناس طريق الحق ، قال تعالى (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا **عَلَيْكَ الْبَلاَغُ** الْمُبِينُ) (النحل 82) ، ويقع عليهم بعد ذلك الاختيار والاجتهاد في السير إلى الله.

[1]) البحر المديد ج2 ص 186
[2]) تفسير ابن كثير ج3 ص 312

المطلب الثالث

ترشيد الجهد الدعوى إزاء عناد المشركين ومجادلتهم

قال تعالى (وَكَذَلِكَ **نُصَرِّفُ الْآيَاتِ** وَلِيَقُولُوا **دَرَسْتَ** وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) **اتَّبِعْ** مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ **وَأَعْرِضْ** عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ **مَا أَشْرَكُوا** وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) **وَلَا تَسُبُّوا** الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ **زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ **إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ** وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) **وَنُقَلِّبُ** أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ** الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا **مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا **لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا** شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) **وَلِتَصْغَى** إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ **الْكِتَابَ مُفَصَّلًا** وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ** صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ** يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ **أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (117)

أنزل الله تعالى القرآن الكريم متضمنا لأيات بينات ، ضرب فيها من كل مثل للناس ، فجمعت بين الوعد والوعيد ، بين المثال والقصص ، بين الإجمال والتفصيل ، فهي وحي من الله لنبيه لأجل العلم بها واتباع أحكامها ، وتدور مقاصدها على التوحيد الخالص لله تعالى ، ورغم ذلك فإن مشركين مصرون على العناد وعدم الإيمان بها ، فقد يبين الله تعالى مسألة الإيمان والكفر بأنه سبحانه **أطلق لهم مشيئة الاختيار** ، وهو قادر على أن يخضع رقابهم لتلك الآيات ، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك ليكون الإيمان مصدره القلب الحر ، ولذلك فإن دعوة النبي لهم تقف عند حد البلاغ لهذه الآيات ، وخير وسيلة لإنكار كفرهم هي الإعراض عنهم إعراض المنكر ، وليس عليه أن يحاسب نفسه حساب الملوم لعدم إيمانهم به ، فليس هو موكل بتحقيق نتيجة بل يكفي ما بذله من عناية وحرص علي هدايتهم ، ولذلك فإن إعراض النبي ﷺ عن المشركين يعني في شقه الإيجابي أن يتبع معهم سياسة دعوية تتسم بشيء من الموادعة دون هجوم عليهم إتقاء أذاهم واستطار شرهم ، حتى لا يتحول الأمر من مجرد دعوة للحق إلى تنابز بالألقاب وتراشق بالألسنة .

وهؤلاء المشركون يظنون أن النبي ﷺ ينقصه أن يأتيهم بأية مادية تدل على صدق نبوته وصحة الكتاب الذي جاء به ، والحق أن قلوبهم وأبصارهم زائغة عن الحق ، فلو أنزلت آية مقترحة منهم على التفصيل الذي طلبوه ما تغير حالهم من الشرك والكفر إلى الإيمان ، لأن الإيمان يحتاج لقلب يبحث عن الحق ، وليست قلوبهم على هذه الشاكلة ، فحالهم هو الإنصراف عن الحق ، والإقبال على وحي الشياطين ، فيتبعون زخرف قولهم ، فقلوبهم امتلأت بمازينه الشيطان لها من حب الدنيا وكراهة الآخرة ، بل والرضا والاستكانة لطلب الدنيا ، والاستزادة من المعاصي استخفافا بحق الله عليهم .

وأخيرا يحاول المشركون أن يصرفوا النبي ﷺ عن دعوته من خلال أن يحكم بينهم بحكم يطيعهم فيه ، ويطيب خاطرهم ، وكأن ثمة قواعد أخرى من صنع البشر يجوز أن تحكم على كلام رب البشر ، وهم يعلمون أن الكلام الإلهي لا يعلو عليه شيء ، يريدون إضلاله بهذه الخطوة الخبيثة لاستبدال شرع الله ، والإتيان مكانه بمناهج من صنعهم ترضي أهواءهم ، هنا يؤكد سبحانه أن شرعه باق ، وأنه هو الغالب ، وأن كلماته هي الصدق وهي العدل ، ليحذر نبي ﷺ أمته من أي محاولة لإرضاء المشركين في شيء ، فما يرضيهم يسخط الله ، وما يسخطهم يرضي الله ، فالله سبحانه لا يقبل تمييع قضايا الدين من أجل تكثير عدد المسلمين ، بل الحق هو الحق ولو لم يتبعه إلا فئة قليلة ، (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ **أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**).

قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) أي (نُكَرِّرُ الآيَاتِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ)[1]وأساليب مختلفة ، وكلمة (ص ر ف) تدور حول معنى التغيير، والتحويل، والتقليب من حال إلى حال ، يقال صرف العملة يعني تحويل العملة من جنس إلى جنس آخر (كتحويل الذهب إلى فضة، أو الدولار إلى ريال)، أو تقليب المال وتداوله بين الناس **فالعملة** :تصرف العملة لتلبي احتياجات المعاملات المختلفة، فلكل مقام عملة تناسبه (بيع، شراء، سفر)

كذلك **الآيات** :تصرف بأن يأتي تنويع الحجج والبراهين بأكثر من طريقة ، فإذا لم يؤثر في الإنسان أسلوب الوعيد، أثّر فيه أسلوب الترغيب وضرب الأمثال، وبذلك تكتمل الحجة على الجميع.

قال الدكتور عبد الله الجربوع (يشمل تصريف الآيات تنويع الأساليب، فيؤتى بالدليل الواحد بأكثر من أسلوب: فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحيانا بضرب الأمثال أو القصص، ونحوها. وكل ذلك وارد في القرآن)[2]

قال تعالى (وَلَقَدْ **صَرَّفْنَا** فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ **مَثَلٍ**..)(الكهف 54) ، وقال (انْظُرْ كَيْفَ **نُصَرِّفُ الْآيَاتِ** لَعَلَّهُمْ **يَفْقَهُونَ**)(الأنعام 65) ، وقال سبحانه (وَلَقَدْ **صَرَّفْنَا** فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا..) (الإسراء 41) أي لتقوم الحجة [3]، أي أن الله تعالى جاء بكثير من الآيات والأمثلة في هذا الكتاب والشاهدة على قدرته سبحانه للاعتبار والعظمة ، أي (نُكَرِّرُ الآيَاتِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ)[4]، فهي من تنوعها ما بين آيات منظورة وأخرى مسطورة ، كما في قوله (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ) (النور 44)

---

[1]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 836
[2]) الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع سعودي الجنسية : الأمثال القرآنية القياسية ج1 ص 2
[3]) أضواء البيان للشنقيطي ج1 ص 490
[4]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج 1 ص 836

يقول الدكتور فاضل السمرائي (التصريف هو التغيير كما في قوله (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ..) (البقرة 164) أي تغييرها من جهة لأخرى، وعندنا الصرف والنحو والصرف هو النظر في التغييرات الحاصلة في أبنية الكلام، فالتصريف التغيير يأتي للمسألة الواحدة ويذكرها بصور شتى يغيّر فيها حتى يوصلها لك)[1]

إذن جاء تعدد الآيات وتكرارها والإكثار منها وتنوعيها في الأسلوب كي تناسب البشر على اختلاف فيما بينهم بحسب الاستعدادات النفسية والإمكانيات البدنية والقدراته العقلية والمؤثرات الاجتماعية التي تحيط بهم ، فكل آية تناسب قوم معينون في حقبة معينة ، وقد لا تناسب غيرهم ، وهكذا يفصل الله الآيات تفصيلا ، ويصرفها وينوعها لحكمة أن يستوعبها البشر ، كل البشر مهما اختلفت قدراتهم وإمكانياتهم وظروفهم ، فالله يأتي لكل واحد بالآية التي تقيم الحجة عليه ، ولكن لابد –أولا– حتى تنفع الآيات أن تقع علي قلب واع قادر على أن يستقبلها دون عناد أو تكبر ، حتى تستبين له ، فيستبصر بها .

قوله (وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) القائلون هم المشركون المعاندون ، الذين يقلبون الحقائق زيفا ، يزعمون أن القرآن ليس وحياً من الله وإنما تعلمه الرسول ودرسه من الأمم السابقة اليهود والنصارى ، كما في قوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ **إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ** لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) [الشعراء 103] ، وقوله تعالى (وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ **افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين **اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ** بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الفرقان)

وهكذا نرى نتيجة غير منطقية لتصريف الآيات على نحو ما ذُكر ، فبدلا من الإيمان بالقرآن والاستبصار بالآيات ، نرى استمرار المكذبين في الافتراء على الله والتشكيك في النبوة والقرآن ، يحيلون قضية الإيمان بالكتاب من اعتبارها قضية إيمانية بالله الواحد الأحد إلى اعتبارها **مجرد ثقافة ضمن الثقافات الموروثة ونظرية ضمن النظريات الإنسانية منقولة عن البشر في العلوم الاجتماعية** ، ويمكن دحضها أو الرد عليها بنظرية أخرى وهكذا ، لتكون محلا للتقييم البشري والنقد الأدبي والتحليل الفلسفي ، ولا تكون –إطلاقا– محلا للإيمان بأن هذا الكتاب هو وحي إلهي يجب اتباعه .

قال الرازي (حمل اللام على العاقبة بعيد لأن حملها على العاقبة مجاز ، أما حملها على **لام الغرض** حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز)[2] ، فقولهم هذا من افتراءات أهل الشرك ، وفي حقيقته دليل علي عجزهم ، فهو يقيم حجة عليهم لا لهم ، لأنه تضمن إقرارا ضمنيا منهم أن **ما يقوله محمد ﷺ علم يحتاج إلى دراسة تحليلية ، وفهم عميق** ، وليس مجرد كلام عادي يمر على الآذان مرور الكرام ، أي أنهم وجدوا فيه فوائد ودرر وكتب قيمة ، ولا يمكن استخراجها منه إلا من خلال التدبر فيه ودراسته كعلم ضمن سائر العلوم .

---

[1]) لمسات بيانية ج1 ص 1069
[2]) تفسير الرازي ج6 ص 428

فلو سلمنا جدلا بمقالتهم ، فلماذا لا يدرسوه باعتباره علم محض بصرف النظر عن مصدره ؟ فدراسة المنهج توصل بعد ذلك إلى صاحب المنهج ، فإذا آمنت بفكره ومنهجه ، وجب الانتقال إلى المرحلة الثانية من الفهم للمنهج ، وهي تطبيق هذا المنهج للتأكد من من جدواه ، فإذا أثبت التطبيق ترابط واتساق النظريات والمبادئ والقواعد والأحكام التي جاء بها المنهج ، وصحتها ونفعها ، لابد إذن من التسليم بالنظرية الجامعة للمبادئ والقيم والأفكار والنظريات جميعا ، وهي أننا جميعا ندين لله بالعبودية وحده لا شريك له .

قوله تعالى (وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(105) لم يُكذِّب القرآنُ قولَهم (درست) فقد درس النبي ﷺ القرآن مع جبريل عليه السلام ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي **كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ** فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)[1] ، فمدارسة الكتاب هي سنة الأنبياء في تعليمه للناس ، وأثر هذه المدارسة نجده سريعا في نشر الخير والجود به أسرع من الريح المرسلة ، قال تعالى **(ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)** (آل عمران:79) .

قال الجزائري **(والذي ينتفع بتصريف الآيات وما تحمله من هدايات العالمون لا الجاهلون)**[2]، والمقصود **العالمون بالله تعالى والمؤمنون به** ، فيزيدهم الله بهذا الكتاب هدى على هدى ، قال سبحانه (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا) (مريم 76) ، وقال سبحانه (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) (فصلت 44)

إذن لابد من مدارسة القرآن والجلوس بين يدي العلماء لتعلمه وفهمه والعمل به ، ولذلك قال النبي ﷺ (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ **وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ** إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[3].

قوله (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (106) أي أن هذا الكتاب نزل كمنهج للبشر لكي يتبعوا الرسول ﷺ في تطبيق أحكامه ، وليس لمجرد الدراسة والتثقف به ، ولذلك قَالَ رسول الله ﷺ **(مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ)**[4] ، إذن الغرض من دراسة القرآن الكريم هو تعلمه أحكامه لاتباع منهجه ، بحيث يكون العلم به علما نافعا

[1]) رواه البخاري ج1 ص 7 رقم 5
[2]) أيسر التفاسير ج1 ص 424
[3]) رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867
[4]) رواه ابن ماجة ج1 ص 295 رقم 249 وصححه ابن ماجة ج1 ص 48 رقم 205

قوله (.. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (106) فغاية العلوم عن الله الوصول بها إلى **قول (لا إله إلا الله)** خالصة من القلب، ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ (اللَّهُمَّ **إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**)[1]، قال المناوي (وهو **ما لا يصحبه عمل** أو ما لم يؤذن في تعلمه شرعا أو ما لا يهذب الأخلاق)[2].

قوله (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) قال ابن عاشور (**إعراض عن الاهتمام بغرورهم، والنكد منه، لا إعراض عن وعظهم ودعوتهم**)[3] ، قال الشوكاني (أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم ، بل يشتغل باتباع ما أمره الله)[4] أي **لا تلتفت إليهم وامضِ في طريق دعوتك** ، قال الرازي (لئلا يصير افتراء الكفار عليه **سبباً لفتوره** في تبليغ الدعوة والرسالة ، والمقصود **تقوية قلبه وإزالة الحزن** الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة)[5] .

فالكلام يؤثر بلا شك في طاقة الإنسان إيجابا وسلبا ، ونحن المسلمون بكلفون بأن نحافظ على الطاقة الإيجابية لعمل الطاعات والإكثار منها ، وأن نفرغ الطاقة السلبية أولا بأولا فلا يتملك منا الحزن ويؤثر على العمل الدعوي ، ولذلك ارتبط الأمر بالإعراض عن المشركين ارتباطاً وثيقاً من الناحية النفسية والسلوكية مع آلية حماية نفسية وروحية تمنع استنزاف طاقة الإنسان في صراعات وجدالات عقيمة من خلال ما يلي :- .

قطع مصدر التأثير النفسي السيء : فالجدال مع المعاندين أو الوجود في بيئات مليئة بالتهجم والسخرية يملأ النفس بالضيق والتوتر ، الإعراض يعني سحب الانتباه والتركيز عن هذه المؤثرات السلبية ، وإغلاق الباب أمام الطاقة السلبية قبل أن تخترق النفس ، فتؤثر فيها ، ولذلك أمرنا بالاستعاذة من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من (الجنة والناس).

تجنب إهدار الطاقة في معارك مستنزفة :فالدخول في صراعات جدلية لا طائل منها يستهلك جهداً عصبياً ونفسياً هائلاً ، فعندما تفصل نفسك عن هذه المؤثرات بالإعراض ، فإنك تحمي عقلك وقلبك من التشتت والغضب ، ولذلك قال النبي ﷺ (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا) [6]

والمطلوب من المسلم الحفاظ على الطاقة الإيجابية وتوجيهها من خلال سياسة الأعراض بأمرين :-

الأول : صيانة السلام الداخلي : فالإعراض عن الجاهلين وعن المشركين يمنح المسلم مساحة من الهدوء والسكينة، مما يسمح للمشاعر الإيجابية مثل الطمأنينة، والرضا، والثقة بالنمو والازدهار ، وهذا الشعور يؤكده الإيمان بقوله تعالى (فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم47).

الثاني : إعادة توجيه التركيز : فبدلاً من استهلاك الوقت والجهد في الرد على المهاترات، يوجه الإعراض طاقة الإنسان نحو البناء والعمل المثمر في سياق الدعوة والرسالة، فالإعراض وسيلة لتركيز الجهود على بناء المجتمع المسلم وتقوية أفراده بدلاً

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 251 رقم 4899
[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 413
[3]) التحرير والتنوير ج7 ص 9
[4]) فتح القدير للشوكاني ج2 ص 461
[5]) تفسير الرازي ج6 ص 429 مع بعض التصرف
[6]) رواه أبو داود ج12 ص 422 رقم 4167 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 552 رقم 273

من الغرق في خصومات جانبية ، وهو ما حض عليه قوله (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت 34) .

فالآية بإيجاز تضع **منهجاً عملياً لحفظ الطاقة النفسية والروحية**؛ فالإعراض ليس ضعفاً، بل هو إدارة ذكية للمشاعر والوقت، تضمن للمسلم البقاء في حالة من الاستقرار الإيجابي بعيداً عن المؤثرات الخارجية المحبطة.

قوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) (107) هذه الآية تحض علي **التسليم بالإرادة الإلهية** ، والرضا بما قدره الله وقضاه ، لاسيما في شأن المشركين ، فليس على أتباع النبي ﷺ أن يبذلوا **جهدا يفوق الطاقة** حتى يحملوا الناس على الإيمان بالله ، ولن يستطيعوا ، فهؤلاء المشركون **لو أراد الله أن يقسرهم على الإيمان قسرا لأجبرهم على ذلك** ، ولكن الله سبحانه لا يريد لهم أن يؤمنوا به قسرا .

قال الآلوسى : وهذا دليل أهل السنة على أنه تعالى – لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه يمنعه عنه مع توجهه إليه ، ولكن بمعنى أنه – تعالى – لا يريده منه لسوء اختياره الناشىء من سوء استعداده)[1] .

وقال أبو حيان (أي إن إشراكهم ليس في الحقيقة بمشيئتهم وإنما هو بمشيئة الله تعالى)[2].

وقال الشعراوي (أيَّ كافر لم يكفر قهرا عن الله ، – لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله –وإنما كفر لأن الله **أرخى له الزمام بالاختيار** أي خلقه مختارا،... وألة الاختيار العقل ، وهو مناط التكليف أي العقل الراشد المختار ، فلا تكليف قبل البلوغ ونضوج العقل ولا تكليف على المكره)[3] .

وقال صاحب الظلال (فالأمر كله مرهون بمشيئة الله ، **هو الذي شاء ألا يهديهم لأنهم لم يأخذوا بأسلوب الهدى**؛ وهو الذي شاء أن **يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء**؛ وهو الذي يهديهم إذا جاهدوا للهدى؛ وهو الذي يضلهم إذا اختاروا الضلال ... بلا تعارض – في التصور الإسلامي – بين **طلاقة المشيئة الإلهية** وهذا المجال الذي ترك للبشر لابتلائهم فيه بهذا القدر من الاختيار) [4] ، وقال في موضع آخر (ولو شاء الله أن يلزمهم الهدى لألزمهم ، ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لا يعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم ، ولكنه سبحانه **خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى وللضلال** ، وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار – في حدود المشيئة المطلقة التي لا يقع في الكون إلا ما تجري به ، ولكنها لا ترغم إنساناً على الهدى أو الضلال – وخلقه على هذا النحو لحكمة يعلمها؛ وليؤدي دوره في هذا الوجود كما قدره الله له ، باستعداداته هذه وتصرفاته)[5].

---

[1]) تفسير الألوسي ج5 ص 472 روح المعاني 250/7
[2]) البحر المحيط ج5 ص 237
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2679
[4]) في ظلال القرآن ج3 ص 123
[5]) في ظلال القرآن ج3 ص 119

وقال ابن عاشور وقوله : (ولو شاء الله ما أشركوا) عطف على جملة (وأعرض عن المشركين) ، وهذا تلطّف مع الرّسول ﷺ وإزالة لما يلقاه من الكَدَر من استمرارهم على الشّرك وقلّة إغناء آيات القرآن ونُذُره في قلوبهم ، فذكّره الله بأنّ الله قادر على **أن يحوّل قلوبهم** فتقبَل الإسلام بتكوين آخر ، ولكنّ **الله أراد أن يحصل الإيمانُ ممّن يؤمن بالأسباب المعتادة** في الإرشاد والاهتداء ليَميز الله الخبيثَ من الطيّب وتَظهرَ مراتب النّفوس في ميادين التلقّي.. ، ولم يجعل الله إيمان النّاس حاصلاً بخوارق العادات ولا بتبديل خَلْق العقول ، وهذا هو القانون في معنى مثل هذه الآية ، **فهذا معنى انتفاء مشيئة الله** في هذا المقام المراد به تطمين قلب الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وتذكيره بحقائق الأحوال وليس في مثل هذا عذر لهم) [1]

قوله (وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) هذه الآية توضح المستوى المطلوب من العناية المكلف بها النبي ﷺ لقومه ، فهي تنفي عنه أن يكون مسئولا عن تحقيق نتيجة ، فالنتائج عن المجهود الدعوي بيد الله وحده ، ولكنه مطالب بأن يبذل عناية الرجل الحريص على مصلحتهم ، وينفي عن الرجل الحريص مسئولية الوكيل أو المستأمن ، فكلاهما حريصان على مسئولية صاحبهم ، ولكن مسئولية الأمين أقرب للكفالة ، فهو يكفل ما في يده إن فسد ، ولذلك يكون مسئولا بالتعويض عن فساد ما لم يثبت أنه فسد لسبب خارج عن إرادته ، وأنه لم يقصر في الحفاظ على ما استئمن عليه ، وكذلك الحال بالنسبة للوكيل فهو كفيل عن صاحبه ومسئولا عن تحقيق نتيجة ما لم يثبت كذلك حالة القوة القاهرة التي منعته من تحقيق النتيجة ، قال الحدادى (وإنما جمع بين حفيظ ووكيل لاختلاف معناهما ، **فإن الحافظ للشئ هو الذى يصونه عما يضره ، والوكيل بالشئ هو الذى يجلب الخير إليه**)[2] ، أما النبي ﷺ وكذلك الدعاة إلى الله فهم حريصون على الدعوة ، وليس عليهم بلوغ النتائج ، فهم مكلفون بأقل من ذلك درجة ، رحمة من الله بنبيه وبأمته من بعده.

يقول سيد قطب (إن صاحب الدعوة – رغم حرصه على قومه – **لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين** عن الدعوة ، المعاندين ، الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ... إنما يجب أن **يفرغ قلبه** ، وأن يوجه أمله وعمله **للذين سمعوا واستجابوا** ، فهؤلاء في حاجة إلى بناء كيانهم كله على القاعدة التي دخلوا الدين عليها ... قاعدة العقيدة ... وفي حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة ، وفي حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ؛ وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس)[3] .

قوله (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال رسول الله ﷺ (**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء**)[4] ، فالقرآن يؤدب المسلمين حالما يعرضون عن المشركين ، حتى يكون هذا الإعراض بأسلوب الترفع والأدب ، وليس بطريق السب واللعن ، ذلك أن **فتح باب التراشق بالألسنة** يفتح وبال عظيم للاستهانة بالمقدسات والذات الإلهية ، **فالأولى سد الذرائع** من خلال الكف عن سبابهم فذلك كاف للتخلق بهذا السلوك .

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 425 الطبعة التونسية
[2]) تفسير إسماعيل حقي ج4 ص 13
[3]) في ظلال القرآن
[4]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 116 ص 312 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 132 رقم 237

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: " وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ " ، قَالُوا:"يَا مُحَمَّدُ ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ آلِهَتَنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ، فَنَهَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ " فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ " [1]

عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ:"كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ، فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: " وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " [2].

قال أبو حيان (وحكم هذه الآية باق في هذه الأمة فإذا كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو الرسول أو الله فلا يحل لمسلم ذم دين الكافر ولا صنمه ولا صليبه ولا يتعرض إلى ما يؤدّي إلى ذلك ، ولما أمر تعالى باتباع ما أوحي إليه **وبموادعة المشركين** عدل عن خطابه إلى خطاب المؤمنين ، فنهوا عن سب أصنام المشركين)[3].

فالأصل هو ذم آلهتم من باب إنكار المنكر عليهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام **(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)** (إبراهيم 57) ، ولكن الضرر الذي يقع على المسلمين عند تطبيق سنة نبي الله إبراهيم أشد من المصلحة ، ولذلك نهاهم الله تعالى عن فعل ذلك ، وهو ما يعني أن **المصالح توزن بحسب الأحوال والزمان والظروف وكذلك المفاسد والمضار** .

قال ابن عثيمين (هنا تعارضت مفسدتان: المفسدة الأولى ترك سب آلهة المشركين، والمفسدة الثانية سب الإله ،ومعلوم أن سب الإله أعظم من ترك سب آلهة المشركين وأشد مفسدة، ولذلك نهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين إذا كان سبها يستلزم سب المشركين للإله رب العالمين ، إذا كان سبها يستلزم سب المشركين لرب العالمين (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي: أصنامهم (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) يعني أنكم إذا سببتم آلهتهم فسوف يسبون إلهكم)[4].

قوله (كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ..) (108) أي أن سياسة المسلمين في الإعراض عن المشركين **قد تغري المشركين الظن بأنهم علي خير** ، فذلك مترتب على موادعة المسلمين لهم والالتزام بعدم سب آلهتهم ، فيظنون أنهم على خير ، وذلك خلاف لما هم عليه من الشر ، ولكن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

ونظيره قوله تَعَالَى **(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)** ، وقوله **(وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)** وقال **(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)**

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 352
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 352
[3]) البحر المحيط ج5 ص 237
[4]) الشيخ صالح بن العثيمين : منظومة القواعد والأصول ج1 ص 63

قال ابن القيم (والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين ولا يناقض هذا قوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم) فإن **إضافة التزيين إليه قضاء وقدرا وإلى الشيطان تسببا** مع أن **تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم** إلى ما زينه الشيطان لهم ، **فمن عقوبة السيئة السيئة بعدها** ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها)[1].

قوله (..ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (108) أي ينبئهم يوم القيامة بضلال ما كانوا يعبدون ، أولئك الذين ذمهم الله بقوله (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) فسوف يعلمون يوم القيامة أن ما زُين لهم في الدنيا لم يكن إلا فتنة لهم كما في قوله (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) **ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (الأنعام 24) .

قوله (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ **لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا** قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) (109) هؤلاء هم أهل اللوم على القدر ، **يعزون أي خسارة تلحق بهم على الأقدار** ، ولا يفهمون أن قدر الله ليس فيه ظلم لهم ، قال ابن تيمية (وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال كما ذكره الله في كتابه من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاؤوا بها ، **فتارة يجيبهم الله إلى ذاك** لما فيه من الحكمة والمصلحة ، **وتارة لا يجيبهم** لما فيه في ذلك من المضرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم .. وقد كان الرسول ﷺ ربما طلب تلك الآيات رغبة منه في إيمانهم بها ، فيجاب بأن **الآيات لا تستلزم الهدى بل تستلزم إقامة الحجة وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها** ، والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر كما فعل بفرعون وأبي لهب وغيرهما لما في ذلك من الحكمة العظيمة كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرهما ،وقد بين أنه **لا يظهرها لانتفاء الحكمة فيها أو لوجود المفسدة)**[2].

قوله (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) قال أبو حيان (فالظاهر أن **الخطاب للمؤمنين** والمعنى وما يدريكم أيها المؤمنون أن الآية التي تقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها) [3]، قال تعالى (**وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**)(الإسراء 59) .

قال الزمخشري (يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنتم لا تدرون بذلك ، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ، ويتمنون مجيئها فقال : وما يدريكم أنهم لا يؤمنون على معنى أنكم **لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون)** [4].

---

[1]) مدارج السالكين ج1 ص 184
[2]) الجواب الصحيح ج6 ص 431
[3]) البحر المحيط ج5 ص240 وقريب من المعنى ابن جزي : التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 456
[4]) الزمخشري : الكشاف ج2 ص 158

قوله (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (110) قال ابن القيم (التقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه)[1] ، قال الشاعر قد سمي القلب قلبا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب[2].

فقد سِيقَ اللفظ "**نُقَلِّبُ**" على **التحويل، والاضطراب، وعدم الثبات**، وهو يخدم المعنى المراد في الآية وهو **سلب التوفيق والخذلان** جزاءً لكفرهم السابق وعنادهم ، كما في قوله (**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**) (البقرة 206) .

قال السيوطي أي (**نُحَوِّل قُلُوبهمْ عَنْ الْحَقّ** فَلَا يَفْهَمُونَهُ "وَأَبْصَارهمْ" عَنْهُ فَلَا يُبْصِرُونَهُ فَلَا يُؤْمِنُونَ)[3] .

قال الرازي(**فلا تجدهم يؤمنون بها آخراً كما لم يؤمنوا بها أولاً**)[4] .

قال الماوردي (**وهذا من الله عقوبة لهم** ، وفيها ثلاثة أقاويل :-

أحدها : أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار .

والثاني : في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها .

والثالث : معناه أننا نحيط بذات الصدور وخائنة الأعين منهم)[5]

قال ابن القيم في قوله (**وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون**) (فهذا الإضلال عقوبة منه لهم حين بيَّن لهم فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم ولم يعملوا به ، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا بعد هذا البيان)[6].

والمعنى أنهم **كما زاغت قلوبهم عن الحق أول مرة**...بأن وقع في قلوبهم ما منعهم عن الهدى وهو **داء الكبر** ، فإنه يمكن أن **يتكرر وقوعه** كذلك – بعد نزول **الآيات المادية والخوارق** التي يقترحونها – فيمنعهم من الهدى مرة أخرى .

أي أن الذي حال بين الكفار والإيمان بالله هو عدم ثبات قلوبهم على الحق ، فقد زاغت عنه رغم وضوح الآيات كما زاغت أبصارهم عنه أول مرة وقبل ظهور الآيات المقترحة ، فلا يبصرون.

قال ابن الجوزي قوله تعالى (ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم) ، وفي معنى الكلام أربعة أقوال :-

أحدها : لو أتيناهم بآية كما سألوا ، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ، وحُلْنا بينهم وبين الهدى ، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك . وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا؛ فالمعنى : لو رُدُّوا لحُلْنا بينهم وبين الهدى كما حُلْنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

---

[1]) شفاء العليل ج1 ص 99
[2]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج9 ص 250
[3]) تفسير الجلالين ج2 ص 406 – محمد بن أحمد الخطيب الشربيني : تفسير السراج المنير ج1 ص 967
4) تفسير الرازي ج6 ص 438
[5]) النكت والعيون ج1 ص 431
[6]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 37

والثالث : ونقلّب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات ، قاله مقاتل .

والرابع : أن ذلك التقليب في النار ، عقوبة لهم ، ذكره الماوردي)[1]

قال ابن تيمية (فَذَكَرَ أَنَّ **هَذَا التَّقْلِيبَ يَكُونُ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ، وَهَذَا عَدَمُ الْإِيمَانِ ؛ لَكِنْ يُقَالُ : هَذَا بَعْدَ دُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ ، وَقَدْ كَذَّبُوا وَتَرَكُوا الْإِيمَانَ)[2] .

وقال ابن تيمية (فبين سبحانه أن **مجيء الآيات لا يوجب الإيمان** بقوله تعالى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ) أي فتكون هذه الأمور الثلاثة

- أن لا يؤمنوا
- وأن نقلب أفئدتهم وأبصارهم
- وأن نذرهم في طغيانهم يعمهون

أي وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت تحصل هذه الأمور الثلاثة)[3]

قال الألوسي (هذا التقليب ليس مع توجه الأفئدة والأبصار إلى الحق واستعدادها له بل **لكمال إعراضها عنه بالكلية** ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم **إشعاراً بأصالتهم في الكفر** وحسماً لتوهم أن عدم إيمانهم ناشيء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار)[4].

فقوله: (نقلب أفئدتهم) معطوف على قوله: (لا يؤمنون)، وكلاهما داخل في معنى قوله: (وما يشعركم) وبهذا تزول شبهة من لم يفهم الآية، فظن أن (أن) بمعنى (لعل) لتوهمه أن قوله: (ونقلب) فعل مبتدأ، إلى قوله: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن)[5]

والمعنى الوارد بالآية بينه ووضحه النيسابوري فيقول (معنى تقليب الأفئدة والأبصار هو أنهم إذا جاءتهم الآيات القاهرة التي اقترحوها ، فمن المفترض أن يعرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول– إلا أن الحاصل هو العكس ، حيث العناد والكفر ، وذلك لما في صدورهم من كبر ما هم ببالغيه ، – ولذلك فإن الله تعالى يقلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح ، –لأنهم ليسوا أهلا للإيمان متى علق الكبر في صدورهم –، ومن ثم بقوا على الكفر ، ولم ينتفعوا بتلك الآيات)[6].

يقول سيد قطب (إن **موحيات الإيمان كامنة في القلب ذاته؛ وفي الحق بذاته كذلك ؛ وليست متعلقة بعوامل خارجية** . . فيجب أن تتجه المحاولة إذن إلى ذلك القلب لعلاجه من آفاته ومن معوقاته)[7] .

---

[1]) زاد المسير ج2 ص 394
2) مجموع الفتاوى ج8 ص 224
[3]) شرح العقيدة الاصفهانية ج1 ص 197
4) تفسير الألوسي ج5 ص 476
[5]) سليمان الخراشي : نقض أصول العقلانيين ج4 ص 44
6) تفسير النيسابوري ج3 ص 336 مع بعض الزيادة والتصرف مني
7) في ظلال القرآن ج3 ص 122

فقضية الإيمان والكفر لا تتعلق بالأدلة والبراهين بقدر ما تتعلق بالقبول للأدلة والبراهين ، لأن **الحق في ذاته برهان ، وله من الحجة والقوة ما يجعل القلب يقبله ويطمئن به** ، لكن ثمة معوقات تحول بين القلب وقبوله للحق ، كما في قوله تعالى (**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**) [الأنفال: 24] ، وكما قال النبي ﷺ (وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا **وَهِيَ الْقَلْبُ**)[1].

ولذلك بوب البخاري بابا بعنوان الآية ومقلب القلوب ، وذكر بعده حديث عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ (**لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ**)[2].

قال الزرقاني (بتقليب أغراضها وأحوالها لا بتقليب ذات القلوب)[3] قال الراغب (تقليب الله القلوب والأبصار صرفها عن رأي إلى رأي والتقليب الصرف سمي قلب الإنسان قلبا لكثرة تقلبه ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة)[4].

وعن أنس قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[5]قال المناوي (إشارة الى شمول ذلك للعباد حتى الانبياء ودفع توهم انهم يستثنون من ذلك)[6] ، قال الحافظ (وخص نفسه بالذكر اعلاما بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجا إلى الله سبحانه فافتقار غيرها ممن هو دونه أحق بذلك)[7]

قال رسول الله ﷺ (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ **يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا** أَوْ يُمْسِي **مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا** يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا)[8].

وعن شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ قَالَ قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ قَالَتْ كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ **دُعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ** قَالَ يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ)[9] ،

قال ابن تيمية (**العبد مفتقر إلى الله في أن يهديه ويلهمه رشده** وإذا حصل له علم بدليل عقلي فهو مفتقر إلى الله في أن **يُحدث في قلبه تصور مقدمات ذلك الدليل ويجمعها في قلبه ثم يُحدث العلم الذي حصل** بها ، وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فلا حول ولا قوة إلا به .

---

1) رواه البخاري ج1 ص 90 رقم 50
2) رواه البخاري ج22 ص 391 رقم 6842
3) الحافظ ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج11 ص 527
4) شرح الزرقاني ج3 ص 89
5) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 237 رقم 683 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 2ص217 رقم 1375
6) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 507
7) فتح الباري ج13 ص 377
8) رواه مسلم ج1 ص 297 رقم 169
9) رواه الترمذي ج11 ص 428 رقم 3444 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 41

فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يقول : [اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون **اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك** إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم] وكان يقول هو وأصحابه في ارتجاجهم :

(**اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا**)

(فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا)

وهذا في العلم كالإرادات في الأعمال ، فإن **العبد مفتقر إلى الله في أن يحبب إليه الإيمان ويبغض إليه الكفر** وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده فيكون من المعاندين الجاحدين قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)، وقال (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) فالإنسان –فيما يكتسبه من الأعمال – **مفتقر إلى الله محتاج إلى معونته** ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به)[1]

(فَالعبد مَأْمُورٌ بأن يَشْهَدُ قَبْلَ فِعْلِ الطاعات بحَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إلَى إعَانَةِ اللَّهِ لَهُ وَتَحَقُّقِ قَوْلِهِ (إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وَيَدْعُو بِالْأَدْعِيَةِ الَّتِي فِيهَا طَلَبُ إعَانَةِ اللَّهِ لَهُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ كَقَوْلِهِ (أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك) وَقَوْلِهِ : (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك وَيَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قَلْبِي إلَى طَاعَتِك وَطَاعَةِ رَسُولِك) وَقَوْلِهِ (**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) وَقَوْلِهِ (**رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**) ، وَمِثْلِ قَوْلِهِ (**اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَاكْفِنِي شَرَّ نَفْسِي**) ، وَرَأْسُ هَذِهِ الْأَدْعِيَةِ وَأَفْضَلُهَا قَوْلُهُ (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) فَهَذَا الدُّعَاءُ أَفْضَلُ الْأَدْعِيَةِ وَأَوْجَبُهَا عَلَى الْخَلْقِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ صَلَاحَ الْعَبْدِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)[2]

قوله (..وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (110) يعني لأنهم سلكوا طريق الطغيان وانحرفوا عن الحق ، ولم ينتفعوا بالآيات ولم يستبصروا بها بظل ظلوا في العمه ، فقد تركهم الله وشأنهم ، كلما تمادوا في الطغيان ، لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين .

ويوضح هذا المعنى حديث النبي ﷺ قال (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ **أَسْوَدُ** مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا **لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**)[3]

قوله (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (111) وذلك إجابة لطلبهم أن تأتيهم معجزات مخصوصة بحسب ما اقترحوه ، فعلى سبيل المثال رؤية الملائكة أو أن يتحدثوا مع الموتى ، فهاتان المعجزتان الماديتان تحيلان أمور الغيب إلى أمور مادية مرئية مشاهدة إما بالعين

---

[1]) درء تعارض العقل والنقل ج4 ص 382
[2]) مجموع الفتاوى ج8 ص 330
[3]) رواه مسلم ج1 ص 349 رقم 207

المجردة أو بالسماع بالأذن ، أي أن حواس الإنسان تتعرف على المعجزة ، فهل هذا كاف لإثبات الإيمان بالله ؟ مع العلم بأن الإيمان بما هو مشاهد ليس هو الإيمان الحق ، بل الإيمان الحق هو الإيمان بما هو غائب ، وليس بما هو مشاهد .

وقوله (..وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ..) (111) (يشير إلى مجموع ما سألوه وغيره)[1]، (معاينة أمامهم) قاله ابن عباس [2]، أي مجموع ما اقترحوه من قبل كما في قوله تعالى (وَقَالُواْ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى** تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * **أَوْ** تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * **أَوْ** تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا **أَوْ** تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * **أَوْ** يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ **أَوْ** تَرْقَى فِي السَّمَاء **وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ** حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ..) (الإسراء 90-93)

فكانت إجابة المولى عليهم في هذه الآية (..قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً) (الإسراء 93) ، وكانت إجابته في موضع آخر أن ذلك كله غير نافع ، كما في قوله تعالى (**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**) [الحجر:14، 15] .

فالعبرة ليست في كثرة الآيات والمعجزات والدلائل المادية على صدق الرسالة الإلهية ، فآية واحدة كفيلة لأن تكون دليلا ، ولكن إذا صادفت قلبا يريد ويرغب بشدة أن يعرف الحق ويتبعه ، لا قلبا ينصرف عنه حتى لو حشرت المعجزات والدلائل المادية أمامه حشرا حتى اكتظت من كثرتها فلم تجد لها تصريفا .

فقوله (...مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (111) فالمعنى أن (**إيمانهم منتف في جميع الأحوال** حتى في هذه الحالة التي شأنها أن لا ينتفي عندها الإيمان)[3]، لأن قضية الإيمان شأنها هو الإيمان بما هو غائب وليس بما هو مشاهد .

قوله (..إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) أي (إن شاء هدى من كان أهلاً لذلك ، وإن شاء لم يهد من لم يكن أهلاً لذلك)[4] ، ونظير ذلك قوله: " **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**" وَ قوله "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا " .

قوله (..وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (111) أي يجهلون الحكمة من الابتلاء بالإيمان بالغيب ، وذلك ردا على قسمهم (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا) يقول الشيخ الشعراوي (لا يريد الله أعناقا تخضع ، وإنما يريد قلوبا تخشع ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله : "ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ")[5]

---

[1]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج7 ص 5
[2]) السيوطي : الدر المنثور ج4 ص 117 أخرجه ابن جرير ج12 ص 49 رقم 13757وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وكذلك أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ، وابن جرير رقم 13758
[3]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج9 ص 65
[4]) أبو الليث السمرقندي : بحر العلوم ج2 ص 417
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2691

قال صاحب الظلال (اقتضت مشيئة الله أن **تبتلي البشر بقدر من حرية الاختيار ، والتوجه في الابتداء**؛ وجعل هذا القدر موضع ابتلاء للبشر وامتحان ، فمن استخدمه في الاتجاه القلبي إلى الهدى والتطلع إليه والرغبة فيه – وإن كان لا يعلم حينئذ أين هو – فقد اقتضت مشيئة الله أن يأخذ بيده ويعينه ويهديه إلى سبيله ، ومن استخدمه في الرغبة عن الهدى والصدود عن دلائله وموحياته ، فقد اقتضت مشيئة الله أن يضله وأن يبعده عن الطريق وأن يدعه يتخبط في الظلمات)[1].

قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (112) هذه الآية تبين اتحاد وتواطؤ شياطين الإنس والجن على شيء واحد ، وهو **تعطيل أهل الحق** وأهل الدعوة **عن استئناف جهدهم** وعمل الخير ، ولو كانوا أنبياء ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ)[2].

و(لفظ الشيطان يطلق حقيقة على الجني ومجازا على الإنسي)[3] ، وقال ابن بطال (يجوز إطلاق لفظ شيطان على من يفتن في الدين وأن الحكم للمعاني دون الأسماء)[4]، وعليه يجوز إطلاق هذه التسمية (شيطان) لكل من حاول قطع عمل خيري ، أو فتح باب شر ، وإن هذا الاسم لا يختص بالشيطان الجني) [5] .

وعن مالك ابن دينار : (إن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ ، لأني إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني ، وشيطان الأنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عياناً)[6] .

قوله (..يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ..)(112) يعني (يوسوس بعضهم لبعض)[7] ، ففي الصحيح (فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم)[8] أي أن الشيطان يضع الكلمة في أذن الكاهن مباشرة ، أي يوحي إليه بها .

وعن ابن عباس قال : (إن **للجن شياطين يضلونهم** مثل شياطين الإنس يضلونهم ، فيلتقي شيطان الإنس وشيطان الجن فيقول هذا لهذا : **أضلله بكذا وأضلله بكذا** ، فهو قوله (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)[9] .

قال ابن تيمية (النَّفْسُ بِفِطْرَتِهَا إذَا تُرِكَتْ كَانَتْ مُقِرَّةً لِلَّهِ بِالْإِلَهِيَّةِ مُحِبَّةً لَهُ تَعْبُدُهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَلَكِنْ يُفْسِدُهَا مَا يُزَيِّنُ لَهَا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِمَا يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ مِنْ الْبَاطِلِ)[10]

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 123
[2]) رواه مسلم ج13 ص 428 رقم 5034
[3]) فتح الباري ج1 ص 584
[4]) شرح الزرقاني ج1 ص 442
[5]) تأسيس الأحكام ج2 ص 135
[6]) الكشاف ج2 ص 161
[7]) تفسير ابن كثير ج7 ص 15 النكت والعيون للماوردي ج1 ص 433 ، بحر العلوم ج2 ص 70
[8]) رواه البخاري في صحيحه
[9]) الدر المنثور ج4 ص 118
[10]) مجموع الفتاوى ج14 ص 296

قوله (..زخرف القول غروراً..) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم في فتنتهم)[1] .

قال ابن القيم (فسماه زخرفا ، وهو القول الباطل لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به ، والمقصود أن **الشيطان قد لزم ثغر الأذن** أن يدخل فيها ما يضر العبد ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه ، وإن دخله بغير اختياره أفسد عليه)[2].

وقال (الزخرف هو **الكلام المزين** كما يزين الشيء بالزخرف ، وهو الذهب ، وهو الغرور لأنه **يغر المستمع بالشبهات المعارضة للوحي** هي كلام زخرف يغر المستمع)[3].

قوله (..وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ..)(112) (الضمير هنا عائد على وحيهم ، أو على عداوة الكفار)[4]، أي (لَمنع الشَّياطين من الوسوسة للإنس)[5]، فعَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (**يَبْعَثُ الشَّيْطَانُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً**)[6].

فالمعنى العام لو شاء الله لما فَعَلَ هؤلاء الشياطين ذلك الإيحاء والقول المزخرف الباطل ، ولكن الله يبتلي بعضنا ببعض كما في قوله (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ **وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**) (محمد 4) ، وهذا يعني أن الإنسان مسير في مسألة "**الاختبار**" ولكنه مخير في مسألة "**الاختيار**" ، فلا يختار "الابتلاء" ولكنه يختار أن "يصبر" أو أن "يجزع" ، ولا يختار "النعمة" ولكنه مُمكن من أن يختار "الكفر" أو "الشكر" .

قال الماوردي (وفي تركهم على ذلك قولان :-
أحدهما : ابتلاء لهم وتمييزاً للمؤمنين منهم .
والثاني : لا يلجئهم إلى الإيمان فيزول التكليف)[7]

يقول صاحب الظلال ("الطائعون" و"العصاة" في قبضة الله سواء ، وتحت قهره وسلطانه سواء . فهم لا يملكون جميعاً أن يحدثوا شيئاً إلا بقدر الله وفق مشيئته التي جرت بتلك السنن في تصريف أمر العباد . . ولكن المؤمنين يطابقون – في القدر المتروك لهم للاختيار – بين **الخضوع القهري** المفروض عليهم لسلطان الله في ذوات أنفسهم وفي حركة خلاياهم وفي طبائع تكوينهم العضوي النفسي؛ وبين **الخضوع الاختياري** الذي يلتزمونه بأنفسهم بناء على المعرفة والهدى والاختيار . وبذلك يعيشون في سلام مع أنفسهم ذاتها ، لأن الجانب القهري فيها والجانب الاختياري يتبعان ناموسا واحدا وسلطانا واحدا! فأما الآخرون فهم مقهورون على اتباع ناموس الله الفطري الذي يقهرهم ولا يملكون أن يخرجوا منه في تكوينهم

---

[1]) الدر المنثور ج4 ص 118
[2]) الجواب الكافي ج1 ص 69
[3]) الصواعق المرسلة ج3 ص 1042
[4]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي ج1 ص 458 الكشاف للزمخشري ج2 ص 161
[5]) الوجيز للواحدي ج1 ص 202 ، تفسير النسفي ج1 ص 345
[6]) رواه مسلم ج13 ص 427 رقم 5033
[7]) النكت والعيون ج1 ص 433

الجسمي وحاجاتهم الفطرية ، بينما في الجانب الذي ترك لهم الاختيار فيه هم ناشزون على سلطان الله الممثل في منهجه وشرعه ، أشقياء بهذا الفصام في شخصيتهم! وهم بعد هذا كله في قبضة الله لا يعجزونه في شيء ، ولا يحدثون شيئاً إلا بقدره!)[1]

قوله (..فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)(112) يوضح الإسلام المنهج الدعوى في هذه المسألة ليقتصر جهد الدعاة عن الانشغال بافتراءاتهم وما يزينونه للناس من زخرف القول ليغروهم ويضلوهم عن سبيل الله ، فكل ذلك ليس بشيء حتى يجهدوا أنفسهم لإبطاله فهو في ذاته باطل ، ذلك أن **الانشغال بافتراءاتهم هو عين مقصدهم لتنصرف جهودهم عن تبليغ خطاب الحق للناس** ، ثم ينشغلون بالرد على افتراءاتهم ، ولكن اجعل نصب عينك "البلاغ" مجردا عن محاولة الرد على ما يفترونه من شبهات اقتصادًا في الجهد واختصارًا للوقت .

قوله (وَلِتَصْغَى[2] إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)(113) هنا يأت **دور القلب** الذي يسمع ويصغى لتزيين الشيطان أو يلتفت عنه إلى ما وعد الرحمن في الآخرة ، ولكن الذين لا يؤمنون بالآخرة تراهم يصمون آذانهم عن الحق ، وتصغى أفئدتهم إلى الباطل .

وفي ذلك تعليل للأمر بتركهم الوارد في قوله تعالى (فذرهم وما يفترون) ، ذلك أن افتراءاتهم تلك لن ينشغل بها إلا من أصغى قلبه للشيطان ولا يؤمن بالآخرة ، فهذا الصنف من الناس هو الذي يتقبل قلبه وسوسة الشيطان ، أي أنهم (سلكوا طريق الشياطين **واقتفوا آثارهم مقلدين لهم في ملابسهم ومجالسهم وأحاديثهم ، مشاركين لهم حتى في أمانيهم وطموحاتهم ورؤاهم وأحلامهم وأفراحهم وأتراحهم)**[3].

فلم يقتصر حالهم على الإصغاء بالآذان لوحي الشياطين ، بل وبالأفئدة ، فقد **تعدى الأمر من الإصغاء إلى الرضاء التام لهمز الشياطين** ، حتى أشربت قلوبهم بالباطل ، وهنا تبدو عقيدتهم الفاسدة على الرضا بالدنيا بل تقديس الدنيا وإهمال الآخرة بل وعدم الإيمان ، فتكون النتيجة الحتمية لكل ذلك هو اقتراف المعاصي ، والإسراف فيها إلي ما لا يمكن إحصاءه إلا الله

يقول لبيد بن ربيعة:- وإني لآتي ما أتيت وإنني ... لما اقترفت نفسي عليّ لراهب[4].

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 123

[2]) الإصغاء من الميل ، يقول سبحانه (فقد صغت قلوبهما) أي مالت إلى الحق بعد التوبة وكانتا من قبل قد تظاهرتا عليه ﷺ انظر ابن حجر / فتح الباري ج8 ص 659

[3]) التفسير الموضوعي ج2 ص 540نخبة من علماء التفسير بجامعة الشارقة إشراف د مصطفى مسلم

[4]) الدر المنثور ج4 ص 119

يقول الشعراوي (وقد **يصغي** إنسان ثم تتنبه نفسه **اللوامة** ، ويمتنع عن الاستجابة ، لكن هناك من **يصغي ويرضى** وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم **ينزع للعمل** ليقترف الإثم ، وهذه ثلاث مراحل حددت لنا المظاهر الشعورية التي درسها علماء النفس :-

1- فالإدراك؛ « لتصغى »

2- والوجدان؛ « ليرضوه »

3- والنزوع؛ « ليقترفوا »

وعندما لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان والإدراك يتدخل الشرع من أول الأمر ، مثلما يأمر بغض البصر عن المرأة حتى لا يؤدي الإدراك إلى الوجداتن ثم إلى اقتراف المعصية [1].

قوله (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا) (114) قال حقي (الهمزة للانكار)[2]، قال رسول الله ﷺ (إن الله هو الحكم وإليه الحكم)[3](فهذا الوصف مختص به لا يتجاوز إلى غيره) ، (وإليه الحكم) أي (منه يبتدأ الحكم ، وإليه ينتهي الحكم ، له الحكم وإليه ترجعون لا راد لحكمه ولا يخلو حكمه عن حكمته)[4].

ذكر الماوردي سبب نزول هذه الآية أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ اجعل بيننا وبينك حَكَماً إن شئت من أحبار اليهود وإن شئت من أحبار النصارى ، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك ، فنزلت عليه هذه الآية)[5] ، لكن الإسلام رفض منذ اللحظة الأولى الاحتكام لغير الله في شيء .

فغاية الشيطان فهي أن يتحاكم الناس لغير كتاب الله ، ولهذا يصنع لهم شرائع أخرى غير شريعة رب العالمين ، يوهمهم بعظمتها وفاعليتها وأهميتها ، فيسارعون إلى الالتجاء لها ويتبارون في حفظها والتثقف بها ، وعندئذ يخبو صوت من ينادي بهذا الكتاب والرجوع لحكم الله إزاء أصوات تعالى لتنادي باللجوء إلى غير شرع الله ، وهكذا حتى نجد أنفسنا نُنَصِّب من أعدائنا حكما بيننا ، يحكمون وفق مناهج تناقض حكم الله ، ثم نحن **نرتضي أحكامهم** لظننا أنها من صناعة أكبر المثقفين وأنها سبب المدنية والتقدم والتحضر .

إن الذي حدا بالبشرية للانزلاق في هذا المنزلق أنه أصبح بين المسلمين وفهم كتاب ربهم بونٌ شاسعٌ ، فأضحت أحكامه بعيدةً عن ثقافتهم ، فلا نجد إماما تتجاوز حلقات دروسهم فقه الطهارة أو الصلاة وإن اجتهد فإنه بالكاد ينتهي إلى فقه الحج أو الصيام ، ولا يصل إلى فقه المعاملات التجارية أو السياسة الشرعية أو الجنايات...الخ ، ولذلك عدة أسباب منها عدم إلمام الإمام نفسه بتلك الأحكام بدرجة كافية وكذلك اكتظاظ المناهج البشرية التي تضاهي منهج الله مما

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2698 مع بعض الاختصار
[2]) تفسير حقي ج4 ص 23
[3]) رواه البخاري في الادب المفرد ج1 ص 282 رقم 811 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1ص303
[4]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج14 ص 38
[5]) تفسير الماوردي / النكت والعيون ج2 ص 160 ، الألوسي ج5 ص 494 ، أبي السعود ج2 ص 421 ، البحر المحيط 248/5

يضطر الإمام إلى تسطيح مسائل الفقه في هذه الأبواب وعدم الخوض فيما يحتاجه الناس بحق ، لأن العمل جرى على البدائل الوضعية .

وفي قوله (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا) قال السعدي أي: (موضَّحا فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي **لا بيان فوق بيانه**، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكمًا ولا أقوم قيلًا لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة)[1].

وفي ذلك دلالة على وجوب الاغتناء بكتاب الله تعالى والكف عن غيره من كتب ، ليكون هو **المصدر الرئيسي والأوحد للتشريع ، دون حاجة إلى مصادر أخرى** ، ذلك أن هذا الكتاب مفصل لكل شيء ، قال سبحانه (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ **تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ** وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل 89) ، فوصف الكتاب أنه مفصلا ، ووصفه بأنه تبيانا لكل شيء هو ذاته المعجزة التي لو انتبه إليها مقترحوا الآيات لعلموا أنها هي هي المعجزة التي يطلبون .

قال ابن عثيمين (**وما خفي على أحد من الناس من الأحكام إلا لقصورٍ في فَهمه، أو في علمه، أو في إرادته**)[2]، وكم حاول المفسرون جاهدين أن يستخرجوا من القرآن الكريم الأحكام الشرعية والعبر والمواعظ ، لكنهم كبشر جهدهم محدود مهما آتاهم الله من علم ، فإنهم لا يمكنهم أن ينالوا كل علوم القرآن وتحقيق جميع مقاصده وجمع كل شرائعه ، لكن كلما ازداد التفكر والتدبر فيه كلما زادت معرفة المسلمون بكتابهم ، وكلما زادت مدارسة القرآن من خلال مجالس الذكر كلما حاز المسلمون كثير من أحكامه وعلومه أكثر مما كانوا يحوزونه لو كانوا فرادى .

ويقول الدكتور عبد الكريم بكار (نحن لا نهتم بالبحث عن **أوجه القصور في تفكيرنا**، ولربما اعتقدنا سلامة نياتنا وحسن مقاصدنا ،.. وهو ما يدفعنا إلى الظن بأننا مجتهدون ، وما دمنا مجتهدين فإننا مأجورون على اجتهادنا ، ومن ثم فإننا لسنا في حاجة إلى المراجعة والبحث عن الأخطاء ، ولا شك أن هذا خاطئ؛ .. إن معظم ما نقع فيه من أخطاء ليس ناشئاً عن حب الأذى أو الإساءة ،وإنما ناشئ من القصور:-

- القصور في الفهم
- والقصور في العلم
- والقصور في أدوات البحث وملكات الاجتهاد

ولهذا فإن **استماعنا إلى بعضنا بعضاً باحترام واهتمام هو الذي يساعدنا على تقليل الضرر الناشئ عن الأخطاء غير المقصودة**)[3].

وفي قوله (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) اختلف المفسرون في تعيين المقصود بالذين آتيناهم الكتاب ، فقال ابن عاشور (المقصود بهذا الحكم **أحبار اليهود خاصة** ، لكن يجاب على ذلك بأنه قال: (آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

---

[1]) تفسير السعدي ج1 ص 270
[2]) https://tafsir.app/ibn-uthaymeen/26/2
[3]) مقالات وبحوث الدكتور عبد الكريم بكار : التفكير الشبابي ج1 ص 214 ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية ص 3

ولم يقل: أهل الكتاب ، فقيل: المراد بالذين آتاهم الله الكتاب: **من أسلموا من أحبار اليهود**، مثل عبد الله بن سلام، وثمة رأي ثالث عن عطاء (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) **هم أصحاب محمد** ﷺ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، فيكون الكتاب هو القرآن)[1] ، وأكد الماوردي المعنى الذي أشار إليه ابن عاشور في هذه الآية كذلك)[2].

والمعنى **يستوعب ذلك كله** ولا إشكال ، فيجوز أن يكون خطابا لغير معين ، **ليعم كل من يحتاج** إلى مثل هذا الخطاب ، ونظير ذلك قوله تعالى (**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**) (الرعد 36) .

قوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الخطاب له ﷺ أي فلا تكن من الممترين في أن الله ينصرك وينصر دعوتك ، فيعلمون أنه الحق ، وقيل المراد (أنه الحق)[3] ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى (**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين**) ، قال ابن كثير (وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه)[4] ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**لا أشك ولا أسأل**"[5]، وإنما قصد بهذا التعبير **التهييج**[6] ، (بقطع الأطماع عنه)[7] .

وقيل (فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المتَشَكِّكِينَ فِي أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَيْكَ بِالحَقِّ)[8] ، وقيل المراد (الشَّاكِّين في الجملة التي أخبرتك بها من أمر القِبلة ، وعناد اليهود وامتناعهم عن الإيمان بك)[9] ، وقيل (الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم)[10] .

قال العلماء (ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه عليه الصلاة والسلام) كما في قوله تعالى : (وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين) [يونس : 105]

قال الألوسي (بل قد ذكروا في هذا الأسلوب فائدتين :-

إحداهما : أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية **فيزداد في الثبات على اليقين** نوراً على نور

وثانيتهما : أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع **وينزجر عما يورث الامتراء** لأنه ﷺ مع جلالته التي لا تصل إليها الأماني **إذا خوطب بمثله فما يظن بغيره**)[11].

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 13
[2]) النكت والعيون ج2 ص 317 ، التحرير والتنوير ج7 ص 13
[3]) الخازن ج2 ص 445 الرازي ج6 ص 450 وغيرهما
4) تفسير ابن كثير ج4 ص 322
5) رواه عبد الرزاق في تفسيره (202/15) عن معمر عن قتادة به مرسلا.
[6]) الكشاف للزمخشري ج2 ص 163
[7]) البحر المديد ج3 ص 18
8) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 904 ،
9) الوجيز للواحدي ج1 ص 40
10) الكشاف ج1 ص 145
11) تفسير الالوسي ج3 ص 72

ولذلك قال المفسرون (المراد بهذا الخطاب في المعنى هو **الأمّة**)[1], قال الثعالبي (لأنه إذا كان رسول الله ﷺ يُحَذَّرُ مِنْ مثل هذا ، فغيره من النَّاسِ أَوْلَى أن يحذَّر ويتقى على نفسه)[2] .

واستشهد أبو حيان على ذلك بأن (**النهي عن الكون على صفة** يستلزم العموم ،كما في قوله (فلا تكوننّ من الجاهلين) ، (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) ، (فلا تكن في مرية منه) فهو بذلك **أبلغ من النهي عن تلك الصفة** كما في قوله (لا تعجل بالكتاب من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، (ولا تحزن) ، إذ النهي عن (الكون) يستلزم عموم الأكوان ، أما النهي عن الصفة فيدل على عموم الصفة ، وفرق بين ما يستلزم عموما ، وما يدل على العموم فقط ، فالكينونة في الحقيقة ليست متعلق النهي)[3]، وهو ما يعني **سمو النهي الإلهي** فاستلزم أن يدخل فيه جميع مخاطبين به سواء نبي مرسل أو عبد مكلف.

قوله (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا..) (115) ومعلوم على وجه العموم أن كلمات الله هي آياته ، فعن عبد الله قال : (من أحب أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر **فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله** ﷺ)[4].

قال الماوردي (**صدقاً فيما حكاه أو وعد به ، عدلاً فيما قضاه وأمر به أو نهى عنه**)[5] .

ولعل المقصود بكلمة الله – على وجه الخصوص من عموم ما وعد الله به في القرآن – في هذا السياق – ما وعد به من نصر المرسلين على المكذبين بهم ، كما في قوله (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا **وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ** وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (الأنعام 34) ، فقد جمع الله بين كلمته وكلمة الكافرين في آية واحدة ، فقال سبحانه (**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا** وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة 40) ، فهذا وعد بالنصر كما في قوله (فَاصْبِرْ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (غافر 77).

كذلك يتضمن المعنى تبليغ أمر هذا الدين وإيصاله للناس بما يقيم الحجة عليهم ، ومن ثم يسوغ يعقبه تهديدهم بعاقبة الكفر بالله ، (**وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**) (الزمر 71) ، قال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود 119).

كذلك تضمن المعنى **رسوخ هذا الكتاب في قلوب العباد** ، **والتبشير بنصرهم** وغلبتهم وظهور أحكامه على الدين كله ، قال تعالى (وَلَقَدْ **سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا** لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** * **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) (الصافات 171-173)

---

[1]) تفسير أبي السعود ج2 ص 422 ، البيضاوي 2 ص 199
[2]) تفسير الثعالبي ج2ص 212
[3]) البحر المحيط ج2 ص 82
[4]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج9 ص 132 رقم 8676
[5]) النكت والعيون للماوردي ج 1 ص 434

قوله (..لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (115) ونظيره ما ورد في أول السورة من قوله سبحانه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا **وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (الأنعام 34)

قال الشنقيطي في قوله (لا مبدل لكلماته) أي كلمات الله (لأن أخبارها صدق: وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذباً ولا أن يبدل عدلها جوراً)[1]

وقال البيضاوي (**لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل** ، أو لا أحد يقدر أن يحرفها كما فعل بالتوراة ، فيكون **ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ**)[2].

قوله (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (116) والمعنى تضمن **نهيا عن أن يحرص على متابعتهم رغبة في إرضائهم** ليحصل بذلك الرضا على فرصة لأن يعرض دعوته عليهم طمعا أن يقبلوها منه ، فإن ذلك استدراج غير مرغوب فيه ، قال ابن عاشور (مضمونه التحذير من نزغاتهم وتوقع التضليل منهم)[3] .

قال ابن تيمية (من تدبر هؤلاء الآيات علم أنها منطبقة على من **يعارض كلام الأنبياء بكلام غيرهم** بحسب حاله ، فإن هؤلاء هم أعداء ما جاءت به الأنبياء ، وأصل العداوة والبغض ، ومن المعلوم أنك لا تجد أحدا ممن يرد نصوص الكتاب والسنة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله ، ويود أن تلك الآية لم تكن نزلت وأن ذلك الحديث لم يرد ولو أمكنه كشط ذلك في المصحف لفعله)[4] .

وقال (فإذا رأيت الدلائل اليقينية تدل على أن ما أخبر به الرسول لا يناقض العقول بل يوافقها وأن ما ادعاه النفاة من مناقضة البرهان لمدلول القرآن قول باطل ، فلا تعجب من كثرة أدلة الحق وخفاء ذلك على كثيرين فإن دلائل الحق كثيرة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[5] .

قوله (..إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) (116) هذا هو السبب في عدم متابعة الناس لأصحاب اليقين ، وأنهم يسيرون وراء الظن أي الدنيا التي غرهم الشيطان بها ، قال تعالى (**وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**) (آل عمران 185) (الحديد 20)، وقال تعالى (**وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) (الأنعام 130) .

فلما اتبعوا الظن انقطاع أملهم عن الآخرة ، (**وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**) (الأنعام 29) ، فكانت النتيجة عدم حرصهم على الإيمان ، بالرغم من حرص نبيهم ﷺ على إيمانهم ، قال تعالى (**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) [هود 103] ، وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً **وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**) [الشعراء 8] .

---

[1]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 261
[2]) تفسير البيضاوي ج2 ص 199
[3]) التحرير والتنوير ج7 ص 22
[4]) درء تعارض العقل والنقل ج3 ص 9
[5]) درء تعارض العقل والنقل ج3 ص 329

قوله (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) أي أن حقيقة اتباعهم للظن –أي الدنيا – تخرص منهم بأمري الدنيا والآخرة ، كمن قال وَقد (دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) (**قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ **قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**) (الكهف 36) ، وكذلك من قال (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً **وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي** إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) (فصلت 50) .

قوله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (117) أي (الله أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية)[1] ، وفي هذا (بيان لكمال علم الله – تعالى – وإحاطته بكل شئ ، وإرشاد للدعاة فى شخص نبيهم ﷺ أن عليهم أن يدعوا الناس بالطريقة التى بينها – سبحانه – لهم ، ثم يتركوا النتائج له – تعالى – يسيرها كيف يشاء)[2]

قال الرازي أي (بعد ما عرفت أن الحق ما هو ، وأن الباطل ما هو ، فلا تكن في قيدهم بل فوض أمرهم إلى خالقهم) [3] ، والمعنى : (**أنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى ، فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك** ، فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين)[4].

1) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد ج1 ص 259
2) الوسيط لسيد طنطاوي مفتوى الجمهورية المصرية ج1 ص 2584
3) تفسيير الرازي ج6 ص 454
4) تفسير الرازي ج9 ص 489

المطلب الرابع

إظهار شعار الإسلام أبلغ الوسائل لتصحيح التصور الاعتقادي في الله

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (121)

استظهر هذا المطلب من السورة بعضا من شعائر الإسلام ، وإذ فصّلت سورة المائدة بعض أحكام الذبائح والمطعومات باعتبارها من أظهر شعائر الإسلام، فقد عنيت سورة الأنعام بمجادلة المشركين فيها وتحذير المسلمين من طاعتهم؛ تأكيداً على أن التمسك بهذه الأحكام هو إقامة للحجة عليهم، وإقرارٌ عمليٌّ بألوهية الله حقًّا لا مجرد الاكتفاء بالإقرار بربوبيته.

قوله (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) (118) جعل الله سبحانه ذكر اسمه على الذبائح سببا لحلها ، وبها دخلت **عادة الأكل ضمن شعائر الله** ، قال تعالى (والبدن جعلناها لَكُمْ مّن شعائر الله لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَافَّ) ، أي أن الله سبحانه هو صاحب الأمر والنهي ، وهو الذي يحل ويحرم ، فتلك هي حقوق خالصة له ، لا ينازعه فيها أحد.

فالتسمية واجبة في كل عادة ، وبها تصير إلى عبادة ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ **فَذَكَرَ اللَّهَ** عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ وَإِذَا دَخَلَ **فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ** قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ **فَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ** قَالَ أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ)[1].

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا لَمْ يَضَعْ أَحَدُنَا يَدَهُ حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ طَعَامًا فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَذَهَبَ لِيَضَعَ يَدَهُ فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ثُمَّ جَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّمَا تُدْفَعُ فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا **وَقَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ الَّذِي لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيِّ يَسْتَحِلُّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَجَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ يَسْتَحِلُّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ لَفِي يَدِي مَعَ أَيْدِيهِمَا)[2].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى** فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ)[3].

---

1) رواه أبو داود ج10 ص 217 رقم 3273
2) رواه أبو داود ج10 ص 217 رقم 3273
3) رواه أبو داود ج10 ص 219 رقم 3275

وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه بابا بعنوان (بَاب التَّسْمِيَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ الْوِقَاعِ) وذكر بعده حديث الباب عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَبْلُغُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ **بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ** وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ)[1].

وقد أثار المشركون شبهة في هذا الأمر لما حرم الله الميتة ، وأحل الذبائح ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أَتَى أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَنَأْكُلُ مَا نَقْتُلُ وَلَا نَأْكُلُ مَا يَقْتُلُ اللَّهُ** ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ إِلَى قَوْلِهِ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)[2] ، قال الخازن (هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم)[3].

فالقرآن **عرض** – هنا – **الإجابة قبل أن يذكر الشبهة ، للاهتمام بالبيان ذاته** ، والتقليل من شأن هذه الشبهة ، وإنما ذكرها آنفا ليؤكد على أن كل ما يثيرونه من شبهات ليس إلا بغرض الجدال مع أهل الإيمان وحسب ، وبذلك يستبين سبب الإعراض عنهم كما في قوله (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام 106).

قوله (...إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) (118) لأن (الايمان بها يقتضي **استباحة** ما أحل الله **واجتناب** ما حرمه)[4] ، بمعنى أن التزام **أحكام الذبح على نحو ما شرع الله** تعالى هو في حقيقته **توحيد الألوهية** ، بفعل ما يأمر الله به ويرضاه ، واجتناب ما ينهى عنه ولا يرضاه .

وقد نوه الشعراوي في هذا الصدد إلى أن من يختار ما أحله الله من حيوان ليذبحه ويترك غيرها مما لم يحله كالخنزير ، فهذا قد **ذكر حكم الله بفعله** ، لأنه علم أن الله أحل له ذلك وحرم عليه ذاك)[5].

فتوحيد الألوهية يتحقَّق **بإفراد** الله تعالى بالعبادة **قولاً وفعلاً وقصدًا** بجميع أفعال عبادة الظاهرة والباطنة والبدنية والمالية ، سواءٌ كانت **عباداتٍ قلبيةً** :- من محبَّةٍ وخوفٍ ورجاءٍ وتوكُّلٍ ورغبةٍ ورهبةٍ، أو **عباداتٍ قوليةً** :من تكبيرٍ وتسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وقراءةِ قرآنٍ وغيرها من الأذكار، أو **عباداتٍ فعليةً** :- من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ ونذرٍ وغيرها من أنواع العبادات المشروعة، **وبإخلاصها** له وحده طاعةً له وتقرُّبًا إليه.

قوله (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) (119) قال ابن عاشور (ولم يفصح أحد من المفسرين عن وجه عطف هذا

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 244 رقم 138
[2]) رواه الترمذي ج10 ص 333 رقم 3995 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج7 ص 69 رقم 3069
[3]) تحفة الأحوذي ج8 ص 354
[4]) تحفة الأحوذي ج 8 ص 354
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2710

على ما قبله، ولا عن الداعي إلى هذا الخطاب، سوى ما نقل أن سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتحرجون من أكل الطيبات، تقشفا وتزهدا عن أكل اللحم ، وهذا يقتضي أن الاستفهام مستعمل في اللوم)[1]

قال الطبري (**ولا نعلم أحدا من سلف هذه الأمة كف عن أكل ما أحل الله من الذبائح**) [2]بيد أن في ذلك قصة مشهورة ، ما روي عَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ **وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا آكُلُ اللَّحْمَ** وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[3] ، قال السعدي في هذه الآية (**فلامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه**، وذكر السبب لهذا اللوم؛ وهو أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل)[4].

من هنا نفهم أن **محل اللوم هو تحريم ما أحله الله بالتحرج من أكله تقشفا**،وظنا أن ذلك يدخل في دائرة العبادة ، وهو ليس كذلك ،بل في ذلك مخالفة صريحة لحق الله الخالص في الحل والتحريم ، وإقحام الهوى في المسألة ، والحق واجب الاتباع مع تجريد الهوى ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ **وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**)[5]

قال صاحب الظلال (كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك في البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله؛ ويحلون ذبائح حرمها الله – ويزعمون أن هذا هو شرع الله! – فإن السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما **يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع** ، ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم ، **ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته** بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد)[6].

قال ابن تيمية (**أصل الدين أمران أحدهما عبادة الله وحده ، وضده الشرك وهو كثير عند النصارى ، والثاني حل الطيبات** التي يستعان لها على المقصود **وهو الوسيلة** ، وضدها تحريم الطيبات ، وهو كثير عند في اليهود ، وهما جميعا في المشركين)[7].

أما في الإسلام فنحن نعبد الله وحده بفعل ما أحبه ، ونستعين على ذلك بما أحله ، ففي الحديث [أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ][8] ، كما قال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) ، وهذا هو

---

[1]) ابن عاشور التحرير والتنوير ج7 ص 26 ،نقلا عن الألوسي في روح المعاني ج8 ص 14

[2]

[3]) رواه مسلم ج7 ص 175 رقم 2487

[4]) القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 119

[5]) رواه مسلم في صحيحه ج14 ص 24 رقم 5109

[6]) في ظلال القرآن ج3 ص 134

[7]) درء تعارض العقل والنقل ج4 ص 322 مع بعض التصرف

[8]) رواه البخاري في صحيحه ج1 ص 68 – وقال الألباني صحيح : السلسلة الصحيحة ج2 ص 541 رقم 881 – كما رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1ص 108 رقم 287 ، وقال الألباني حسن لغيره : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 125 ، ورواه في صحيحه ج1 ص 68

الدين الذي فطر الله عليه خلقه ، فإنه محبوب لكل أحد ، فإنه يتضمن الأمر بالمعروف الذي تحبه القلوب ، والنهي عن المنكر الذي تبغضه وتحليل الطيبات النافعة وتحريم الخبائث الضارة)[1].

مما تقدم نتعلم درسا تربويا في فائدة التمتع بالحلال ، ذلك أن من يأتي الحلال امتثالا لأمر الله تعالى هو من يجتنب الحرام ، ومن يضيق على نفسه في الحلال فقد يضطر – فيما بعد – أن يأتي الحرام ، لأنه أهمل النظر فيما أحله الله له على أنه رزق طيب ، ولا يزال جسده بحاجة إلى متطلبات خلقها الله فيه وفقا للميول الحيوانية ، فيميل إلى تلبيتها ، ولكن في غير ما أحل الله ، وهذا من تزيين الشيطان الباطل والبدع له ، بأن يحمله على الزهد عن الطيبات ، فيزين له الشهوات ، ثم يميل إليها لأنه قد زهد قبل ذلك عن الطيبات التي أحلها الله له .

قوله (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ...) (120) أي أن الواجب على المكلفين فعله اجتناب ما نهى الله عنه وليس الامتناع عما أحله لهم ، **فالامتناع الواجب فعله هو عن الحرام** ، وهذه القضية لابد وأن تكون الشغل الشاغل لكل مكلف ، **ولا حاجة لأن يخترع دينا غير دين الله سبحانه** يحرم فيه ما أحله الله له .

فكل ما نهى الله عنه هو إثم سواء في ظاهره أو باطنه ، قال تعالى : **(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)** [الأعراف : 33] ، قال أبو السعود (أي **ما يُعلن من الذنوب وما يُسَرّ**)[2] ، قال ابن عاشور (ظاهر الإثم ما يراه الناس، وباطنه ما لا يطلع عليه الناس ويقع في السر، وقد استوعب هذا الأمر ترك جميع المعاصي)[3].

وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا قَالَ ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ **وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا**)[4] .

قال القرطبي (وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من اتقى وأحسن)[5]؛ كما قال: (ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا)[المائدة: 93] ، وهذا **لا يتاتى إلا بإصلاح القلب** .

قال الغزالي (لله عليك مع الفرائض الظاهرة فرضا باطنا هو **تصحيح السرائر** واستقامة الإرادة وصدق النية ومفاتشة الهمة ونقاء الضمير من كل ما يكره الله ، **وعقد الندم على جميع ما مضى** من التواثب بالقلب والجوارح على ما نهى الله عنه)[6] .

---

[1]) درء تعارض العقل والنقل ج4 ص 322
[2]) تفسير أبي السعود ج2 ص 425
[3]) التحرير والتنوير ج7ص 29
[4]) رواه ابن ماجة ج12 ص 295 رقم 4235 وصححه الالباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 32 رقم 505
[5]) تفسير القرطبي ج7 ص 74
6) أبو عبد الله حارث بن أسد المحاسبي : آداب النفوس ج1 ص 40

قوله (..إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) (120) والاقتراف في الإساءة أكثر استعمالا [1]، كما في قوله (وليقترفوا ما هم مقترفون) ، (وأموال اقترفتموها) ، فظاهر النَّصِّ يدلُّ على أنَّه لا بُدَّ وأنْ يُعَاقب المذنب على الذَّنب ، إلا أنَّ المسْلِمين أجْمَعُوا على أنَّه إذا تاب ، ولم يُعاقب ، وأهْل السُّنَّة زادُوا شَرْطاً ، وهو أنَّه – تبارك وتعالى– قد يَعْفُو عن المذْنِب)[2]؛ لقوله تعالى (**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ**) [النساء 48].

قوله (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ..) (121) المقصود هو النهي عن أكل الميتة ، قاله ابن عباس وسعيد بن الجبير [3]، لأن الذبيحة المذكاة يذكر اسم الله عليها عند التذكية ، قال ابن عاشور (الفقهاء تأولوا قوله: (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) **بأنه أراد به الميتة** ، وبناء على فهم أن يكون قد ذكر اسم الله عليه عند ذكاته دون ما ذكر عليه اسم غير الله، أخذا من مقام الإباحة والاقتصار فيه على هذا دون غيره ، وليس في الآية صيغة قصر، ولا مفهوم مخالفة ، ولكن بعضها من دلالة صريح اللفظ ، وبعضها من سياقه ، وهذه الدلالة الأخيرة من مستتبعات التراكيب المستفادة بالعقل التي لا توصف بحقيقة ولا مجاز، وبهذا يعلم أن لا علاقة للآية بحكم نسيان التسمية عند الذبح، فإن تلك مسألة أخرى لها أدلتها وليس من شأن التشريع القرآني التعرض للأحوال النادرة)[4].

قوله (..وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ..) (121) أي قصد عدم ذكر اسم الله على الحيوان تعمدا عند ذبحه ، أو ذكر اسم غيره عليها ، قال أبو السعود (فإن الفسقَ ما أُهل به لغير الله)[5]، قال ابن كثير (الضمير عائد على الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه أو الذبح لغير الله)[6].

ثم ذكر حديث طعام الجن المسلم الذين قرأ عليهم القرآن ثم سألوه الزاد فَقَالَ (لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا)[7]

وحديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قَوْمًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَمُّوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ)[8]

بهذا يستبين أن التسمية تحل طعام الجن المسلم ، وتحل كذلك ذبائح أهل الكتاب متى ذكاها بالطريقة الإسلامية بأن أنهر الدم بقطع الودجين .

جاء في "فتاوى اللجنة الدائمة" : " الأصل في جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) فسر ابن عباس الطعام بذبائحهم ، وهو أحد التفسيرين للآية ، والكتابي إذا ذبح ذبيحة فإن علمنا أنه

---

[1]) أبو القاسم : الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ج1 ص 401
[2]) اللباب في علوم الكتاب ج7 ص 147 تفسير الرازي ج6 ص 458
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 371
[4]) التحرير والتنوير ج7 ص 25
قَالَ الشَّافِعِي : لاَ تَشْتَرِطُ التَّسْمِيَةُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ ، فَإِنْ تُرِكَتْ عَمْداً أَوْ سَهْواً فَلاَ ضَرَرَ فِي ذَلِك ، وَيَحِلّ الأَكْلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ . وَقَالَ إِنَّ المُحَرَّمَ هُوَ مَا ذُبِحَ لِغَيرِ اللهِ ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ قُرَيْشٍ مِنْ نَحْرِ الذَّبَائِحِ لِلأَوْثَانِ .
- وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ تَرْكُ التَّسْمِيَةِ نِسْيَاناً لاَ يَضُرُّ ، أَمَّا تَرْكُها عَمْداً فَيَجْعَلُها غَيْرَ حَلاَلٍ .
(أيسر التفاسير لأسعد حوكد ج1 ص 911)
[5]) تفسير أبي السعود ج2 ص 425
[6]) تفسير ابن كثير ج3 ص 324
[7]) رواه مسلم ج2 ص 458 رقم 682
[8]) رواه البخاري ج7 ص 211 رقم 1916

ذكر اسم الله عليها جاز أكلها ، وإن علمنا أنه ذكر اسم غير الله فلا يجوز أكلها ، لعموم قوله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) ، وقوله سبحانه في المحرمات : (وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) ، وإن جهلنا فلا ندري هل ذكر اسم الله عليها أو ذكر اسم غيره ، فالأصل في ذبائحهم الحل ".

فإذا عُلم أن الكتابي يذكر اسم غير الله ويقول : باسم الأب والابن وروح القدس ، لم تحل ذبيحته ؛ لأنها مما أهل بها لغير الله ، ولا يفيده أنه يقصد بالأب الله – كما في سؤالك – لأن قوله : والابن وروح القدس إهلال لغير الله ، والتقدير : وباسم الابن ، وباسم روح القدس ، فلا تحل الذبيحة مع هذه التسمية)[1].

قوله (..وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (121) فعن بن عباس قال (يوحي الشيطان إلى أوليائهم من المشركين أن يقولوا **تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله** ، فقال (إن الذي قتلتم يذكر اسم الله عليه وإن الذي مات لم يذكر اسم الله عليه) [2] .

فوحي الشيطان يعني **إلقاء تلك الشبهة** ، قال الماوردي (يعني **المجادلة في الذبيحة**)[3] ، قال ابن عاشور (والمراد هنا المجادلة في **إبطال أحكام الإسلام وتحبيب الكفر وشعائره**، مثل قولهم: كيف نأكل ما نقتل بأيدينا ولا نأكل ما قتله الله)[4] ، وهذه الشبهة التي يليقها الشيطان ليجادل أهل الإيمان نابعة عن جهل بأن **الله تعالى هو الذي أمات في الحالين** ، وليس الأمر مقصورًا على حالة منهما ، **فالمباشر للذبح ليس هو الذي أمات** ، بل هو مجرد سبب ، وليس له فاعلية ولا قدرة إلا بإذن الله ، مثلما طرح إبراهيم عليه السلام ابنه ليباشر الذبح — بأمر من الله – ولكن الله لم يجعل للسكين قدرة على ذلك روي ابن جرير الطبري أنه – أي إبراهيم حينما أقبل على ابنه– (..ثم إنه جرّ السكين على حلقه، فلم تَحِكِ السكين)[5]أي (فلم تنحر)[6].

قوله (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ [7]إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) قال العلماء (وجه الشرك هنا هو الطاعة في التشريع، بتحليل الميتة التي حرم الله أكلها ؛ فإن من أطاع من حلل الحرام ، فقد جعله شريكا لله في التشريع، كما قال تعالى (**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**) (الشورى 21) ،وقد كان المشركون يرون حل الميتة، ويُثيرون شبهة في ذلك، وهو أن الميتة قد ذبحها الله!

---

[1]) اللجنة الدائمة للفتوى بالمملكة العربية السعودية (ج22ص 387)

[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 374، الدر المنثور للسيوطي ج4 ص 124، تفسير الطبري ج12ص81

[3]) النكت والعيون ج1 ص 436

[4]) التحرير والتنوير ج7 ص 25
قَالَ الشَّافِعِي : لاَ تَشْتَرِطُ التَّسْمِيَةُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ ، فَإِنْ تُرِكَتْ عَمْداً أَوْ سَهْواً فَلاَ ضَرَرَ فِي ذَلِكَ ، وَيَحِلّ الأَكْلُ مِنَ الذَّبِيحَةِ . وَقَالَ إِنَّ المُحَرَّمَ هُوَ مَا ذُبِحَ لِغَيرِ اللهِ ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ قُرَيْشٍ مِنْ نَحْرِ الذَّبَائِحِ لِلأَوْثَانِ .
- وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ نِسْيَاناً لاَ يَضُرُّ ، أَمَّا تَرْكُها عَمْداً فَيَجْعَلُها غَيْرَ حَلاَلٍ .
(أيسر التفاسير لأسعد حوكد ج1 ص 911)

[5]) تفسير الطبري ج21 ص 74

6) انظر السيوطي :الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج8 ص 347 وقد عزا هذه الرواية لابن أبي حاتم وليست عنده وإنما حصل الوهم مماتقله عن ابن كثير في البداية والنهاية فيما رواه عن ابن عباس من حديثين أحدهما في جزء من القصة والآخر عن ابي حاتم في جزء آخر من القصة

7) قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة ، إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة علمنا أن المراد من ذلك العموم هو هذا الخصوص ، ومما يؤكد هذا المعنى هو أنه تعالى قال : { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } فقد صار هذا النهي مخصوصاً بما إذا كان هذا الأمر فسقاً ، ثم طلبنا في كتاب الله تعالى أنه متى يصير فسقاً؟ فرأينا هذا الفسق مفسراً في آية أخرى ، وهو قوله : { قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله به } [الأنعام : 145] فصار الفسق في هذه الآية مفسراً بما أهل به لغير الله ، وإذا كان كذلك كان قوله : { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } مخصوصاً بما أهل به لغير الله (تفسير الرازي ج6 ص 460)

فأخبر الله أن من أطاعهم في تحليل هذا الحرام: كان مشركا، وهذا الشرك في الطاعة عام في كل من أطاع غيره في تحليل الحرام المجمع عليه، أو تحريم الحلال المجمع عليه) [1].

ولذلك **ذم الإسلام طاعتهم واتباعهم** ، فقال رسول الله ﷺ (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ)[2] ، قال ابن حجر (ودخول الجحر تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهى الشرع عنه) [3]، قال المناوي (والمقصود أن هذه الأمة تتشبه بأهل الكتاب في كل ما يفعلونه حتى لو فعلوا هذا الذي يخشى منه الضرر البين لتبعوهم فيه)[4].

كما أمر الإسلام بمخالفتهم في العادات ، فأضحت **مخالفتهم في عاداتهم عبادة لله** ، قال رسول الله ﷺ (خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللِّحَى)[5]، وقال ﷺ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى فَإِنَّ تَسْلِيمَ الْيَهُودِ الْإِشَارَةُ بِالْأَصَابِعِ وَتَسْلِيمَ النَّصَارَى الْإِشَارَةُ بِالْأَكُفِّ)[6]، وسواء في المظهر أو في المخبر ، قال ﷺ (صلوا في نعالكم ولاتشبهوا باليهود)[7].

---

[1]) الشيخ محمد صالح المنجد : الإسلام سؤال وجواب : https://islamqa.info/ar/answers/300269/
[2]) رواه البخاري ج11 ص 272 رقم 3197
[3]) فتح الباري ج13 ص 301
[4]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 563
[5]) رواه مسلم ج2 ص 72 رقم 382
[6]) رواه الترمذي ج9 ص 317 رقم 2619 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج5 ص 227 رقم 2194
[7]) المعجم الكبير للطبراني ج7 ص 290 رقم 7180 وصححه الالباني : ج1 ص 724 رقم 7238

المطلب الخامس

الرسل حجة الله علي قومهم

قال تعالى (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ **وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ** فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ **أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا** لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ **الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** (125) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ **فَصَّلْنَا الْآيَاتِ** لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا **مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ** وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ أَنْ **لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** (131) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ** كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَا قَوْمِ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ** إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

قوله (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ..)(122) قال ابن تيمية (هَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ كَانَ مَيِّتًا فِي **ظُلْمَةِ الْجَهْلِ** فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ **وَنُورِ الْإِيمَانِ** وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ)[1].

يقول الحق:(**استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**) [الأنفال 24] ،(فالقرآن نور وروح، فكلما عظم في قلب العبد هذا النور تبددت الشبهات، وانقشعت الظلمات، وزالت كل المكدرات، وكلما خفي هذا النور كلما التبس الأمر على الإنسان، وضل وأصيب بالحيرة والوسوسة والتيه والاضطراب والتناقض)[2].

وذكر القرطبي أن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شيء حتى أن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله [3]، وقد أشار عباس العقاد إلى أن أهل الجاهلية كان منهم من يأد بنته فيقتلها مخافة أن يلحقه العار [4]، وقد أنزل الله في ذلك قرآن (**وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت**) ، وقال رسول الله ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ**

---

[1]) مجموع الفتاوى ج19 ص 94
2) خالد المصلح شرح العقيدة الطحاوية ج11 ص 2
[3]) فتح الباري لابن حجر ج10 ص 384
4) عبقرية عمر بن الخطاب) ص/221

الْبَنَاتِ)[1]، فكانت قلوبهم من القسوة بحيث يفعلون ذلك في بناتهم ، وكذلك عقولهم لم تسلم من السفه حيث كانوا يصنعون أصناما من العجوة فإذا جاعوا أكلوها ، وأحيانا يخبئون عين الصنم الأكبر حتى لا يراهم وهم يأكلون الصنم الأصغر ، وهكذا كانوا في موات كما أشارت الآية ، لكن الله تعالى أحيا هذه القلوب بنور الإيمان والإسلام ، قال ابن القيم (أبصر الحق بعد عماه عنه وعرفه بعد جهله به واتبعه بعد إعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضيء به فيمشي بنوره بين الناس وهم في سدف الظلام)[2] .

فلما أعز الله المسلمين بالإسلام تذاكروا ما كان منهم أيام الجاهلية فضحكوا ، فعَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ نَعَمْ كَثِيرًا كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ **وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ** ﷺ)[3]، قال العلماء في الشرح (من جملة ما يتحدثون به أنه قال واحد ما نفع أحدا صنمه مثل ما نفعني قالوا كيف هذا قال صنعته من الحيس فجاء القحط فكنت آكله يوما فيوما ، وقال آخر رأيت ثعلبين جاءا وصعدا فوق رأس صنم لي وبالا عليه فقلت أرب يبول الثعلبان برأسه فجئتك يا رسول الله وأسلمت)[4].

قوله (..وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) قال ابن تيمية (فَالنُّورُ الَّذِي يَمْشِي فِي النَّاسِ هُوَ الْبَيِّنَةُ وَالْبَصِيرَةُ .. وَهُوَ نُورُهُ الَّذِي فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ **النَّاشِئِ عَنْ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ** ، قَالَ تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) فَهَذَا النُّورُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ وَشَرْحُ الصَّدْرِ لِلْإِسْلَامِ هُوَ الْبَيِّنَةُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ الْهُدَى)[5]

وهكذا تأثير الإسلام على المؤمن ، فإذا أنار الله له الطريق الإسلام ، وعلم أن القرآن هو ذلك النور فاستضاء قلبه به وانشرح صدره له ، **فإنه يفيد غيره بهذا النور فيضيء له الطريق** ، ولذلك فإن النبي ﷺ كان يوصي عليا عندما يخرج للجهاد في سبيل الله بأن يجعل نيته هي الدعوة إلى الله لهذا النور ، فلما أعطاه الراية قَالَ عَلِيٌّ (يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ **فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)**[6] .

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ** بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ)[7]، الخليفة الثاني للمسلمين فاتح بيت المقدس ومصر .

قال ابن القيم (**مضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء ولم تلتبس به ظلم الآراء** ، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم)[8]

---

1) رواه البخاري ج8 ص 251 رقم 2231
2) إغاثة اللهفان ج1 ص 21
3) رواه مسلم ج11 ص 461 رقم 4286
4) تحفة الأحوذي ج10 ص 178 وهو منقول عن القاري من أكثر من مصدر منه ، مشكاة المصابيح للتبريزي مع شرحه مرعاة المفاتيح للمباركفوري ج3 ص 598
5) مجموع الفتاوى ج15 ص 63
6) رواه البخاري ج12 ص 37 رقم 3425
7) رواه أحمد في مسنده ج11 ص 474 رقم 5437 والترمذي 141/12رقم3614وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 204 رقم 2907

وقال صاحب الظلال (. . كانت قلوبهم مواتا ، وكانت أرواحهم ظلاما . . ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز ، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء ، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس ، تهدي الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد ، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد ، **الإنسان المتحرر المستنير؛ الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد!**)[1].

قوله (..كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا..) هو مثال للكافر الذي يعيش في **ظلمات متعددة** ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، فكل ظلمة غشاوة على قلبه وعينيه ، تحول بينه وبين قبول الحق والخروج إليه ، **فالكبر ظلمة والشهوات ظلمات ، والكره والحقد والحسد كل ذلك ظلمات** ، قال الألوسي (جمعت "الظلمات" لتعددها في الواقع ، فهي إن كانت ظلمة واحدة لكنها لشدتها أستعير لها صيغة الجمع مبالغة ، ومن اللطائف أن الظلمة حيثما وقعت في القرآن وقعت مجموعة والنور حيثما وقع وقع مفردا ، نحو الكفر والإيمان ، فالقليل من الكفر كثير ، والكثير من الإيمان قليل ، فلا ينبغي الركون إلى قليل من ذاك ، ولا الإكتفاء بكثير من هذا ، وأيضا فإن أصل الظلمة – بهذا المعنى– قلوب الكفار ، **ولأنها أهواء شتى** ، صيغة الظلمة بصيغة الجمع (وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) ، بينما مصدر النور المشرق ، بذلك المعنى قلوب المؤمنين فهي كقلب رجل واحد)[2].

فالآية تعقد مقارنة بين حال هذا الكافر ، وذلك المؤمن ، قال ابن القيم (جمع –للمؤمن– بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة)[3] ، فالكفر ظلمات قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا **يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ **يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة : 257]... قال الشعراوي (يترك الحق سبحانه وتعالى في أقضية الكون الحسية أدلة على الأقضية المعنوية؛ فالنور الذي نراه يجعل الإنسان يرى الأشياء ، ..ويوضح الله أن **الإنسان بدون قيم هو ميت** ، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية)[4] .

وقد أثار ابن عاشور التساؤل كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضلالات، ولم يشعروا بالبون بين حالهم وحال الذين أسلموا ؛ فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم ، فكيف لما دعاهم الإسلام إلى الحق ونصب لهم الأدلة والبراهين بقوا في ضلالهم لم يقلعوا عنها ، فتجيب الآية بأن ذلك بسبب تزيين الشيطان المعصية لهم [5].

قوله (كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (122) أي (زين لهم أعمالهم من الكفر والمعصية)[6] ، قال أهل السنة ، المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله (زينّا لهم أعمالهم) ولأن **حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي** وحصوله لا

---

[8]) الصواعق المرسلة ج3 ص 1070
1) في ظلال القرآن ج3 ص 139
2) روح المعاني ج1 ص 168 مع شيء من الاختصار والتصرف
[3]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 450
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2718
5) في هذا المعنى ابن عاشور التحرير والتنوير ج7 ص 35
6) تفسير البغوي ج3 ص 185 وكذا تفسير القاسمي

يكون إلا **بخلق الله** تعالى ، فدل ذلك على أن **المزين هو الله تعالى**)[1]، يدل عليه قوله (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ** حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران 14) .

وقيل أن **المزين هو "الشيطان" إذا نسب للعمل** لقوله (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) (النمل: 24) ، أي أن الله هو الخالق للفعل ، والإنسان هو المباشر للفعل باختياره .

قال طنطاوي (مثل ذلك التزيين الذى تضمنته الآية – وهو تزيين نور الهدى للمؤمنين وظلمات الشرك للضالين قد زين للكافرين ما كانوا يعملونه من الآثام كعداوة النبى ﷺ وذبح القرابين لغير الله – تعالى – وتحليل الحرام ، وتحريم الحلال وغير ذلك من المنكرات)[2].

وجمع الشعراوي بين القولين فقال (والمعنى هنا أي **تركناهم عرضة لأن ينفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة في اختيارهم**؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حرًّا للإنسان)[3] (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) [الكهف: 29] ، أي أن الله سبحانه **يزين لهم أمور بمقتضى "الجبلة" لتكون اختبارا وابتلاء لهم ، ويزين لآخرين أعمالهم السيئة ، وهم في طريق الضلال ليمدهم في طغيانهم يعمون "عقوبة" لهم على اختيار الضلال ابتداءً** ، فيكون الاستدراج بالتزيين عقوبة لهم .

قال صاحب الظلال (والذي **ينشئ هذا التزيين ابتداء هو مشيئة الله** التي أودعت فطرة هذا الكائن الإنساني الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة ، تبتليه بالاختيار للظلمة أو النور ، **فإذا اختار الظلمة زينت له**؛. . والقلب الذي ينقطع عن الحياة والإيمان والنور ، يسمع في الظلمة للوسوسة ؛ ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام العميق! . . وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . .وبذات الطريقة ، ولذات الأسباب ، وعلى هذه القاعدة جعل الله في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . . ليتم الابتلاء ، وينفذ القدر؛ وتتحقق الحكمة؛ ويمضي كل فيما هو ميسر له ، وينال كل جزاءه في نهاية المطاف)[4] .

قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ...) (123) أكابر المجرمين هم الذين يعيشون في الظلمات ولا يريدون الخروج منها لتزيين الشيطان تلك الظلمات لهم ، قال ابن عاشور "الجعل" : (بمعنى الخلق ووضع السنن الكونية، **وهي سنن خلق أسباب الخير وأسباب الشر في كل مجتمع**، وبخاصة القرى)[5]، وذلك لأن الحياة الدنيا لابد فيها من الابتلاء والاختبار ، ولا يتحقق الاختبار إلا بوجود النقيض ، أي الخير والشر.

---

1) تفسير الخازن ج2 ص 451
2) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1531
3) تفسير الشعراوي ج1 ص 2719
4) في ظلال القرآن ج3 ص 139
5) التحرير والتنوير ج7 ص 36

قال الشنقيطي (بين المراد **بالأكابر** في موضع أخر بأنهم هم **أهل الترف** ، والنعمة في الدنيا، وهو قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ **إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**) [سبأ 34]، وقوله (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) [الزخرف 23])[1]

قال الزمخشري ومعناه : (**خصّ الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال** والماكرون بالناس)[2]، يقول الشيخ رشيد رضا (هذه الآية تحكي عن أمر مطَّرد في تاريخ الأمم وسير الدعوات ، إن سنة الله – تعالى – في الاجتماع البشري، قد مضت بأن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة أو كل قرية أو بلدة بعث فيها رسول أو بلدة مطلقاً **رؤساء وزعماء يمكرون فيها** بالرسل في عهدهم وبسائر المصلحين من بعدهم)[3].

قوله (..وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (اعتراضٌ – على سبيل الوعدِ لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيدِ للكفرة – أي (وما تحيقُ غائلةُ مكرِهم إلا بهم)[4]، قال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً **أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا** فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ **فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**) (الإسراء 16) .قال ابن كثير "كما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين والرؤساء ودعاة الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة" [5]

قال القطان (لا تعجب أيها النبيُّ إذا رأيتَ أكابر المجرمين في مكة يدبّرون الشر ويتفنّنون فيه ، ..فعاقبة هذا المكر والإجرام لاحقة بهم ، منصّبه عليهم)[6] .

يقول الشيخ نايف بن شحود (فما من دعوة إصلاح إلا وتصدى المجرمون الأكابر لحربها وتصدروا لمقاومتها، ولكنهم في النهاية – ومن حيث لا يشعرون – **يسهمون إسهاماً مباشراً وأساسياً في إنعاشها وإحيائها ،بل وفي تقويتها وإكسابها الصلابة والصلادة**... كيف...؟!

تأمل هذه الآية، واستعرض تاريخ الرسالات والدعوات، تجد أن أكابر المجرمين يتسببون، فيما يبذلون من الضغوط والملاحقة والمطاردة لنبتات الإيمان المستضعفة، يتسببون في تقوية عودها، وإثراء روافدها، وتكثير المتعاطفين معها، ثم في غربلة عناصرها وتنقية صفوفها من الشوائب ، وقد يعجب المرء من نسبة كل هذه الإيجابيات التي تلحق بالدعوات إلى أفاعيل أعدائهم، ولكن هذا العجب يزول، عندما نعلم أن **هؤلاء المجرمين يمثلون أداة الابتلاء التي تُطهر بها الصفوف، وتصهر فيها المعادن** ، قال تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه، حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فآمنوا بالله ورسله) [آل عمران 179] ، فدعوة الرسل – على مر التاريخ – تبتلى بالمجرمين، ثم تكون العاقبة للمتقين)[7].

---

[1]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج1 ص 491
[2]) الكشاف ج2 ص 169
3) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا 132/8
[4]) تفسير أبي السعود ج2 ص 427
5) تفسير ابن كثير 164/2
[6]) تفسير القطان ج2 ص 4
[7]) المفصل في فقه الدعوة ج18 ص 101

قوله (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) هؤلاء المجرمين وإن شئت قلت أكابر المجرمين لم تكفهم معجزة القرآن الكريم ، وإنما يطلبون أن يأتيهم الرسول بمعجزة من اقتراحهم ، تماثل عصا موسى التي شق بها البحر أو يد عيسى التي تشفي المرضى بإذن الله ..الخ كما في قولهم (**فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**) [الأنبياء: 5] ، فهم يجهلون (الحكمة الإلهية في تصريف المعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم)[1].

وحالهم اليوم ليس طلب معجزة مقترحة ، بل أن ينزل الله عليهم الكتاب مباشرة ويكلمهم الوحي كما يكلم الأنبياء ، قال الله (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً) [المدثر:52] ، فحالهم من معجزة القرآن كأنهم يستصغرونها لطلبهم غيرها أو يستصغرون النبي المرسل به – استكبارا عن الحق وإعراضا عنه – ، كما في قوله (**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف 31-32) ، فمعجزة القرآن هي الرحمة التي يُرزقها من يتلمس هذا الكتاب ويسير على نهجه ، ولكنهم غافلون عنها .

قوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) قال الشيخ أبو بكر الجزائري (إنه يجعلها في **القلوب المشرقة والنفوس الزكية** ، لا في القلوب المظلمة والنفوس الخبيثة)[2]، قال ابن عجيبة (عَلِم أن محمدًا ﷺ أهل للرسالة ، فخصه بها ، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها ، فحرمهم إياها)[3].

وكأن هؤلاء المشركين يستكثرون على النبي محمد ﷺ أن يكون مرسلا من ربهم ، بل ويطلبون أن تكون الرسالة فيهم هم ، فيكونون هم أصحاب هذه الدعوة ، **فيكون لهم الفضل على الناس** ، غير آبهين لبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ، هؤلاء الصحابة الذين ليس لهم نسب من قريش .

والله تعالى يرد على هؤلاء المستكثرين على النبي ﷺ الرسالة ، بأنه أعلم بحال نبيه ومصطفاه ، فهو من حيث النسب أشرفهم نسبا ، ومن حيث القلب أطهرهم قلبا ، فمن حيث النسب قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي **مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**)[4].

وعن الْعَبَّاس أن رَسُول اللَّهِ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ (مَنْ أَنَا) قَالُوا أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ (أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ** وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا **فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا**)[5] .

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 40
[2]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 431
[3]) البحر المديد ج2 ص 200
[4]) رواه الترمذي ج12 ص 51 رقم 3538 وصححه الالباني : صحيح الترمذي ج3 ص 189 رقم 2855
[5]) رواه أحمد في مسنده ج4 ص 219 رقم 1692 وصححه الألباني : صحيح السيرة النبوية ج1 ص 11

قوله (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)(124) أي أن هؤلاء المجرمين سينالوهم الجزاء من جنس العمل ، فكما استصغروا غيرهم واستكثروا على النبي ﷺ شرف الرسالة ، فإن الصغار يلحقهم ، قال الرازي (وإنما قدم ذكر الصغار على ذكر **الضرر** ، لأن القوم إنما **تمردوا** عن طاعة محمد عليه الصلاة والسلام **طلباً للعز والكرامة** ، كما في قوله (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ **آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا** * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ **وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**) (مريم 81-82) ، فالله تعالى بين أنه **يقابلهم بضد مطلوبهم** ، فأول ما يوصل إليهم إنما يوصل الصغار والذل والهوان)[1].

وللصغار صور عدة أقلها أنهم بعد أن كانوا يصدون عن السبيل ويحاربون أهل الإسلام يتغير حالهم ويصالحون المسلمين على أداء **الجزية** ، (فعند الحنابلة **عندما يدفع الكافر الجزية يشعر بالامتهان** ، لاسيما أنه لا يقبل منهم إرسالها ، بل يحضرونها ، فيؤديها الذمي وهو "صاغر" غير "متكبر"، فالتزامهم "الجزية" يعني جريان أحكام المسلمين عليهم)[2]، قال ابن عاشور (هم أذلاء وهذه حال لازمة لإعطاء الجزية عن يد، والمقصود منه تعظيم أمر الحكم الإسلامي وتحقير أهل الكفر)[3] ، وإن كان الفقهاء قد أصلوا لمفهوم الجزية ، بما يجعلها بدلا للتجنيد الإجباري ، إذ لا يستعان بمشرك في قتال قوم من ملتهم.

قوله (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) فحقيقة الهدى **انشراح الصدر** لكلام الله ، فيقبل أحكامه وأوامره ونواهيه **وهو مستسلم لها** غير منزعج منها ولا متأفف ، ولذلك قال العلماء « **لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ** »[4]، قال الشعراوي (أي يصبح **ما يشتهيه موافقاً لمنهج الله** ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوي)[5] .

قال إسماعيل حقي "شرح الصدر" (**كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيأة بحلوله** ، صافية عما يمنعه وينافيه) ، فالمعنى : (من أراد الله منه الإيمان **قوَّى صوارفه عن الكفر ودواعيه إلى الإيمان** وجعل قلبه قابلاً لحلول الإيمان مهيئاً لتحليه به صافياً خالياً عما ينافيه ويمنعه)[6] .

فعَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ

لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا)[7]

---

[1]) تفسير الرازي ج6 ص 466

2) سعدي أبو جيب : القاموس الفقهي ج1 ص 212، دار الفكر دمشق سوريا، مع بعض التصرف وإعادة الترتيب بين الجمل

[3]) التحرير والتنوير ج10 ص 68

[4]) رواه النووي مرفوعا في كتاب الحجة بإسناد صحيح وقال حسن صحيح ، الأربعون النووية الحديث الحادي والأربعون ، وضعفه الالباني : ظلال الجنة ج1 ص 7 رقم 15 ومشكاة المصابيح ج1 ص 36 رقم 167

[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2730

[6]) تفسير روح البيان ج3 ص 77

[7]) رواه البخاري ج9 ص 428 رقم 2625

ونظير ذلك قوله تعالى (**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**)(الزمر 22) ، قال العلماء (وعلامة هذا النور التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله)[1].

قال ابن تيمية في هذه الآية (تلك هي الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ)[2]، وقال ابن تيمية (فالإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية والارادة الدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعا ودينا)[3].

وقد أراد الله أن يكون محمد ﷺ نبيا ورسولا ، ولذلك فقد **شرح الله صدره لهذه الرسالة منذ الصغر** ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ **فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ** فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ) [4].

قال ابن حجر (كان هذا في زمن الطفولية فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في اكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير **ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء** ليتأهب للمناجاة ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ **بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه** ﷺ ، وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك)[5].

والمعنى أن الله تعالى اصطفى محمد بالرسالة وطهره وزكاه لها ، فيسر الله له هذا الطريق حتى وصل إلى درجة النبوة ثم يسر له طريق الدعوة حتى بلغ الرسالة ، وهكذا تكون معية الله بعباده المتقين ، كما في قوله سبحانه لنبيه موسى وهو في المهد (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) (القصص 39) .

قوله (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ..) (125) أي في الفرض العكسي لما تقدم ، فالذي يختار طريق الضلال ابتداءً ينذره الله ويرسل له الرسل ، **فإن أبى وعاند واستكبر ، أمده الله في طغيانه حتى العمه** ، كما في قوله تعالى (**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) (الصف: 5)، **فيشعر بثقل في صدره من أحكام الله والتكاليف الشرعية** ، يقول الإمام البيهقي (يجعل الإسلام عليه ضيقا والإسلام واسع ، وذلك حيث يقول (وما جعل عليكم في الدين من حرج) يقول : (ليس في

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 346 رقم 7863 ، وهو ضعيف مرفوعا
[2]) مجموع الفتاوى ج18 ص 132
[3]) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ج1 ص 83
[4]) رواه مسلم ج1 ص 387 رقم 236
[5]) فتح الباري لابن حجر ج7 ص 205

الإسلام من ضيق)[1]، وذلك مثل قول نوح عليه السلام لقومه : (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) .

وإرادة الضلال هنا معناها الإرادة الكونية ، أراده كونا ولم يرده شرعا ، قال تعالى (**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**) (الزمر 7) ، (والإرادة الكونية مرادفة للمشيئة)[2] قال – تعالى – "لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ*وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [التكوير:28-29] ، و(الفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية أن **الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبا لله**)[3].

قال ابن عثيمين (الإرادة الكونية أعم مطلقاً لأن كل مراد شرعي وقع فهو مراد كوناً ، وليس كل مراد كوني وقع مراداً في الشرع ، فإيمان أبي بكر رضي الله عنه مثلاً تحقق فيه الإرادتان ، وما تحققت فيه الإرادة الكونية فقط مثلاً كفر أبي جهل ، وما لم يتحقق فيه الإرادة الكونية وإن كان يراد شرعاً إيمان أبي جهل)[4].

قوله (..يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (125) فالآية تُشَبِّه حال الكافر عندما يرى أحكام الإسلام بمن يصعد جبلا ، فيشق عليه صعوده ، فكلما صعد ضاق صدره لصعوبة التنفس وقلة الأكسجين كما هو ثابت علميا ، أي أنه لا يسعد بدين الله ويضيق صدره من التوحيد وأحكام الإسلام ، ويشعر بالاشمئزار وكآبة من أخلاق الإسلام وآدابه وتعاليمه ، كما ذكر تعالى فقال (**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**) (الزمر 45)

قال أسعد حومد (فَإِذَا طُلِبَ إِلَيْهِ التَّأَمُّلُ فِيمَا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنْ دَلاَئِلِ التَّوْحِيدِ وَالنَّظَرِ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ ، وَجَدَ فِي صَدرِهِ ضِيقاً عَنْ ذَلِكَ ، فَيَكُونُ مِثْلُهُ فِي ضِيقِ الصَّدْرِ مَثَلُ مَنْ يَصْعَدُ إِلى الطَّبَقَاتِ العُلْيا مِنَ السَّمَاءِ إِذْ يَشْعُرُ بِضِيقٍ فِي التَّنَفُّسِ ، وَكُلَّمَا تَزَايَدَ صُعُودُهُ تَزَايَدَ شُعُورُهُ بِضِيقٍ فِي التَّنَفُّسِ ، وَكَمَا يَجْعَلُ اللهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلاَلَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّنْ أَبَوا الإِيمَانَ ، فَيَغْوِيهِ ، وَيَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)[5].

قوله (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا..) (126) عن عبد الله في قوله عز وجل (الصراط المستقيم) قال : (هو كتاب الله) [6] ، فالمعنى يتضمن **الإرشاد للاعتصام بكتاب الله** ، فعن سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيَّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ (قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ)[7] ، قال العلماء (متى استقام القلب على **معرفة الله** وخشيته ، وإجلاله ، ومهابته ، ومحبته ، وإرادته ، ورجائه ، ودعائه ، والتوكل عليه ، **والإعراض عما سواه** ، استقامت الجوارح كلها على طاعته ، فإن

---

1) الأسماء والصفات للبيهقي ج1 ص 398
2) شرح العقيدة الطحاوية لعبد العزيز الراجحي ج1 ص 22
3) محمد الخميس : اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث ج1 ص 119 وزارة الأوقاف والإرشاد والدعوة بالمملكة العربية السعودية
4) أبو عبد الله / علي العلي الكعبي: تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ج1 ص 28 – الشيخ محمد بن عثيمين : شرح العقيدة السفارينية ج1 ص 253
5) أيسر التفاسير ج1 ص 915
6) المستدرك على الصحيحين ج2 ص 284 رقم 3023 ، وانظر تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 385 حديث رقم 7911 عن علي
7) رواه ابن ماجة ج11 ص 468 رقم 3962 وصححه الالباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 358 رقم 3208

القلب ملك الأعضاء وهي جنوده ، فإذا استقام الملك استقامت)[1] ، قال القشيري (الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها)[2].

فـ(الاستقامة **وسط بين طرفين** ، فهي **الاعتدال بلا اعوجاج** كما قال الله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا) [الكهف:1-2] أي: (ليس فيه عوج، لا في يمين ولا في يسار، وليس فيه هبوط ولا صعود، بل اعتدال واستقامة)[3] .

وتتطلب "الاستقامة" "الاستعانة" بالله ، فعن أَبِي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ قَالَتْ كَانَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ **اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ** إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [4].

قوله (..قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (126) أي (بيناها ولم نترك فيها إجمالاً ولا التباساً) [5]، (وكأن الآيات كانت شيئاً غائباً عنهم لم يذكروها فلما فُصِّلت تذكروها)[6]

والمخاطب بذلك قوم يذكرون ، قال ابن كثير أي: (**لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله**)[7]، قال الشعراوي (ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » فكلنا متكافلون في التذكير ، وهذا التكافل يعصم كل مؤمن من نفسه؛ فإن حصل قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى عند فلان يعدله غيره)[8].

والمعنى أنه (لا عذر لأحد في التخلّف عن الإيمان لأن الله تعالى قد بيّن طريق الهدى ، وقد بيّن العلامات في ذلك لمن كان له عقل وتمييز)[9].

وقد ورد في ذات السورة نظير هذه الآية في قوله (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ **فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (97) وقوله (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** (98) وقوله (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (99) ، فجاء وصف القوم تارة بأنهم (يعلمون) ، وتارة بأنهم (يفقهون) ، وهنا وصفهم أنهم (يتذكرون) ، قال الشوكاني (فإن **من تذكر اعتبر ، ومن اعتبر ، استدلّ على المطلوب**) [10].

---

1) إسماعيل بن محمد الأنصاري الباحث في دار الإفتاء بالسعودية : التحفة الربانية شرح الأربعين النووية ج22 ص 1
2) الديباج على مسلم ج1 ص 55
3) عطية بن محمد سالم : شرح الاربعين النووية ج47 رقم 6
4) رواه مسلم ج4 ص 168 رقم 1289
5) أبو حيان : البحر المحيط ج5 ص 261
6) أبو حيان : البحر المحيط ج5 ص 261
7) تفسير ابن كثير ج3 ص 337
8) تفسير الشعراوي ج1 ص 2735
9) بحر العلوم ج2 ص 77
10) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 207 تفسير سورة النحل الاية 13

قوله (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (127) جعل سبحانه "السلام" لفظا يدل على "**الطمأنينة**" وقوله " وَهُوَ وَلِيُّهُمْ " زاد من **الطمأنينة** وأكدها ، فالمعنى أن "السلام" تصاحبه "الطمأنينة" ، قال الرازي (بين أنه تعالى وليهم بمعنى الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة)[1].

وقد حقق الشعراوي **معنى دار السلام بمقارنتها بدار الدنيا** ، فأشار إلى أن هناك فارق بين دار الدنيا ودار السلام في الآخرة ، (ففي الدنيا قد يناوئك غيرك فيها ويعاديك ، **وقد تأتي لك مكدرات كالمرض ، ومعكرات كالأعداء** ، كل ذلك ينغص الأمن والسلام في الدنيا)[2]، بينما في الآخرة فإنها موصوفة بأنها دار السلام ، فلا يكدرها شيء من ذلك.

وقد أرشد الله إلى أن **الولاية جزاء العمل** ، ويفسره قول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[3].

قال الرازي قوله (وَهُوَ وَلِيُّهُم) يدل على قرب الله منهم ، **ولا نرى في العقل درجة للعبد أعلى من هذه الدرجة** ، وأيضاً يفيد الحصر ، أي لا ولي لهم إلا هو ، وكيف **وهذا التشريف إنما حصل على التوحيد** .. فهؤلاء الأقوام عرفوا أن المدبر والمقدر ليس إلا هو ، وأن النافع والضار ليس إلا هو ، وأن المسعد والمشقي ليس إلا هو .. ، فلما عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه ، فما كان رجوعهم إلا إليه ، وما كان توكلهم إلا عليه ، وما كان أنسهم إلا به ، وما كان خضوعهم إلا له ، فلما صاروا بالكلية ، لا جرم قال تعالى (وَهُوَ وَلِيُّهُم) وهذا إخبار بأنه تعالى **متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا** ، ويدخل فيها الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة وإيصال الخيرات ودفع الآفات والبليات)[4] .

قوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ..) (128) قال الحسن أي (أضللتم كثيرًا من الإنس)[5]، قال الألوسي (بأن **جعلتموهم أتباعكم بإغوائكم إياهم** وتزيين اللذائذ الجسمانية لهم)[6] ، قال تعالى (**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**) [مريم 83] ، وقد فصل ابن تيمية (هذا الأمر تفصيلا في كتابه دقائق التفسير)[7].

---

[1]) تفسير الرازي ج1 ص 1896
2) تفسير الشعراوي ج1 ص 2736
[3]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021
4) تفسير الرازي ج6 ص 479
[5]) تفسير الطبري ج12 ص 116 وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة ، انظر تفسير ابن كثير ج3 ص 338
6) تفسير الألوسي ج6 ص 45
7) دقائق التفسير ج2 ص 137 وما بعدها – مجموع الفتاوى ج13 ص 80 وما بعدها

وهو ما عزم عليه الشيطان (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ **لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا** (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا) (الإسراء 63) ، وقد صدق في عزمه وأنفذه (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ **فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ)(سبأ 21)

قال ابن القيم (يعني قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم .. **وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية** الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني ، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن ، وإنما هم من أولياء الشيطان أطاعوه في الإشراك ومعصية الله والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه ، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان ، فوالى أعداء الله وعادى أولياءه ، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به ولم يدعها لأقوال المختلفين وآراء المتحيرين وشطحات المارقين وترهات المتصوفين)[1]

قوله (..وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ..) (128) أي (انتفع كل من الجن والإنس بخدمة الآخر ، فالشياطين حسنت لهم القبائح وأغرتهم بها)[2]، والجن شاركوهم في الأموال والأولاد لما أطاعوهم واستجاب الإنس لهم ، ولم يستعيذوا بالله منهم ، **وفي ذلك تصريح من الإنس بجريمتهم أنهم استعاذوا بالجن ليجلبوا لهم النفع والشهوات** ، ويدل على استخفافهم بجرمهم .

ولذلك قال رسول الله ﷺ (حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ **وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**)[3] ، ذلك أن الذي يسعى وراء الشهوات تزيد شهواته ولا تنقضي ، وكلما انقضت شهوة تبعتها شهوة أخرى ، فيستزيد منها بلا حد ولا ضابط ، وكلما رغب في شهوة ليست قريبة المنال بحث عن وسائل تحقيقها فيزين له الشيطان أنه قادر على أن يجلبها له ، ويشترط عليه طاعته حتى ينالها ، وهكذا **يعقد الشيطان مع أوليائه عقود ولاء وطاعة ، فكلما سفل بالمعصية كلما أرضى شيطانه.**

وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال :-

حنانيك إن الجن كانت رجاؤهم ... وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا

فأما استمتاع الإنس بالجن فهذا ظاهر من استعاذتهم بهم دون الله لتسخيرهم في خدمتهم كما يفعل الساحر ، ولكنهم يزدادون بتلك الاستعاذة رهقا ، كما قال تعالى (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (الجن 6)

---

1) إغاثة اللهفان ج2 ص 237
2) أيسر التفاسير ج1 ص 433
3) رواه مسلم ج13 ص 448 رقم 5049

وأما استمتاع الجن بالإنس فذلك ثابت في قوله (**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (الإسراء 64) ، ذكر المفسرون عن التابعي (مجاهد بن جبر) تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير مشاركة الشيطان في الأولاد" :إذا جامع الرجل ولم يسمّ انطوى الجان على إحليله فجامع معه)[1]

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ **يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا** ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا)[2].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ **الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ** ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ **أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ**)[3].

قال الشيخ ابن عثيمين أي (قال الشيطان لأصحابه لا مبيت لكم ولا عشاء لأن هذا البيت ، وهذا العشاء حمى بذكر الله عز وجل حماه الله تعالى من الشياطين وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء ، أي أن الشيطان يشاركه المبيت والطعام لعدم التحصن بذكر الله)[4].

قال ابن القيم (وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله وعبادتهم لهم دون الله ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم فإنهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم **ويذبحون لهم** وبأسمائهم ويوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان ، فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض ، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة وقد جمع العابدين والمعبودين (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**) (سبأ 41) ، فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده وكثير منهم ملبوس عليه ، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر)[5] .

قوله (..وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا..) (128) هذا إقرار منهم أن لذة الدنيا قد انقضت وانتهى وقتها بلا عودة ، ولو أنه سبحانه مد لهم فيها لظلوا على شركهم وكفرهم ، لكن قد حان أجلهم فوجدوا من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا **وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور 39) .

قوله (..قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (128) الاستثناء الوارد في الآية هو موضع إشكال عند جميع المفسرين ، قال ابن عاشور (حيث تقرر في الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن **المشركين لا يغفر لهم**

---

1) السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج9 ص 270 ، تفسير الطبري ج23 ص 65
2) رواه البخاري ج1 ص 244 رقم 138 ، ج11 ص 51
3) رواه مسلم ج10 ص 293 رقم 3762
4) شرح رياض الصالحين ج1 ص 809
5) طريق الهجرتين ج1 ص 621

وأنهم مخلدون في النار بدون استثناء فريق ولا زمان)[1] ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا **مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)(الرعد) .

وقد أجاب الرازي على هذا الإشكال بأنه استثناء من الماضي يعني المدة السابقة على دخولهم النار ، فقال (منذ يبعثون "إِلا مَا شَآءَ اللَّه" من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في محاسبتهم)[2]

وقال الطبري (ومن الجائز أن يكون هذا الاستثناء المراد به من كان منهم من أهل التوحيد ودخل النار بالفسق والفجور وكبير الذنوب بإغواء الشياطين له فإنه يخرج من النار بإيمانه)[3].

ولا يخلو هذا الاستثناء من فائدة ، قال أبو بكر الجزائري (استثناء **لبيان إرادة الله المطلقة** التي لا يقيدها شيء ، إذ لو شاء أن يخرجهم من النار لأخرجهم أي ليس هو بعاجز عن ذلك)[4]

قال الشيخ سيد طنطاوي (وفى إيراد هذا المعنى بتلك الصورة ، بلاغ للناس بأن مرد الأمور كلها إلى مشيئة الله ، وأن خلود المشركين فى نار جهنم إنما هو **بمحض مشيئته** ، ولو شاء غير ذلك ما خلدوا)[5].

قال صاحب الظلال (لتبقى صورة **المشيئة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي** ، فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور ، والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد ، ولا في مقرراتها هي ، يمضي قدره بالناس عن حكمة وعن علم؛ ينفرد بهما الحكيم العليم . .) [6].

قوله (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (129) قال ابن زيد: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس[7] ، قال مقاتل (فولى الله ظلمة الإنس ظلمة الجن ، وولى ظلمة الجن ظلمة الإنس بأعمالهم الخبيثة ، فذلك قوله : (بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) ، يعنى يعملون من الشرك)[8] .

قال القرطبي (وهذا تهديد للظالم **إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر** ، ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم) [9]

وقال فضيل بن عياض (إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف، وانظر فيه متعجبا) [10]

وقال ابن عباس (إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم ، إذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم)[11].

قال الشاعر :-

وما من يد إلا يد الله فوقها ...ولا ظالم الا سيبلى بظالم

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 54
[2]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 1896 تفسير الطبري ج12 ص 118
[3]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 433 وذكره كذلك الطبري في تفسيره
[4]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 433
[5]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1538
[6]) في ظلال القرآن ج3 ص 146
[7]) تفسير ابن كثير ج3 ص 339
[8]) تفسير مقاتل ج1 ص 465
[9]) تفسير القرطبي ج7 ص 85
[10]) تفسير القرطبي ج7 ص 85 وبحر العلوم للسمرقندي ج2 ص 78
[11]) تفسير البغوي ج3 ص 189 والقرطبي المرجع السابق ، الآثار لأبي يوسف القاضي ج2 ص 475 رقم 941

قال تعالى (**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**) (الشعراء 227) ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)[1]

قال طنطاوي أى : (ومثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس وإضلالهم لما بينهم من التناسب والمشاكلة ، نولى بعض الظالمين من الإنس بعضا آخر منهم بأن نجعلهم يزينون لهم السيئات ، ويؤثرون فيهم بالإغواء)[2].

قال ابن عجيبة أي : (نَكِّل بعضهم إلى بعض)[3]

قال الأعمش (إذا فسد الناس أُمِّرَ عليهم شرارهم) [4].

وقال أبو بكر الجزائري (لا مانع من حمل هذا اللفظ عل تسليط الظالمين بعضهم على بعض)[5]

وذلك حاصل كذلك يوم القيامة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[6] ، حيث تنقلب هذه العلاقة الآثمة بين الإنس والجن إلى عداوة ، فيتبرأ كلا منهما من الآخر ، كما قال سبحانه (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) (الأنعام 64)

قوله (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) (130) هذا تعاب وحساب ، استظهارًا لعدل الله تعالى ، أنه لا يعاقبهم إلا بعد التحقيق والحساب وإظهار الحجج والبراهين ، حتى أن المذنب يقر بذنبه يوم القيامة ولا يستطيع أن ينكر ذنبه بعدما تشهد عليه جوارحه ، قال تعالى (**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) (النور 24) ، وقال سبحانه (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا **شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) (فصلت 20) ، والعلة في ذلك إظهار الحجة عليهم وهم في موقف العرض والحساب والمحاكمة .

قوله (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) (131) بيان لسبب هلاكهم ، وأنهم ما هلكوا إلا بعد أن قامت الحجة عليهم ، قال الشنقيطي (والمعنى أنه لا يهلك قوماً في حال غفلتهم ، أي **عدم إنذارهم** ، بل لا يهلك أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه)[7]

---

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 255 رقم 4201
[2]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1539
[3]) البحر المديد ج2 ص 203
[4]) الدر المنثور للسيوطي ج4 ص 134
[5]) أيسر التفاسير للجزائري ج1 ص 434
[6]) رواه البخاري ج8 ص 319 رقم 2267
[7]) الشنقيطي أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج1 ص 493

ونظير ذلك قوله تعالى (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) [15 17] ، وقوله (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً) [طه : 134] ، وقَالَ تَعَالَى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).

فهذا **من أعظم الأدلة على أن أهل "الغفلة" ما يقصه الرسل لهم من البلاغ والنذر** ، وهو ما ينفي "الظلم" عن الله تعالى في أنه خلق عبيده وابتلاهم بالخير والشر ، وأنه سوف يحاسبهم على ذلك دون أن يكونوا مؤهلين لهذا الاختبار ، فمناط الحساب البلاغ ، فإذا تعذر البلاغ سقط الحساب ، وهذا الحكم مبسوط على أحكام الدنيا والآخرة قال ابن تيمية (الْعُقُوبَاتِ —فِي الدنيا– لَا تَجُوزُ إلَّا بَعْدَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ) [1] ، وقال ابن تيمية في ذلك (بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله – تعالى – بعباده – ورأفته بهم ، وكرمه معهم)[2] .

وأما في الآخرة فكذلك ، فعن نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا وَرَجُلٌ أَحْمَقُ وَرَجُلٌ هَرِمٌ وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا)[3]، وفي رواية (وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا) [4] .

قال ابن تيمية (كثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ما ينجيه من عذاب الله وهو يقع في كثير من هذه الأنواع — المعاصي والشرك– ولا يعلم أنها شرك بل لا يعلم أن الله حرمها ولم تبلغه في ذلك رسالة من عند الله والله تعالى يقول (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فـ**ؤلاء يكثرون جدا في الأمكنة والأزمنة التي تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله** ، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يرحمون به وقد لا يعذبون بكثير مما يعذب به غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة ، فينبغي أن يعرف أن **استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة** في أصل الدين) [5].

قوله (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (132) قال أسعد حومد (جَمِيعُ أَعْمَالِهِمْ بِعِلْمِ اللهِ ، يُحْصِيهَا وَيُثْبِتُهَا عِنْدَهُ لِيَجْزِيَهُمْ بِهَا ، فَهُوَ غَيْرُ غَافِلٍ عَنْ شَيءٍ مِمَّا يَعْمَلُونَ)[6]

---

[1]) الفتاوى الكبرى ج6ص341
[2]) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ج1 ص 133
[3]) رواه أحمد ج33 ص 40 رقم 15712 وصححه الألباني ج3 ص 418 رقم 1434
[4]) رواه أحمد ج33 ص 40 رقم 15712 وصححه الألباني ج3 ص 418 رقم 1434
[5]) جامع الرسائل ج2ص 293
[6]) أيسر التفاسير ج1 ص 922

قال المفسرون (درجات أهل الجنة إلى علو ، ودرجات أهل النار إلى سفل)[1] ، (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ **وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**) [الإسراء 21] ، فكما أن العمل سبب من أسباب التفاوت بينهم في الدنيا ، فإنه كذلك سبب للتفاوت بينهم في الآخرة.

فالأصل أن يطلق لفظ (درجات) على أهل الجنة ، بينما يطلق لفظ (دركات) في السفول لأهل النار ، إذ قيل : (الجَنَّةُ دَرَجَاتُ) و(النَّار دركات) ، ولكن أطلق هنا لفظ (درجات) للاثنين على جهة التغليب من جهة أهل الجنة.

قال الثعالبي (وظاهر الآية أن الجنَّ يثابون وينالُونَ الدَّرَجَاتِ والدَّرَكَاتِ)[2] ، وفي ذلك دليل على **تفريد المسئولية** ، وأن كل منا محاسب على عمله ، وأن **حسابه على قدر التكليف** ، ولا أحد مسلط على أحد ، فلكل منا أهليته للتكليف ، فلما كان التكليف بقدر الاستطاعة كان الحساب كذلك على قدر المستطاع من العمل ، **أما ما كان خارج الإمكان فإنه لا يقع عليه الحساب** ، وما كان من التكليف بقدر الاستطاعة كان الحساب على قدر ذلك ، والله وحده سبحانه يعلم مقدار استطاعة المرء ، وهو سبحانه وحده القادر على حساب الناس بقدر ذلك .

كما في المثال المشهور البغي التي غفر الله لها ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ **مِنْ بَغَايَا** بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[3] **فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**)[4]، فهل يسأل الله تعالى لماذا غفر لها ؟ ولماذا لم يعاقبها على البغاء ؟ فالله أعلم بحال عبيده وهو وحده القادر على حسابهم.

قوله (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) (133) والمعنى أن غناه اقتضى استغناءه عمن استغنى عن طريق الحق ، ورحمته اقتضت أن يأت بآخرين يسيرون على طريق الحق لا يحيدون عنه ، لتظل دعوة الله قائمة ، ورحمته قد بلغت جميع خلقه ، وعليه يكون **أساس الاستبدال واستخلاف آخرين هو القيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى وعدم القيام بها** ، قال تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران 104)

لاسيما وأن من أوسع أبواب الدعوة إلى الله الإنفاق في سبيل الله ، قال تعالى (هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**) (محمد 38) ، وفي ذلك (إثبات لغناه –تعالى– عن تلك الأعمال والعاملين لها وعن كل شيء ، ورحمته في التكليف والجزاء وغيرهما)[5].

قوله (كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) تأكيد على مضي الدعوة وعدم توقفها على أحد غبر الأزمان ، فما من جيل مضى إلا وتوارثوا الدعوة عمن قبلهم وإن تخلف عن حملها بعضهم .

---

1) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 2057 ابن كثير ج2 ص 158
2) تفسير الثعالبي ج2 ص 3
3) ابن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج2 ص 37
4) رواه البخاري ج11 ص 286 رقم 3208
5) تفسير المنار للرشيد رضا

قال ابن عاشور (والتشبيه في إنشاء موجودات بعد موجودات أخرى، لا في كون المنشئات مخرجة من بقايا المعدومات كما أنشأ البشر نشأة ثانية من ذرية من أنجاهم الله في السفينة مع نوح عليه السلام، فيكون الكلام تعريضا بإهلاك المشركين ونجاة المؤمنين من العذاب)[1].

قوله (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) (134) تهديد صريح لمن تخلف عن المضي في طريق الحق ، والتخاذل عن نصرة النبي ﷺ في بدء الدعوة ، وقد علموا أنه الحق ، ولكن غرتهم الحياة الدنيا كما أوضحت ذلك الآيات ، قال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) (النساء 77) ، ولذلك يتهددهم الحق سبحانه بأنهم لن يمضوا في هذه الدنيا التي غرتهم إلا قليلا .

قوله (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (135) قال طنطاوي أى : (إنى عامل على مكانتى ، ثابت على الإسلام لا أتزحزح عن الدعوة إليه)[2] ، فالمسلم واثق في رب ويكل عاقبة أمره ، وهو تلقين لأهل الحق بأن يخاطبوا من أصر على الكفر والتخاذل عن نصرة النبي ، وسلك غير طريق الحق ، خطاب الثابت على الحق ، محافظا على واجب الدعوة الذي مكنه الله من عمله ، مخبرا لهم بأنهم لن يتخاذلوا عن دعوة الإسلام وتبليغها للناس ، وتضمن تبشير لأهل الحق بأن العاقبة لهم .

قال ابن كثير (وقد أنجز موعده له، صلوات الله عليه، **فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة**، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر **أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته**. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، رضي الله عنهم أجمعين)[3] ، قال الله تعالى: (كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) [المجادلة : 20] .

قوله (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) تضمن تقرير أفاد التيئيس من حال الذين حلت فيه سنة الاستبدال بغيرهم إذا ما أصروا على مكانتهم من الدعوة ، حيث الصد عن سبيل الله والظلم لأنفسهم بالشرك ، وظلم المستضعفين ممن حولهم بحملهم بالتبعية لهم إجبارا ، فهؤلاء لن يفلح سعيهم ولا مرادهم ولا مطلوبهم أبدا .

قال طنطاوي أى : (لن يظفروا بمطلوبهم بسبب ظلمهم ، وقيل المراد بالظلم هنا الكفر)[4]، (ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده)[5]

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 66 وهو ما ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف ج2 ص 176
[2]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1543
[3]) تفسير ابن كثير ج3 ص 343
[4]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1544
[5]) تفسير ابي السعود ج2 ص 436 ، الألوسي ج6 ص 33

قال الإمام البقاعي أي (الغريقون في الظلم كائنين من كانوا ، فلا يكون لهم عاقبة الدار ، **فالآية من الاحتباك** : ذكرُ **العاقبة** أولاً دليل على حذفها ثانياً ، وذكر **الظلم** ثانياً دليل على حذف العدل أولاً)[1] أي من الظالم لا عاقبة حسنة له ، ومن لا عاقبة حسنة هو هو الذي لم يعدل بل ظلم .

[1]) نظم الدرر ج3 ص 136

المطلب السادس

مناظرة المشركين في أن التشريع حق خالص لله دون غيره

قال تعالى (**وَجَعَلُوا لِلَّهِ** مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا **فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ** بِزَعْمِهِمْ **وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا** فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ** شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) **وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ** وَحَرْثٌ حِجْرٌ **لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ** بِزَعْمِهِمْ **وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا** وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) **وَقَالُوا** مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ **قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ** افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) **فَإِنْ كَذَّبُوكَ** فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا **إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ (إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَى قَوْلِهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [1]

وفي ذلك عدة مسائل :-

الأولى : مسألة : الشرك أفسد على الناس حياتهم فقتلوا أولادهم وأبطلوا مالهم ، فأعدمهم العقل والإنسانية معا

الثانية : رزق الله واسع ومتنوع أكله ومنظره فعلام يبطل الإنسان نعمة الله بهواه

الثالثة : التناسل سنة ربانية ، فعلام قطع التناسل بتشريعات جاهلية

الرابعة : علة التحريم في الإسلام الرجس أو الفسق لا غير إلا أن يكون عقوبة بسبب الظلم

الخامسة : شبهة الجبر عند المشركين وحجة الله البالغة في الرد عليهم

المسألة الأولى : الشرك أفسد على الناس حياتهم فقتلوا أولادهم وأبطلوا مالهم ، فأعدمهم العقل والإنسانية معا

قوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ..) (136) وهذا النصيب جعلوه لله زعما منهم أنهم ينفقونه في أعمال الخير والقربات ، كإطعام الطعام والسقاء ومثل ذلك ، وذلك بالرغم من شركهم ، فإنهم يهتمون بهذه الأعمال من باب مكارم الأخلاق ، وإلى هنا لا يعاب عليهم في شيء ، يقول النبي ﷺ (**خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ** إِذَا **فَقُهُوا**)[2] أي (من كان مختارا منكم بمكارم الإخلاق في الجاهلية فهو مختار في الإسلام إذا فهموا أحكام الدين)[3].

بل هم أحسن حالا ممن ينسب الفضل في الزرع لنفسه ، ولا ينسبه لله ، قال الشعراوي (هم قد حرثوا فقط ؛ والذي زرع هو الله ، هو الذي أعطى للبذرة قوتها لتربي لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذي جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذي جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها)[4] ولذلك يقول النبي ("**لا يقولن أحدكم: زرعت ولكن ليقل: حرثت**" قال أبو هريرة: ألم تسمع الى قول الله تبارك وتعالى: (**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ**) (**أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**) (الواقعة63 :64)[5]، أي أن الإنسان باشر عملية الحرث والله هو الذي ذرأ من الحرث الزرع .

قوله (..فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا..) (136) فهذا هو الشرك بالله ، أن يجعلوا القسمة قسمتين بعضها لله وبعضها لشركائهم من الجن يشركونهم عبادتهم مع الله ، قال ابن كثير (أي: جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع الله وفضلوهم أيضًا على جانبه)[6] ، والأصل أن القسمة كلها لله ، (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام 162).

---

1) رواه البخاري ج11 ص 351 رقم 3262
2) رواه البخاري ج11 ص 164 رقم 3123
3) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 1063
4) تفسير الشعراوي ج1 ص 2750
5) رواه ابن حبان في صحيحخ ج13 ص 30 وابن جرير الطبري في التفسير 114/27 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 300 رقم 2801
6) تفسير ابن كثير ج 4 ص 577

قال الألوسي في قوله (شركاؤهم) (يحتمل أن الإضافة لأدنى ملابسة حيث إنهم زعموا كونهم شركاء لله تعالى ، فسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم)[1].

فقد كان سدنة الأصنام – وهم أشبه بالكهنة – يأخذون نصيبا مما قسموه من الأنعام والحرث ، ثم أصبح نصيب هؤلاء السدنة مقدمًا على النصيب الذي خصصوه لأعمال البر والخير والقربات وكأنه ضريبة مفروضة ، ذلك أن السدنة يراقبونهم في صرف هذا النصيب على هذا الوجه أما النصيب الذي خصصوه لأعمال البر فليس عليه رقيب ، وهكذا تؤول عبادتهم بالتدريج إلى إرضاء السدنة ولو كان ذلك من النصيب الآخر ، ليضمحل بذلك نصيب الفقراء والمساكين والمحتاجين رويدا رويدا ، وتوؤل العبادة كلها لهؤلاء السدنة من دون الله .

فمن السخف أن يفصل هؤلاء بين نصيبين الأصل أن كلاهما لله ، إذ لو كانوا يقصدون من تقديم البر للناس إرضاء الله مباشرة ، فإن ما يقدمونه لسدنتهم — وهم خدام الأصنام — إذا كانوا يقصدون به إرضاء الله بطريق غير مباشر ، كما قال تعالى في شأنهم (**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**) (الزمر 3) ، فلماذا لا يوجهونه كله في أعمال البر مباشرة ؟ فتوجيه شيء من المال كنصيب "للسدنة" لابد وأن ينقص نصيب أعمال البر ، فعلام يفعلون ذلك ؟ إلا أنه يقصدون من ذلك دنيا ، يعدهم بها هؤلاء السدنة أو يخشون غضبهم ، ولكنهم يزعمون أن ما يقدمونه للسدنة من قربان ليتقربوا به لله ، ليستتروا تحت عباءة الدين ، فتظل أعمالهم الباطلة متلبسة بغطاء المشروعية .

وهذا الفعل الذي صدر منهم لم يعبر فقط عن حالة الشرك عند أهل الجاهلية ، بل ظل يتردد إلى اليوم ، حتى أصبح ديدن الحياة العصرية في محاولة منهم لتسكين المشاعر الدينية ببعض أعمال القربات ، لتظل الأعمال الشركية هي المحرك الأساسي لعجلة الاقتصاد ، مثلما أفصحت عن ذلك قوله تعالى (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ..) (المائدة 31)

قوله (..فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (136) عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال:"جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ ثِمَارِهِمْ وَمَالِهِمْ نَصِيبًا، وَلِلشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ نَصِيبًا، فَإِنْ سَقَطَ مِنْ ثَمَرِهِ مَا جَعَلُوا لِلَّهِ فِي نَصِيبِ الشَّيْطَانِ تَرَكُوهُ ، وَإِنْ سَقَطَ مِمَّا جَعَلُوا لِلشَّيْطَانِ فِي نَصِيبِ اللَّهِ نقطوه وَحَفِظُوهُ، وَرَدُّوهُ إِلَى نَصِيبِ الشَّيْطَانِ، وَإِنِ انْفَجَرَ مِنْ سَقْيِ مَا جَعَلُوا لِلَّهِ فِي نَصِيبِ الشَّيْطَانِ تَرَكُوهُ، وَإِنِ انْفَجَرَ مِنْ سَقْيِ مَا جَعَلُوا لِلشَّيْطَانِ مِنْ نَصِيبِ اللَّهِ سَرَّحُوهُ، فَهَذَا مَا جُعِلَ لِلَّهِ مِنَ الْحَرْثِ وَسَقْيِ الْمَاءِ"[2]، وهذا يدل على حرصهم على نصيب الشيطان أكثر من نصيب الله ، و(وهذا فرط جهالتهم)[3] .

[1]) تفسير الألوسي ج6 ص 34
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 392
[3]) تفسير أبو السعود ج2 ص 436

فإنك لتعجب عندما تعلم أنهم كانوا يحرصون على نصيب السدنة فلا ينقصوه شيئا ، أشد حرصهم علي النصيب الذي يجعلوه لله ، قال الدهلوي (فهم يطففون الكيل مع الله ، ويكفرون نعمة الله ، فهم أكثر أدبا وأشد دقة في استيفاء ما قسموا لشركائهم ، فلا يتساهلون فيه ولا يسمحون بأن تعبث به يد أو يعتدي عليه معتد ، أما ما كان لله فمعرض للخطر والتلف والزيادة والنقصان ، ينقص ولا يزداد ، وما ضم منه إلى قسط الشركاء فلا بأس به)[1].

والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا **يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ** ، مَالَهُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ ثُمَّ قَالَ (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**)[2]

قوله (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (136) (وَقَدْ **ذَمَّهُمْ عَلَى تَصَرُّفِهِمْ** هَذَا ، إِذْ أَنَّهُمْ أَخْطَؤُوا أَوْلاً فِي القِسَمِ وَالتَّخْصِيصِ ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى رَبُّ كُلِّ شَيءٍ ، **فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَاسَ بِهِ أَحَدٌ** ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَّا قَسَمُوا هَذِهِ القِسْمَةَ الفَاسِدَةَ لَمْ يُحَافِظُوا عَلَيْهَا ، بَلْ جَارُوا فِيهَا وَتَجَاوَزُوا الحَدَّ)[3].

قال الرازي (والمقصود من حكاية أمثال هذه المذاهب الفاسدة ، أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب ، وأن يصير ذلك سبباً لتحقيرهم في أعين العقلاء ، وأن لا يلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة)[4] .

وكأن الشرع– بعرض ما كانوا يفعلونه –يتلمس منهم أي خير يفعلونه رغم شركهم ، لعل زيادتهم في الخير توطئة لأن يتجهوا إلى عقيدة التوحيد فيخلصوا العمل كله لله.

قوله (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ[5] لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ..) (137) أي من هنا جاءت المنكرات والمعاصي ، إذ نبعت جميعها من الشرك ابتداء ، حيث جعلوا أولادهم قربانا للشياطين ، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري (كانت **القرابين الكنعانية تضم ضحايا من البشر إلى جانب القرابين الحيوانية** المألوفة ، وكانت القرابين الآدمية تُقدَّم مثلاً في الكوارث العامة الشديدة باعتبارها أعظم قربان يمكن أن يقدمه الإنسان إلى الآلهة)[6] .

قال ابن جزي (كانوا يقتلون أولادهم بالوأد ويذبحونهم ، قرباناً إلى الأصنام ، وشركاؤهم هنا هم : الشياطين ، أو القائمون على الأصنام)[7]، قال ابن تيمية تعليقا على هذه الجريمة (فَأَصْلُ مَا يُوقِعُ النَّاسَ فِي السَّيِّئَاتِ : الْجَهْلُ ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ بِكَوْنِهَا تَضُرُّهُمْ ضَرَرًا رَاجِحًا ، أَوْ ظَنُّ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ نَفْعًا رَاجِحًا)[8].

---

[1]) رسالة التوحيد ج1 ص 126
[2]) رواه النسائي ج10 ص 204 رقم 3089 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 118
[3]) علي بن نايف الشحود : الخصال الموجبة لدخول النار ج1 ص 184
[4]) تفسير الرازي ج6 ص 493
[5]) فاعل مرفوع بالضمة ، أي أن السدنة هم الذين قاموا بتزيين قتل الأولاد للمشركين
[6]) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ج10 ص 274
7) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 471
8) مجموع الفتاوى ج14 ص 291

والقرآن يحكي عن تسلط هؤلاء السدنة خدام الأصنام على هؤلاء المشركين ، حتى أنه **يطيعونه في كل ما يأمرون به ولو أمرهم بقتل أولادهم** ، بذلك يعظمون أنفسهم بحيث لا يداخلها ضعف حتى ولو كان حب الأولاد، وذلك بحجة إرضاء الآلهة ، وكأن ذلك دين عليهم لهم يجب الوفاء به ، فيضحون من أجلهم بكل غال ورخيص ، **فالشيطان لا يرضى من ابن آدم مجرد الكفر أو الإقرار للشيطان بالعظمة ، بل يطلب منه أن يضحي من أجله بكل ما يحب** ، وهكذا يؤله الشيطان نفسه ، ولا يكتفي بتوحيد الربوبية له بل إنه ليمجد نفسه ليكون إلها فيطاع ولا يعصى ، بل ويُقدم الفداء والأضحيات له .

قال ابن عاشور (ومعنى تزيين ذلك هنا أنهم خيلوا لهم فوائد وقربا في هذا القتل، بأن يلقوا إليهم مضرة الاستجداء والعار في النساء، وأن النساء لا يرجى منهن نفع للقبيلة ، وأنهن يُجَبِّن الآباء عند لقاء العدو، ويؤثرن أزواجهن على آبائهن، فيأتونهم من المعاني التي تروج عندهم، فإن العرب كانوا مفرطين في الغيرة، والجموح من الغلب والعار)[1] ،وهكذا يزين لهم القبائح بأي صورة كانت .

قوله (لِيُرْدُوهُم) (137) أي أن مقصد الشياطين من ذلك أن **يردوهم الهلاك** سواء بالانقياض للشياطين في الدنيا أو في جهنم في الآخرة ، كما قال (وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (الحجر 39) ، فغاية الشياطين من الإغواء أن يردوهم المهالك .

ويقول د المسيري (والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن نموذج للسيطرة على العالم لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشليم القدس ، فاليهود هم المسئولون في كل الأزمنة والأمكنة عن كل الشرور والمنكرات ..، بل يُنسَب إليهم ذبح الأطفال واستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح)[2].

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري (أصبح السحر اليهودي انعكاساً للوثنية السائدة في الشرق الأدنى في العصور القديمة إذ سقطت في الحلولية والوثنية والسحر تدريجياً، ثم بشكل سريع ابتداءً بالكتب الخفية (أبوكريفا)، ثم التلمود وأخيراً "القبَّالاه" [3]حيث تدور القبَّالاه العملية بأسرها حول السحر)[4].

قوله (..لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ..) (137) فجعلوا في دينهم أشياء من الباطل تختلط مع الحق ، فمن المعلوم أن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وقد هددهم بالتربص لو أنهم أحبوا أباءهم وأخوانهم وعشيرتهم أكثر من حبهم لله ورسوله وجهاد في سبيله ، وفي المقابل فإن **الشيطان يريد أن يؤله نفسه فيأمر مريديه بأن يفعلوا له مثل ما يفعله المؤمنين لله** ، ولكن بطريقة مختلفة ، فيذبحون أبناءهم قربة للشيطان ، بينما وهبت امرأة عمران ابنها لله محررا ، وهكذا يتخذ الشيطان من أحكام دين الإسلام شبهة لتحليل دينه، قال أبو السعود والمعنى (وليخلِطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيلَ عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللامُ للتعليل إن كان التزيينُ من الشياطين وللعاقبة إن كان من السدنة)[5] .

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 74
[2]) موسوعة اليهود واليهودية ج5 ص 48
3) القبالة مأخوذة من الكلمة العبرية قبل، أي استلم، ويقصد بها أن الكهنة اليهود قد قبلوا بهذه العقيدة، وهي عقيدة عبادة الشيطان وهي العقيدة المقبولة لديهم، ومعناها في اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية (Qabala) أو (Kabbalah) وأيضاً (Cabala) ، وتعني في الإنجليزية جماعة سرية شريرة تقوم على أساس استخدام السحر في العبادات وهي تعاليم شفاهية سرية للغاية تنتقل من كبار رجال الدين بعضهم البعض، وقد جمعت التعاليم السحرية القديمة للقبالة في كتاب لحفظه منذ عهد الرومان .
[4]) المرجع السابق ج14 ص 7
[5]) تفسير أبي السعود ج2 ص 437

ولو أنك اطلعت على بعض كتب السحر مثل شمس المعارف – من باب دراسة عدوك وهذا للمتخصص في الرد على الشبهات – لوجدت أن **الشيطان يتحدث عن صفات الإله والأسماء الحسنى** كصفة القدير السميع البصير ....الخ وينسب تلك الصفات لنفسه ، فالذي يقرأ الكتاب يتوهم أنه كأي كتاب دين فيه قرآن وأحاديث للنبي ﷺ لكن القصد من ذلك أن ينسبها للشيطان الأسماء الحسنى لنفسه ، وليس لله ، والدليل على ذلك كله أنه يجعل بعدما يتحدث عن تلك الصفات وتعظيم الإله يقول أن **مع هذا الاسم خادم** – أي شيطان من الجن – **يخدم مريد هذا الاسم ويمنحه قوته وسره** ، ويلفظ اسم الجني حتى يحضر ، فبدلا من أن يذكر الله يذكر اسم الجني ويكرره ، وهكذا يلبسون على الناس دينهم ليعبدوا الشياطين ويستعيذوا بهم ، ثم يضع بعد ذلك رموز من حروف وأرقام وأشكال هندسية تمثل اللغة التي يتصل بها الإنسي بالشيطان والإنسان والتي بها يستجيب الشيطان –في الظاهر– لطلب الإنسي ، وهو في الحقيقة يرديهم ويذلهم كما قال سبحانه (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (الجن 6) ، فليس أشد من ذلك تضليلا لهؤلاء ولا تلبيسا عليهم في دينهم.

قوله (..وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (137) (أي **لو شاء الله لصدهم عن إغواء أتباعهم**) ، قال الواحدي (**لَمنع الشَّياطين من الوسوسة للإنس**)[1] ، فالله لا يرضي بشيء من الكفر (وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)(الزمر 5) ، ولكن كما قال شيخنا الشعراوي (**إن الله لا يريد أعناقا تخضع ولكن يريد قلوبا تخشع**) ، قال تعالى (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) (الشعراء 4) بمعنى أن علة تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات في العبادة هو أنه مبتلى بالاختيار بين افعل ولا تفعل ، قال تعالى (**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء 35) في حين أن غيره غير مبتلى بذلك قال تعالى (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء 44).

قال ابن عاشور (وينبني علي ذلك القول في تعلق الصفات الإلهية بأفعال العباد ، فيكون قوله تعالى: (وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) راجعا إلى خطاب التكاليف الشرعية، وقوله (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) [الأنعام:112] راجعا إلى تعلق الإرادة بالإيجاد والخلق ، ويتركب من مجموعهما ومجموع نظائر كل منهما الاعتقاد بأن للعباد **كسبا في أفعالهم الاختيارية ، وأن الله تتعلق إرادته بخلق تلك الأفعال الاختيارية عند توجه كسب العبد نحوها**)[2].

وقوله (..فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (137) جاء بعد قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ) للتأكيد على منهج الدعوة إلى الله تعالى ، وأن النبي ﷺ مأمور **بالبلاغ دون الحساب** ، وليس عليه أكثر من ذلك ، فإذا كان الله تعالى يذرهم على ما هم عليه من الضلال والافتراء دون أن يحملهم على الحق قسرا ، فأولى بالنبي ﷺ وأتباعه أن يفعلوا ذلك كذلك ، ولا يتسلطن على هؤلاء المشركين متى اقتصر أمرهم على ما يفترون عليه من أقوال باطلة وعقائد فاسدة .

---

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 202
[2]) التحرير والتنوير ج24 ص 29

وذلك لأن **الإسلام يكفل حرية الاعتقاد والرأي** ، أما إذا خرجت هذه العقيدة إلى إطار العمل ، وهو فرض ليس محله الفترة التي نزلت فيها سورة الإنعام ، وإنما محله في العهد المدني ، فهنا يجب أن تطبق أحكام الشريعة الإسلامية حتى لا تضر أفعالهم بالآخرين ، لاسيما **وقد امتدت إلى قتل أولادهم** ، بيد أنها لا تزال معطلة في العهد المكي حيث ليس للإسلام دولة تنفذ أحكامه ، ومن ثم كان في أن يذرهم وما هم عليه من افتراء ما يناسب المرحلة والفترة حيث كان المسلمون مستضعفين بمكة ومضطهدين ، ولا حول بهم إلا أن يتمسكوا بعقيدتهم دون حاجة لمجابة هؤلاء السفهاء كما سماهم الله في قوله تعالى (**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**) أي قربانا للشياطين .

قوله (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ [1] لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ * وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا * وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ * سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا [2]* وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ [3]سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (139) يستطرد المولى سبحانه في ذكر أوهام وضلالات الذي كفروا وتصوراتهم الوثنية ، وكيف أنهم يعطلون الاستفادة بنعم وأرزاق بلا أدنى عائد ، ويحرمون ما أحله الله تعالى بأهوائهم ، ويقسمون الأرزاق على هواهم قسمة لا عدل فيها ، كل ذلك **ليثبتوا لأنفسهم الحق في مشاركة الله تعالى في التشريع والحكم** .

فقسموا الأنعام والحرث إلى أربعة أقسام كلها محجور أي موقوف الانتفاع بها على آلهتهم وسدنتهم ، قال ابن كثير "حِجْرٌ" (إنما احتجزوها لآلهتهم)[4] ، وفي ذلك تأصيل شيطاني لسياسة العمل الاستثماري دونما نظر لعدالة التوزيع أو للأغراض الاجتماعية ، بل حتى وإن كان المستهدف منه صراحة طبقة السدنة وأتباع الشياطين .

فالقسم الأول : المحجورة لآلهتهم : قوله (أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ) فهي ما لا يجوز أن يطعمه أحد إلا من حُجر لأجله، بمعنى أنهم جعلوا نصيبا من الزرع والأنعام موقوفا للآلهة التي يزعمون .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (إِنَّمَا احْتَجَرُوا ذَلِكَ الْحَرْثَ لآلِهَتِهِمْ)[5] ، فلا يجوز أن يأكل منها أو ينتفع بها إلا من كان موقوفا عليه وفقا ما حددوه في الوقف ، وتلك هي **البحيرة المعلمة** بعلامة في أذنها حتى لا يمسها أحد غير من أوقفت لأجله .

القسم الثاني : قوله (وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا) أي ما لا يجوز أن يركبه أحد ، ويكون ذلك غالبا في الحمير والأحصنة ،أي وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها

---

1) بمعنى أنهم جعلوا نصيبا من الزرع والأنعام موقوف للآلهة التي يزعمون ، فلا يجوز أن يأكل منها أو ينتفع بها إلا من كان موقوفا عليه وفقا ما حددوه في الوقف ، وتلك هي البحيرة المعلمة بعلامة في أذنها حتى لا يمسها أحد غير من أوقفت لأجله

2) (أي حلال للرجال خاصة دون الاناث) تفسير حقي ج4 ص 58

3) أي يشترك فيه الذكر والأنثى

4) (ج3ص345)

5) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 398

القسم الثالث : ما يذبح لغير الله ، وهو كل حيوان يذبحوه قربانا للشيطان ، كما في قوله (وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ)

القسم الرابع : ما يحرم إنتاجها وثمارها على النساء دون الرجال ، فلا يشرب النساء من ألبانها ولا يأكلن لحوم أجنتها إن ذبحوها ولا ينتفعن بها بحال، كما في قوله (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) ، ويستثنى من ذلك إذا وُلد الجنين ميتاً (فإنهم لا يحرمونه على النساء ولا يخصون به الذكور فيحل أكله للنساء والرجال معاً)[1]، كما في قوله (وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ) .

وهكذا يستبين من تلك القسمة أنها ليست على أساس منطقي ، وميزان معلوم ، بل يظهر فيها جانب ظلم للنساء والمستضعفين ، فلا يكون لهم نصيب عادل فيما أحله الله من الأنعام والثمار .

وهناك أنواع أخرى من المحرمات عندهم افتراء علي الله (السائبة والوصيلة والحام..الخ) إلى ما لا يعد ولا يحصى من اختراع البشر ارضاء للشياطين ، قال تعالى (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)(المائدة 103) ، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ **الْبَحِيرَةُ** الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ .

وَالسَّائِبَةُ كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ .

قَالَ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ

وَالْوَصِيلَةُ النَّاقَةُ الْبِكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ .

وَالْحَامِ فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ ، وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ وَأَعْفَوْهُ مِنْ الْحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِيَ) [2]

ولعل الفائدة من ذكر هذه الأوهام والخرافات التي ذكروها بالتفصيل ما ذكره القرطبي من أن هذه الآية أنها (**دلت على إثبات المناظرة في العلم**؛ لأن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بأن يناظرهم، ويبين لهم فساد قولهم ، وفيها إثبات القول بالنظر والقياس) [3]، وبذلك نتعلم أن **أول خطوات المناظرة العلمية هي فهم القول الآخر ودقائقه وتفصيلاته** .

---

[1]) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري ج1 ص 438

2) رواه البخاري ج14 ص150 رقم 4257

[3]) تفسير القرطبي ج7 ص 114

قال سيد قطب (**استطردوا في أوهام التصورات والتصرفات** ، النابعة من انحرافات الشرك والوثنية) [1] ، (وإن الإنسان ليعجب للعقيدة المنحرفة **تكلف الناس حتى فلذات أكبادهم** ، فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة واضطرابها ، والسير فيها بلا ضابط ، سوى الوهم والهوى والتقليد ، **وأمامهم التوحيد البسيط الواضح**؛ يطلق الضمير البشري من أوهام الوهم والخرافة؛ **ويطلق العقل** البشري من عقال التقليد الأعمى؛ **ويطلق المجتمع** البشري من الجاهلية وتكاليفها؛ **ويطلق الإنسان** من العبودية للعبيد – سواء فيما يشترعونه من قوانين ، وما يصنعونه من قيم وموازين – ويحل محل هذا كله **عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة** ، وتصورا واضحا ميسرا مريحا ، ورؤية لحقائق الوجود والحياة كاملة عميقة ، وانطلاقا من العبودية للعبيد ، **وارتفاعا إلى مقام العبودية لله وحده**)[2].

قوله (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ **قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا** بِغَيْرِ عِلْمٍ **وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ** افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (140) قال الشنقيطي (**قتلوا أولادهم طاعة للشيطان مشاركة منه لهم في أولادهم**)[3] ، إذ اشتهرت في قتل العرب لأولادهم سببان أصلهما إرضاء إبليس :-

الأول : مخافة العار والفقر ، فهذا كان يرضي الشيطان بطريق غير مباشر

والثاني : مخافة الجن والشياطين ومحاولة استرضاءهم عموما ، وإرضاء إبليس مباشرة بتقديم أولادهم كقرابين له حتى يرضى .

قال القرطبي : (كان من العرب من يقتل ولده خشية الفقر) [4]؛ كما في قوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)(الأنعام 151)

قال قتادة (هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويغذو كلبه)[5] ، قال تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (الإسراء 31)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ ثُمَّ أَنْ **تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ)[6]

قال القرطبي (وكان منهم من يقتل أولاده **سفها بغير حجة منهم في قتلهم**؛ وهم ربيعة ومضر، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية) [7] أي مخافة أن يجلبن له العار .

فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي وَكَانَ **يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ** يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ لَا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا)[8].

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 161
[2]) في ظلال القرآن ج3 ص 161
3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 170
[4]) تفسير القرطبي ج7 ص 97
[5]) الدر المنثور ج4 ص 143 تفسير الخازن ج2 ص 467
[6]) رواه البخاري ج14 ص 420 رقم 4389
[7]) تفسير القرطبي ج7 ص 97
8) رواه البخاري ج12 ص 198 رقم 3541

قال القرطبي روي أن رجلا أذنب ذنبا في الجاهلية وخاف ألا يغفره الله له ، وهو إنه كان من الذين يقتلون بناتهم ، فقال ولدت لي بنت فتشفعت إلى امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها؛ فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق بألا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر؛ فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت! إيش تريد أن تفعل بي! فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي؛ فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت، قتلتني. فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت)[1] .

قوله (..وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (140) أي لم يتفكروا إطلاقا لماذا رزقهم الله هذا الرزق حتى يحرموه على أنفسهم ،ولماذا أنعم الله عليهم بالولد حتى يقتلوه ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا (..وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ **وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ** وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا)[2] ، فالشياطين لابد وأن تحرم عليهم ما أحله الله لا لشيء إلا **لكي تشارك الله في الألوهية** ، أي التشريع ، فتحل ما يحرمه ، وتحرم ما يحله .

قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (140) تضمن استهجان وتنكير ، وتأكيد على انغلاق قلوبهم ، وتبكيت لهم وتحسر على حالهم ، أن صاروا قاتلين لأولادهم بغير حق ، ومحرمين على أنفسهم ما أحله الله لهم ، **فقد خسروا الإيمان والإنسانية وكل معاني الرحمة** حتى حق الحياة لأولادهم لم يعن لهم شيئا ، خسروا كل فرصة للتعقل والفهم فأضحوا سفهاء الأحلام ، غلاظ القلوب ، فأنى لهم والهدى ، قال سراج الدين أبو حفص (قد يضِلُّ الإنْسَان عن الحقِّ ، إلا أنَّه يعُود إلى الاهتداء ، فبين – تبارك وتعالى– أنَّهم **قد ضَلُّوا ولم يَحْصل لهم الاهْتِداء قط ، وهذا نِهَايَة المُبَالغة في الذَّمِّ**)[3].

المسألة الثانية : رزق الله واسع ومتنوع أكله ومنظره ، فعلام يبطل الإنسان منفعته به افتراء على الله .

قوله (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ[4] وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ[5] كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (141) من المناسب بعدما عرضت الآيات أوهام وضلالات الذين كفروا أن تلفت الانتباه إلى قدرة الله تعالى في الإنشاء والإيجاد من العدم لاسيما والناس

---

[1]) تفسير القرطبي المرجع السابق ليس له أصل مرفوعا
2) رواه مسلم ج14 ص 24 رقم 5109
3) اللباب في علوم الكتاب ج7 ص 199
4) قال البخاري { مَعْرُوشَاتٍ }مَا يُعْرَشُ مِنْ الْكَرْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ (صحيح البخاري ج14 ص 156)
قال الإمام البقاعي (أي مرفوعات عن الأرض على الخشب ونحوه ، أي لا تصلح إلا معروشة ، ومتى لم ترفع عن الأرض تلف ثمرها)
(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج3ص143)
5) قيل مشتبه في المنظر وغير متشابه في المطعم منه حلو ومنه حامض وقيل مشتبه في المنظر وغير متشابه في الألوان والطعوم
(التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 196)

يقتلون أولادهم خشية ضيق الرزق ، والله تعالى يصور لهم **كيف أن رزقه واسع** ، وذلك لمن أراد أن يتفكر في بديع خلقه ، قال طنطاوي (بين – سبحانه – أنه هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون **بآرائهم الفاسدة** ، وأن من **الواجب عليهم أن يستعملوا نعم الله فيما خلقت لهم**)[1].

فهذا التنوع في الثمار في الهيئة والتركيب واختلاف الطعم ما بين مر وحلو أية تدل على الله خلقها لينتفع بها الإنسان ويذكر نعمة ربه عليه ، قال تعالى (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد 4)

وقد بين سبحانه من الحرث أربعا (العنب ، النخل، الزيتون، الرمان) وهؤلاء الأربعة تمد الجسم بما يلزمه من الغذاء والإدام بما يقضي على الفقر وسوء التغذية ، وكأن المولى سبحانه يشير على من يخشى الفقر فيقتل أولاده خشية إملاق أن يجتهد في الحرث فالله يرزقه ، لاسيما وأن هذه الأصناف الأربعة تتحمل ظروف قاسية في زراعتها من حيث البيئة والمكان والزمان ، ما يعني أن الإنسان أيا كانت البيئة التي يعيش فيها يستطيع أن يزرع أحد من تلك الأصناف الأربعة .

فمن لا يملك أرضا كبيرة يستطيع أن يزرع العنب في مساحات ضيقة وصغيرة ، فهو نبات لا يحتاج في زراعته لتربة واسعة ومساحات أفقية ، فهو نبات متسلق ينمو رأسيا[2] .

---

1) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1549

2) تتضمن فوائد العنب الصحية ما يلي: -

الوقاية من السرطان: حيث يحتوي العنب على العديد من المركبات المضادة للأكسدة تعرف باسم مركبات البوليفينول، والتي تقلل من خطر نمو الأورام في كل من الكبد، والمعدة، والصدر، والقولون، كما يمكن أن تجنب إصابة الفرد بسرطان الجلد وسرطان الدم.

تعزيز صحة القلب والشرايين: حيث يساهم العنب في ضبط مستويات الكوليسترول في الدم، ويرجع السبب في ذلك إلى احتواء العنب على مركبات البوليفينول والتي تمتلك خصائص مضادة للالتهاب أيضًا. كما يساهم فيتامين K المتواجد في العنب في التقليل من تخثر الدم وهو ما يقلل من خطر الإصابة بالجلطات الدموية.

تقليل ضغط الدم: وتعود هذه الفائدة من فوائد العنب لاحتوائه على نسبة عالية من البوتاسيوم، وهو مركب أساسي لتنظيم عمل الأوعية الدموية واسترخائها، كما أنه يعمل على ضبط مستوى ضغط الدم من خلال زيادة إفراز الصوديوم عبر البول.

الوقاية من الإمساك: وذلك لاحتواء العنب على نسبة عالية من الألياف والماء، وكلاهما يساهمان في تحسين عملية الهضم وإخراج البراز.

تقليل الالتهابات المزمنة وما يرتبط بها من أمراض: يعمل العنب كمضاد للالتهابات؛ وذلك لاحتوائه على مادة مضادة للالتهابات تمسى الريسفيراترول التي تجعل العنب يعمل كواقٍ من الالتهابات المختلفة، بما فيها التهابات المفاصل.

الوقاية من مرض السكري: فالبرغم من أن العنب من الأطعمة ذات المؤشر الجلايسيمي المتوسط، إلا أن مركب الريسفيراترول المتواجد في العنب يمكن أن يقلل من خطر الإصابة بالسكري من خلال زيادة حساسية الأنسولين وزيادة إنتاج خلايا البنكرياس لهذا الهرمون .

تعزيز صحة البصر والوقاية من أمراض العيون: ويعود ذلك لاحتواء العنب على العديد من المركبات التي تقوم بحماية شبكية العين، كما أنه يحتوي على اللوتين والزياكسانثين المهمان للحفاظ على صحة العيون.

اقرا المزيد من خلال موقع الطبي/https://altibbi.com:

ومن لا تتوافر عنده مصادر كافية للري يستطيع أن يزرع النخل ، حيث يمكن لأشجار النخيل أن تنمو في كافة أنواع التربة ، فهي تتحمل قلوية التربة وملوحتها ما لا يتحمله غيرها من الأشجار، فلها من الخصائص ما يوفر لها القدرة على النمو والإثمار التجاري المربح في أنواع متعددة من الأراضي ما بين الرملية الصرفة والطينية الثقيلة ، لكن تكثر زراعته في الصحراء ، ولا يتم زراعته في أوروبا ، حيث تتواجد أشجار النخيل على سواحل البحر المتوسط ، فنخيل التمر يحتاج حر شديد كي يكتمل نمو ثماره، لذلك تجد فصائل اخرى في المناطق المعتدلة أو الباردة للزينة فقط ولا تحمل الثمار[1] .

وكذلك الزيتون[2] أفضل مكان لزراعة شجرة زيتون هو في بقعة مشمسة ذات تربة بتصريف جيد بسبب حرارتها وخصائصها المقاومة للجفاف، إذ قد تفشل أشجار الزيتون في الازدهار في التربة الرطبة ، وتعتبر قارة أوروبا من أبرز منتجي

---

1) التمر : تعزيز صحة الجهاز الهضمي
بما أن التمر مصدر غني بالألياف الغذائية القابلة للذوبان وغير القابلة للذوبان، فبالتأكيد سيكون له دور في تعزيز صحة الجهاز الهضمي وعمله، والوقاية من بعض الاضطرابات المعوية، مثل:تحسين حركة الأمعاء عن طريق الوقاية من الإمساك وعلاج الإسهال.
الوقاية من التهابات الأمعاء والقولون نتيجة خصائصه المضادة للبكتيريا، ودوره في تحفيز نمو البكتيريا النافعة في الأمعاء.
الوقاية من البواسير وسرطانات الجهاز الهضمي.
الحفاظ على صحة مينا الأسنان والوقاية من تسوس الأسنان.
علاج فقر الدم
يعد التمر مصدرًا ممتازًا للعديد من المعادن ومن بينها الحديد، ما يجعل التمر يلعب دورًا جيدًا في علاج فقر الدم (Anemia) الناتج عن نقص الحديد، كما يساعد الحديد على إمداد الجسم بالطاقة والتخلص من التعب الناتج عن فقر الدم.
توفير الطاقة للجسم :يحتوي التمر على نسبة عالية من الكربوهيدرات والسكريات الطبيعية، مثل: الغلوكوز(Glucose) ، والسكروز(Sucrose) ، والفركتوز وجميعها تمد الجسم بالطاقة، وترفع مستويات السكر في الدم، وقد تكون وجبة خفيفة مثالية ومناسبة خاصة ما قبل التمرين للرياضيين.
تعزيز صحة الجهاز العصبي :يحتوي التمر على مجموعة من الفيتامينات التي تعد مهمة وضرورية لعمل الجهاز العصبي والدماغ، فمحتوى التمر العالي من الغلوكوز ضروري لعمل الدماغ باعتباره المصدر الرئيسي للطاقة.
كما أن احتواء التمر على البوتاسيوم يساعد في عمل الأعصاب بفعالية أكبر، إضافة إلى ذلك فإن مكونات التمر تعمل على زيادة اليقظة، وسرعة البديهة، ورد الفعل على المحفزات المختلفة.
الحفاظ على صحة القلب : يعد التمر مفيد جدًا لصحة القلب، إذ إنه مصدر للبوتاسيوم والمغنيسيوم المهمين لعمل القلب، كما أن غنى التمر بالألياف الغذائية يجعل له دورًا في خفض مستويات الكوليسترول الضار (LDL) في الجسم، مما يجعل له دور في الوقاية من السكتات الدماغية(Stroke) ، والنوبات القلبية، وتصلب الشرايين.

مضاد للالتهابات : من فوائد التمر غناه بالمغنيسيوم، والكبريت، ومضادات الأكسدة ما يجعل له آثار مضادة للالتهابات.
فقد وجد أن للتمر دور في التقليل من فرص الإصابة بأمراض القلب، والتهاب المفاصل، ومرض الزهايمر، والتهابات الشرايين، والتهابات الجهاز الهضمي نتيجة محاربة التأكسد الإجهادي الحاصل بسبب الجذور الحرة.(Free radicals)
السيطرة على ضغط الدم : يُعد التمر مصدر غني بالبوتاسيوم، ويعد من العناصر المهمة للحفاظ على اتزان السوائل في الجسم والسيطرة على ضغط الدم، بالإضافة إلى عنصر المغنيسيوم الذي يساعد على خفض ضغط الدم.
مفيد لمرضى السكري : على الرغم من كون التمر مصدر عالي الكربوهيدرات والسكريات البسيطة، مثل: الغلوكوز، والسكروز، والفركتوز، إلا أنه بإمكان مريض السكري تناوله باعتدال، وينصح عادة بتناول مريض السكري للتمر ضمن خطة غذائية محسوبة بعد استشارة الطبيب .
مفيد لصحة العظام : للتمر فوائد عديدة على صحة العظام والوقاية من ترقق وهشاشة العظام لاحتواء التمر على عناصر مهمة لنمو العظام والمحافظة على صحتها، مثل: السيليزيوم، والنحاس، والمنغنيز.
مهم لصحة الأطفال : يُعد التمر غذاء لين سهل الهضم وغني بالألياف والمغذيات المفيدة للطفل، وبالإمكان استخدامه أثناء فطام الطفل وفي المراحل الأولى من التسنين لطراوته، ولكن يجب الانتباه لضرورة تنظيف أسنان الطفل جيدًا بعد تناوله حتى لا يصاب بتسوس الأسنان.
مفيد للصحة الجنسية :وجد أن للتمر دور في زيادة القدرة الجنسية، وعلاج بعض الاضطرابات الجنسية التي قد تؤدي للعقم، كما أن للتمر دور في زيادة عدد الحيوانات المنوية وتحسين حركتها، بالإضافة إلى كون التمر يمد الجسم بمصادر للسكريات البسيطة الضرورية لإمداد الخلايا بالطاقة وزيادة القدرة على الانتصاب .
فوائد أخرى لمكونات التمر : لا تقل نواة التمر أهمية عن الثمرة نفسها فهي غنية بالعناصر المهمة من ألياف غذائية ومضادات قوية للأكسدة (Antioxidants) بالإضافة إلى البروتينات والدهون، التي تساعد على مقاومة التجاعيد، وتعزيز صحة الشعر وتقوية الحواجب.
2) الزيتون : يحتوي الزيتون على العديد من العناصر الغذائية والمركبات المفيدة لصحة الجسم، والتي تتضمن:
الفيتامينات، وأهمها فيتامين هـ، بالإضافة إلى:
فيتامين أ.
فيتامين ك.
فيتامين ب3.
فيتامين ب6.
فيتامين سي.
المعادن، وأهمها الكالسيوم والحديد، بالإضافة إلى:
النحاس.
المغنيسيوم.
البوتاسيوم.
الصوديوم.
الزنك.
الدهون، حيث أن معظم الدهون في الزيتون تكون صحية ومن نوع الدهون أحادية اللاإشباع، بالإضافة إلى كميات أقل من الدهون المشبعة والدهون متعددة اللاإشباع.
الألياف.

الزيتون في العالم، حيث تضم حوالي 500 مليون شجرة زيتون. تتجاوز الإنتاج في هذه القارة ثلاثة أرباع إجمالي إنتاج العالم[1].

أما الرمان فهو يزرع في التربة المالحة ويقاوم الجفاف ، بالإضافة للقدرة على النمو في التربة الثقيلة وضعيفة الصرف لحد ما، وتعتبر التربة العميقة جيدة الصرف من أفضل أنواع الأتربة المناسبة لنمو الرمان بالشكل المطلوب ، شجرة الرمان من الأشجار المعمرة النفضية موطنها الأصلي إيران انتشرت زراعتها في كثير من البلدان العربية لدفئها. وتنتشر زراعته في المناطق المحاذية للبحر الأبيض المتوسط . وذلك مشابه لانتشار أشجار الزيتون ، وكذلك في اليمن ومدينة الطائف الجبلية غرب السعودية. ويعد الرمان اليمني من أجود أنواع الرمان بالعالم يليه رمان الطائف لكبر حجمه، وتشتهر إسبانيا بزراعة الرمان والذي نقله العرب إليها منذ القدم[2] .

البروتينات. [2-4]
كما يحتوي الزيتون على عدد من المركبات المضادة للأكسدة الفينولية، ومنها الأوليوروبين (بالإنجليزية(Oleuropein :، والهيدروكسي تايروسول، والكيرسيتين. [3]
للزيتون فوائد صحية كثيرة سواء الزيتون الأخضر أو الأسود، وفيما يلي نذكر هذه الفوائد الصحية:
رافع للمناعة ومضاد للأكسدة
يعد الزيتون غنياً بمضادات الأكسدة، وخاصة الفيتامين هـ، المفيدة لصحة الجهاز المناعي، كما أن تناول الزيتون يمكن أن يعمل على رفع مستويات الجلوتاثيون المعروف بأنه من أقوى مضادات الأكسدة المتواجدة في الجسم. [1،3]
أيضاً، يعتبر الزيتون من الأطعمة المخمرة، وبالتالي فهو يساهم بدعم صحة البكتيريا النافعة المتواجدة في مختلف أنحاء الجسم، والتي لها دور في حماية الجسم من الأمراض. [4]
كل ذلك يمكن أن يعزز من فوائد الزيتون للمناعة، المتمثلة بتقليل الالتهابات ومحاربة البكتيريا والفيروسات المسببة لمختلف الأمراض المعدية. [3]
محاربة أمراض القلب والشرايين
إن الزيتون مفيد لصحة القلب والشرايين، وذلك للأسباب التالية:
الزيتون غني بالدهون أحادية اللاإشباع، مثل حمض الأوليك، والذي يساعد في الحفاظ على مستويات الكوليسترول في الدم ويمنع أكسدة الكوليسترول الضار.
الزيتون يحتوي على العديد من مضادات الأكسدة، وأهمها المركبات الفينولية، التي لها دور في الحفاظ على صحة القلب والشرايين.
الزيتون غني بالنحاس، والذي يرتبط نقص مستوياته في الدم بالإصابة بأمراض القلب.
الزيتون يساعد على تنظيم ضغط الدم والتقليل من ارتفاعه. [2-5]
كل ذلك يعزز من فوائد الزيتون في التقليل من مخاطر الإصابة بأمراض القلب والشرايين، بما فيها تصلب الشرايين، والنوبات القلبية، والسكتات الدماغية، كما يجعل الزيتون يساهم في التقليل من معدل حدوث الوفيات نتيجة الإصابة بهذه الأمراض. [1،2،4]
يساعد على تقليل الالتهابات : يمكن أن تتضمن فوائد الزيتون الصحية التقليل من التهابات الجسم والألم المرافق لها، وبالتالي فمن الممكن استخدامه لعلاج العديد من الأمراض الالتهابية، بما في ذلك التهاب المفاصل. [5] ويعود السبب في ذلك إلى مادة الأوليوروبين، وحمض الأوليبك، والفيتامين هـ، وغيرها من المركبات المضادة للأكسدة التي تمتلك خصائص مضادة للالتهاب. [3-5]

يساعد على تنظيم السكر في الدم : من فوائد الزيتون لمرضى السكر مساهمته خفض مستويات السكر في الدم، وذلك من خلال زيادة حساسية الإنسولين، وهو ما يجعله مفيداً أيضاً في الوقاية من الإصابة بمرض السكري من النوع الثاني. وكل ذلك يعود أيضاً لاحتواء الزيتون على الدهون أحادية اللاإشباع والمركبات المضادة للأكسدة. [1،4،5]

الوقاية من السرطان : يحمي الزيتون خلايا الجسم من الأمراض المختلفة، مثل السرطان، وذلك من خلال وجود مادة فيه تسمى الأوليوكانثال (بالإنجليزية (Oleocanthal : والسكوالين (بالإنجليزية(Squalene :، اللتان ترتبطان بشكل إيجابي بالوقاية من السرطان، فهما تعملان على قتل الخلايا السرطانية. [1،5]

ولا ننسى أيضاً، وجود مضادات الأكسدة الأخرى وحمض الأوليبك فجميعها تعمل على الوقاية من السرطان، وذلك بفضل خصائصها المضادة للالتهاب الذي يعتبر من العوامل المحفزة للإصابة بالسرطان. [3،5]
ومن أنواع السرطانات التي يمكن أن يكون الزيتون مفيداً للوقاية منها، سرطان الثدي، وسرطان القولون، وسرطان المعدة. [3]
الوقاية من هشاشة العظام
إن الزيتون غني بالعديد من المركبات التي لها دور أساسي في المحافظة على قوة العظام وحماية الفرد من الإصابة بهشاشة العظام، ومن هذه المركبات:
مركبات البوليفينول، التي من الممكن أن تساعد في منع فقدان العظام وذلك من خلال زيادة عدد الخلايا البانية للعظم.
مركب الهيدروكسي إيروسول، والذي يساعد أيضاً في منع فقدان العظام، حيث أن له دور في تكوين العظام والحفاظ عليها ومنع ظهور أعراض هشاشة العظام. [3،5]
اقرأ أيضاً: استخدامات وفوائد زيت الزيتون للعظام والمفاصل
الوقاية من أمراض الدماغ : إن الفيتامين هـ، ومركب الأوليوكانثال، ومركب الأوليوروبين، وغيرها من المضادات الأكسدة تجعل من فوائد الزيتون المحتملة الحفاظ على صحة الدماغ ووقايته من الأمراض المختلفة، حيث أنها مجتمعة تساعد على تحسين الأداء الإدراكي وتحمي خلايا الدماغ من الإجهاد التأكسدي. [1،4،5]

أيضاً، إن الأحماض الدهنية أحادية اللاإشباع الموجودة في الزيتون تعد مهمة لصحة الدماغ، فهي تساعد في الحفاظ على الذاكرة وتحسين التركيز ، ولذلك من الممكن أن يساعد الزيتون في تخفيف معدلات الإصابة بمرض الزهايمر أو مرض الباركنسون.
يساعد في عملية الهضم : يعتبر الزيتون مصدراً للألياف الغذائية والتي لها دور في تحسين أداء الجهاز الهضمي والحفاظ على صحته. وليس هذا فحسب، فكما ذكرنا سابقاً أن الزيتون يعتبر من الأطعمة المخمرة وهو غني بالبكتيريا النافعة التي لها فوائد كثيرة في الحفاظ على صحة الجهاز الهضمي.
أيضاً، من فوائد الزيتون للمعدة أن المركبات الفينولية المتواجدة فيه يمكن أن تساعد على التقليل من التهاب المعدة الناجم عن الإصابة ببكتيريا الملوية البوابية.
يساعد في إنقاص الوزن : إن الأحماض الدهنية أحادية اللاإشباع يمكن أن تساعد على التقليل من خطر الإصابة بالسمنة، فهي تساعد على زيادة الشعور بالشبع، كما أنها تزيد من مستويات الكوليسترول الجيد، مما يزيد من كفاءة حرق السعرات الحرارية أثناء أداء التمارين الرياضية.
يحافظ على صحة البشرة والشعر : يساعد الزيتون في حماية البشرة والشعر من أضرار الأشعة فوق البنفسجية، كما يمكن أن يساعد على ترطيب البشرة والشعر، ويعود ذلك لما يحتويه من مركبات مضادة للأكسدة وغناه بالفيتامين هـ.

[1] https://www.ammonnews.net/article/736701)
2) الرمان : 1. مقاومة بعض أنواع السرطان

قوله (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ..) (141) اختتمت الآية بتذكير بحق الله في المزروعات ، ففيها زكاة ، قَالَ مَالِك (ذَلِكَ الزَّكَاةُ)[1] ، وهو النصيب الذي كان يؤول إلى السدنة عندما كان أهل الجاهلية يقسمون ، ولكن الإسلام جعل القسمة كلها لله ، فما ينتفع به الزارع من الزرع هو نعمة يجب أن يشكر ربه عليها ، ومازاد عن ذلك فهو في سبيل الله ، ومقداره —الحد الأدنى– على قول ابن عباس (**الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ**) [2]، أي **العشر للسقي بالمطر ، ونصف العشر للسقي بالري** ، يصرف في المصارف الشرعية على الفقراء والمساكين والغارمين وابن السبيل ..الخ .

قوله (..وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (141) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : **أَحَلَّ اللَّهُ الأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا، أَوْ مَخِيلَةً**"[3] ، وضابط الإنفاق في كل الأحوال — أي سواء الانفاق علي النفس أو الغير – عدم الإسراف أي حد القوام ، لتكون النفقة بقدر الحاجة ، تلك الحاجة هي توسط واعتدال ، قال تعالى (**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**) (الفرقان 67).

يحتوي الرمان على كميات مرتفعة جدًّا من مضادات الأكسدة بنسب تتجاوز بعض الأغذية والمشروبات الشائعة الغنية بمضادات الأكسدة كالشاي الأخضر، وتلعب مضادات الأكسدة دورًا هامًّا في مقاومة حالة الإجهاد التأكسدي والشوارد الحرة المسببة لها، والتي يمكن أن تحفز نشأة السرطان .
لذا وبفضل محتوى الرمان من مضادات الأكسدة والعديد من المغذيات الهامة الأخرى يمكن لتناول الرمان بانتظام أن يساعد على الآتي:
مقاومة انتشار خلايا سرطان البروستاتا، وتسريع موتها.
الوقاية من أنواع معينة من السرطانات أو مقاومة انتشار خلاياها بعد نشأتها، مثل: سرطان الثدي، وسرطان القولون، وسرطان الرئة، وسرطان الجلد.
.2تخفيف حدة فقر الدم
يحتوي الرمان على نسب جيدة من معدن الحديد، والذي يلعب دورًا هامًّا في تعزيز إنتاج وضخ الدم، لذا يمكن لأكل الرمان أو لشرب عصيره الطبيعي بانتظام أن يساعد على تخفيف حدة فقر الدم والعديد من الأعراض التي قد ترافقه، مثل:التعب.فقدان أو ضعف حاسة السمع.الضعف العام.الدوار.
.3تقوية عظامك ومفاصلك وجعلها أقل عرضة للأمراض
يحتوي لب الرمان على مواد قد تساعد على دعم صحة العظام والمفاصل ومقاومة بعض الأمراض التي قد تصيبها، مثل المواد الآتية :
مضادات أكسدة متنوعة ومواد طبيعية مضادة للالتهاب، وهذه قد تساعد على تخفيف حدة الالتهابات وإبقائها تحت السيطرة، بما في ذلك الالتهابات التي قد تلعب دورًا في نشأة أمراض العظام والمفاصل .
مواد قد تمنع إنتاج أنزيمات يمكن لنشاطها أن يسبب تفكك بعض الأنسجة الرابطة في الجسم.
لذا من فوائد أكل الرمان أنه قد يساعد على مقاومة أو إبطاء وتيرة التلف والتنكس الذي قد يصيب الغضاريف، مما قد يساعد على إبقاء حالة مرضى الفصال العظمي تحت السيطرة أو تأخير ظهور المرض لدى المرشحين للإصابة به، بالإضافة لتخفيف حدة أعراض بعض أمراض العظام والمفاصل الأخرى، مثل: التهاب المفاصل الروماتويدي .
.4مقاومة أمراض القلب والشرايين : قد يعود أكل الرمان على جهازك الدوراني على وجه الخصوص بالعديد من الفوائد، مثل:
خفض ضغط الدم المرتفع، وذلك بفضل محتوى الرمان المرتفع من بعض المركبات الطبيعية التي يعتقد أنها قد تخفض الضغط، مثل: مضادات الأكسدة .
إبقاء مستويات الكولسترول السيئ تحت السيطرة، وتحسن مستويات الكولسترول الجيد، مما قد يساعد على تقليل تراكم الدهون على الجدران الداخلية للأوعية الدموية، فضلًا عن تحسين تدفق الدم في الأوعية الدموية.
الحفاظ على صحة القلب وانتظام وظائفه .
لذا يمكن لتناول الرمان بانتظام أن يجعلك أقل عرضة لأمراض ومشكلات القلب والشرايين، مثل التصلب العصيدي والنوبات القلبية.
.5تعزيز صحة الدماغ، وتقوية الذاكرة
بفضل غنى الرمان بمضادات الأكسدة ومضادات الالتهاب، يمكن لتناوله أن يساعد على:
مقاومة تعرض الدماغ لبعض الإصابات القاتلة .
خفض فرص الإصابة بمرض الزهايمر، أو إبطاء وتيرة تقدم المرض .
تحسين الذاكرة عمومًا، لا سيما الذاكرة المتعلقة باكتساب المهارات والتعلم.
.6فوائد أكل الرمان الأخرى
كما قد يعود أكل الرمان بانتظام على الجسم بمنافع أخرى، مثل:
تحسين الأداء الرياضي، وتسريع تعافي العضلات والجسم بعد ممارسة الرياضة.
إبطاء وتيرة تقدم الجسم في العمر، وعكس بعض مؤشرات الشيخوخة الطبيعية، بما في ذلك علامات شيخوخة البشرة، كتجاعيد البشرة .
رفع مستويات الخصوبة للنساء والرجال، وتعزيز الرغبة الجنسية، لا سيما وأن الرمان قد يساعد على: رفع مستويات التستوستيرون، ومقاومة بعض المشكلات التي قد تصيب الحيوانات المنوية.
دعم صحة مرضى السكري، من خلال تحسين مقاومة الأنسولين، وخفض سكر الدم.
القيمة الغذائية للرمان
تنبع غالبية فوائد أكل الرمان من قيمته الغذائية المرتفعة، إذ تحتوي كل 100 غرام من حبات الرمان الطازجة على : سعرات حرارية 83 سعرة حرارية بروتينات 1.67 غرام ألياف غذائية 4 غرام حديد 0.3 ملليغرام بوتاسيوم 236 ملليغرام كالسيوم 10 ملليغرام فسفور 36 ملليغرام فيتامين ج 10.2 ملليغرام زنك 0.35 ملليغرام فوليت 38 مايكروغرام
إقرأ المزيد على ويب طب:https://www.webteb.com/articles _34554

[1]) موطأ مالك ج2 ص 386 رقم 944
[2]) السنن الكبرى للبيهقي ج4 ص 132 رقم 7750
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 407

قوله (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا[1]..) (142) حمولة كقوله (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ **لِتَرْكَبُوهَا**) (النحل 8) ، فعن ابن عباس قال : (والحمولة ما حُمِل عليه ، الإبل خاصة ، والفرش ما أُكِل منه)[2] ،

فمعلوم أن الجمل يستطيع أن يحمل حمولة تتراوح بين 150 إلى 270 كيلوغراماً 330) إلى 600 رطل) بشكل مريح أثناء السير لمسافات طويلة. ومع ذلك، يمكن لبعض الجِمال القوية والمدربة أن تحمل أوزاناً تصل إلى **450 كيلوغراماً** ، ولكن لفترات قصيرة ولو مسافات قصيرة جداً لحمايتها من الإصابة.

كما يستطيع الحصان أن يجر عربة محملة بالبضائع والأمتعة بما يعادل ثلاثة أضعاف وزنه تقريبا

فكما نوهت الآيات إلى "جنات الثمار" لتقطع الطريق على من يقتلون أولادهم مخافة الفقر ، فإنها لفتت الإنتباه إلى "الأنعام" كذلك للإشارة باعتبارها رزق من الله تعالى ، للمسلم الحق أن يربيها في أرض الله الواسعة ، وفي مختلف الظروف ، وعلى كل حال ، يقول النبي ﷺ (يُوشِكُ **أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ** يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ)[3] ، فقد أحاط الله بالأسباب من كل جانب ليلتمس منها العبد رزق الله ، فلا يخشى الفقر.

قوله (..كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ..) قال إسماعيل حقي البهوتي (يدل على أنه تعالى **قد تكفل برزق كل أحد** فإنه لو لم يتكفل برزقه لما قال (كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) وإذا تكفل برزقه وجب أن لا يبالغ في الطلب وأن يعول على وعده وإحسانه فإنه أكرم من أن يخلف الوعد)[4] ولذلك قال رسول الله ﷺ (إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن **تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها**، فاتقوا الله، **وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته)**[5].

فالاستمتاع بالطيبات عبادة ، قال الإمام البقاعي في قوله تعالى (كلوا مما رزقكم الله) أي (لأنه الملك الأعظم الذي لا يسوغ رد عطيته)[6] ، قال ابن عاشور (ومناسبة الأمر بالأكل بعد ذكر الأنعام : أنه لما كان قوله : (وفرشا) شيئا ملائما للذبح كما تقدم عقب بالإذن بأكل ما يصلح للأكل منها ، واقتصر على الأمر بالأكل لأنه المقصود **من السياق إبطالا**

---

1) الحمولة الإبل التي تطيق ان يحمل عليها والفرش الصغار التي لا تطيق الحمل قال المفسرون الحمولة الإبل والخيل والبغال والحمير وكل ما حمل عليه والفرش الغنم (شهاب الدين الهائم المصري : التبيان في تفسير غريب القرآن ج1 ص 199)
قيل: الفرش الصغار من الإبل أو من الأنعام كلها، لأنها قريبة من الأرض فهي كالفرش. وقيل: الفرش ما يذبح لأنه يفرش على الأرض حين الذبح أو بعده، (التحرير والتنوير ج7 ص 94)
2) الدر المنثور ج4 ص 147
3) رواه البخاري ج1 ص 31 رقم 18
4) تفسير روح البيان ج2 ص 345
5) رواه أبو نعيم في الحلية : وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 32 باب الاستعفاف والقناعة حديث رقم 27
6) نظم الدرر ج3 ص 145

لتحريم ما حرموه على أنفسهم وتمهيدا لقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فالأمر بالأكل هنا مستعمل في النهي عن ضده وهو عدم الأكل من بعضها أي لا تحرموا ما أحل لكم منها اتباعا لتغرير الشيطان بالوسوسة لزعماء المشركين الذين سنوا لهم تلك السنن الباطلة وليس المراد بالأمر الإباحة فقط) [1].

قوله (..وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (142) بيد أن الشيطان لن يترك ابن آدم يتمتع بخيرات الله تعالى ليشعر بالفضل فيشكر رازقه ، وإنما يضع له من العقبات ما يحول بينه وبين ذلك ، وأول خطواته ليقع الإنسان في الشرك بالله الوسوسة ، بأن يلقي إليه بالفكرة التي تخيفه ، فيفعل من الحرام ما يجنبه الخوف منها في زعمه ، يخيفه بالفقر فيبخل ، كذلك الحال لو ألقى إليه بفكرة فوات الشهوة فيجعله يتعجل أن يقضيها في الحرام حتى لا تفوته ، كما في قوله (**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ** وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة 268) .

ثم يحمله بعد ذلك على أن يشدد على نفسه كطريقة للتكفير عن الذنب ، فيُشَرّع له دينا لم يأذن به الله ، أي يبدل دينه وهو لا يدري ، فعن مسروق قال : أتي عبد الله رضي الله عنه بضرع فقال للقوم : ادنوا فأخذوا يطعمونه وكان رجل منهم في ناحية فقال عبد الله : أدن فقال : إني لا أريده فقال : لم ؟ قال : لأني حرمت الضرع فقال عبد الله : هذا من خطوات الشيطان فقال عبد الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) أدن فكل وكفر عن يمينك فإن هذا من خطوات الشيطان)[2]

ثم هو يأمره –بعد ذلك– بالبخل والتقتير في الصدقات ،وعدم إيصال الحقوق لأهلها ، ثم يأمره بالسرف والتبذير فيكون أخا للشيطان ، ثم يأمره بأن يصرف ماله في القربى للشيطان ...وهكذا حتى يأتي كفرا بواحا ، يقول خالد أبو شادي (**الخطوة مسافة يسيرة ليست ذات قيمة، لكن بها يستدرج الشيطان ضحاياه**، وهو لحوح، فلا يكتفي بأول خطوة حتى يزداد) [3]

والإرشاد الإلهي للنجاة من مكائد الشيطان هو **عدم الاسترسال معه في الوسوسة ، والاستعاذة بالله منها** ، فإن ذلك يصرف كيده ، إذا كنت تسير في طريق ونبحتك كلاب الراعي.. فماذا تصنع؟ تقول: أدافعه.. إن دافعته عاد يجري وراءك.. ثم تدافعه فيعود ويجري خلفك.. وهكذا.. فما الحل؟ . استعن بالراعي .. يكفيك كلابه ..

قال ابن القيم (ولما علم الله سبحانه وتعالى حَسَد العدو للعبد ، وتفرّغه له ، وعلم عجز العبد عنه ، أمره بأن يستعيذ به سبحانه ، ويلتجئ إليه في صرفه عنه ، فيكتفي بالاستعاذة من مؤونة محاربته و مقاومته ، وكأنه قيل له : لا طاقة لك بهذا العدو ، فاستعذ بي أعيذك منه ، و استجر بي أجيرك منه ، و أكفيكه و أمنعك منه)

---

[1]) التحرير والتنوير ج1 ص 1444
2) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 343 رقم 3223
3) دكتور صيدلي وداعية من أهل مصر ومقيم في الكويت https://twitter.com/khaledabushadi/status/673575200475230208

وقال ابن القيم قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية يومًا : إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته ، ومدافعته ، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب ، ويكفيكه ، فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم أبعده عنه)[1] ، وإن لم يستعذ العبد بالله انشغل بمدافعة الشيطان ، ولن ينتهي من وسوسته حتى يوقعه فيما حرم الله .

المسألة الثالثة : التناسل سنة ربانية ، فعلام قطع التناسل بتشريعات جاهلية

قوله (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟..)(144) قال القطان (الأنعام أربعة أنواع هي : الضأن والماعز ، والإبل والبقر ، وكل نوع منه زوج)[2].

وفي الآيتين أربعة استفهامات ، قال العلماء (الِاسْتِفْهَام لِلْإِنْكَارِ)[3] ، حيث يستهجن القرآن إصرار الكفار على تحريم ما أحله الله لهم من الطيبات ، وما رزقهم من فضله العظيم ، فليس أعجب من أن يحرموا هذه الأنعام التي سخرها الله لهم ، قال سبحانه (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ** لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الحج 36)، وقال سبحانه (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ **كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ** لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) (الحج 37) ، بل الأعجب كذلك أنهم يحرمون نسلها ، فما علة التحريم .

قال العلماء أي (قل لهم يا محمد منكراً عليهم : ما علة التحريم لما حرمتم من هذه الأزواج كما تزعمون؟ أهى كونها ذكوراً؟ ليس كذلك ، لأنكم تحلون الذكور أحياناً ، أهى كونها إناثاً؟ ليس كذلك لأنكم تحلون الإناث أحياناً ، أم هى اشتمال الأرحام عليها؟ ليس كذلك لأنكم لا تحرمون الأجنة على الدوام ، وتزعمون أن هذا التحريم من عند الله)[4]

وقد علمنا من علماء أصول الفقه أنهم يعللون أحكام الله تعالى بأوصاف ظاهرة ومنضبطة ، فأين هذه العلة في أحكام المشرعين من دون الله ، حيث لا تجد فيها انضباط ، وقد تخفى العلة في بعض الأحيايين رغم حاجة المسالة لأن يبسط عليها وصف الشارع ، لكنهم ولأنهم بشر لابد وأن يظهر القصور في قدرتهم على التشريع .

كذلك لو قسنا علي هذه المسألة كل تشريع من عمل البشر لوجدنا أن فيه كثير من الخلل ، فلا ينضبط التشريع الوضعي إلا إذا كان متسقا مع ما حكم الله به بالعدل والإحسان .

---

1) أسرار الصلاة ج1 ص 10
2) القطان ج2 ص 17
3) تفسير الجلالين ج2 ص 439
4) لجنة من علماء الأزهر : المنتخب ج1 ص 232

قوله سبحانه (..أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ..) (143) وليس ما تقدم فحسب هو ما يعاب عليهم ، وإنما يعاب عليهم كذلك **افتقار التشريع للمصدر الصحيح** ، إذ لو سبرنا عما يشرعه المشرعون من أحكام وضعية لوجدنا أنه إذا لم يرتكن إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، فإنه لن يكون ذو قيمة من حيث المصدر ، حيث يعزوه المشرعون إلى أمثلة وعادات بين مجتمعية لا تخلو من السفه والهوى لا أكثر ، ولذلك يتهكم المولى سبحانه من صنيعهم ، إذ لو قارنت بين ما وصى به الله وما وصى به المتفلسفون الذين يريدون الخروج عن أحكام الشريعة الإسلامية لوجدت أن الفارق بينهما كبير .

والأمثلة على ذلك كثيرة :-

من ذلك قولهم المساواة بين المرأة والرجل في الميراث : والله تعالى يقول (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) ، وهم يقولون للذكر مثل حظ الأنثى ، دون اعتبار لأن نصيب الذكر يوزع على أسرته ، بينما تستقل المرأة بنصيبها دون زوجها أو أسرتها ، والله تعالى يقول (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)(8)

ومن ذلك كذلك أنهم يسمحون للأبناء بالاستقلال عن الأسرة من سن الثامنة عشر دون مراعاة حق الوالدين في البر ولو كانوا إناثا ، والإسلام لا يسمح للمرأة أن تستقل عن أسرتها الأولى إلا بالزواج

كما يسمحون بوضع أباءهم وأمهاتهم في دار المسنين حتى لا يلتزموا برعايتهم ولا يحاسبوا على ذلك ، والله تعالى يقول (إما يبلغن عندك الكبر أو أحدهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما)

كما وصى الله تعالى الورثة لاسيما الأبناء بأن يتركوا بيت الزوجية عاما كاملا دون تقسيمه ضمن التركة لتستقل به زوجة أبيهم رفعا لشأنها وإكراما لها بعد وفاته ثم بعد هذا العام ليحق لها كذلك أن تستقل به إذا بلغ نصابه القدر الذي تتخارج به من التركة على قدر نصيبها منها حالما تختار ذلك لاسيما إذا ما أرادت التزوج بآخر بعد انقضاء عدتها ، كما في قوله تعالى (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة 240)

فهؤلاء المشرعون لم ولن يضاهوا الإسلام بتشريع من عندهم يحافظ على كرامة المرأة ونفسيتها في مثل هذه الظروف كما شرع الإسلام...

وهكذا لن تنضب الأمثلة من إظهار البون الشاسع بين تشريع الله ، وتشريعات البشر التي خلت من الرجوع لأحكام الشريعة الإسلامية.

قوله(..فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (144) قال الرازي (والله تعالى إذا **ذم الإضلال** الذي ليس فيه إلا تحريم المباح ، فالذي هو أعظم منه أولى بالذم)[1] ، ولهذا نظر الإسلام لهؤلاء القوم على أنهم مضلين ، قال رسول الله ﷺ(وَإِنَّ **مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي أَئِمَّةً مُضِلِّينَ**)[2] ، فإذا ما **زعموا** أن تشريعاتهم هذه توافق الشرع أو أن مصدرها الشرع ، ولم تكن كذلك ، فإنهم كاذبون فضلا عن أنهم مضلون .

---

[1]) تفسير الرازي ج7 ص 3

2) رواه ابن ماجة ج11 ص 445 رقم 3942 وصححه الألباني : سنن ابن ماجة ج2 ص 1304 رقم 3952

وليس بلازم أن يدعي المفتري على الله الكذب أنه رسول ، فكثير من المشرعين المضلين يلزمون الناس بتشريعاتهم الضالة وكأنهم آلهة وليسوا مجرد رسل ، فذلك أشد ، يقول النبي ﷺ (وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ **حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ** قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ)[1] ، ويقول النبي ﷺ (وَسَتَعْبُدُ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ وَسَتَلْحَقُ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ **دَجَّالِينَ كَذَّابِينَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ** كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي **عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ** لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[2] .

المسألة الرابعة : علة التحريم في الإسلام الرجس أو الفسق لا غير إلا أن يكون عقوبة بسبب الظلم

قوله (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (145) فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : "كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ، وَيَتْرُكُونَ أَشْيَاءَ تَقَذُّرًا، فَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ ،وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَأَحَلَّ حَلالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، **فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ مِنْهُ**، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ : " قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا "[3]

بذلك حسم الإسلام مسألة التحريم في عهدها المكي ، وقبل أن يشرع في تفصيلاتها في العهد المدني ، وذلك بحصر المحرمات من الأنعام بذكر وحصر علة التحريم ، فتكون المحرمات من الأنعام إما لعلة أنها ميتة ، أي لم تذك الذكاة الشرعية بالذبح وتصفية دمها من الجسد ، فإذا ماتت بسبب غير ذلك فلا تحل سواء أكانت موقوذة أو متردية أو نطيحة أو ما أكل السبع ..الخ ، كذلك حرم الشرع الدم المسفوح ، فيخرج من دائرة التحريم الدم المتخثر الباقي بعد ذكاة الذبيحة بالقدر القليل ، كذلك لحم الخنزير فعينه حرام ، **وهو بذاته علة ظاهرة منضبطة** ، وأخيرًا كل ما ذبح لغير الله تعالى ، كالذي ذبح على الأنصاب والأزلام .

وبذلك حصرت الآية أصناف المحرمات من الأنعام التي خلقها الله لننتفع من لحمها وركوبها قال تعالى (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الحج 36)

ولم تذكر المحرمات من غير الأنعام كالخمر لأن السياق في إطار الرد على ضلالات الجاهلية وما ألفوه من تشريعات وضعها لهم سدنة الاصنام ليضلوا الناس بها عن شرع الله ، فيحرموا ما خلق الله لهم من الطيبات .

---

1) رواه البخاري ج11 ص 441 رقم 3340
2) رواه ابن ماجة ج11 ص 445 رقم 3942 وصححه الألباني : سنن ابن ماجة ج2 ص 1304 رقم 3952
3) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 416

واستثنت الآية من ذلك الحظر حال الضرورة يعني "المخمصة" حيث الجوع الشديد ، والشعور بضعف الجسد والهزل حتى يكاد يقتله العطش والجوع ، فيكون الشارع قد أفصح عن مقاصده ، وأنه راعى حق الإنسان في الحياة وقدمه على مقاصد الشرع التي تتمثل في حفظ شعائر الإسلام .

ووضع الشارع ضابطين للاستفادة من هذه الرخصة ، وهما وصفان مانعان فقال سبحانه (غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ) ، بما ينفي أن يستحل المرء ما حرم الله في غير حالة الضرورة ، أي في غير المخمصة يكون ذلك بغيا وعدوانا على حق الله تعالى في تحريم ما تقدم ، فإذا تحقق مناط الاستثناء حلت الميتة أو لحم الخنزير أو الدم ...الخ ، ولكن بقدر ما يقيم المرء صلبه حتى ينجو من المهلكة متى أحاطت به ، دون أن يتعدى إلى حد الشبع .

قوله (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (146) انتقلت الآيات من وصف ما حرم لأجل علة ظاهرة منضبطة كما تقدم ، إلى الحكاية عن المحرمات بغير بحث عن علة التحريم ، وإنما التحريم كان عقوبة لأجل التعنت والظلم والبغي ، وقد كان ذلك في شرع من كان قبلنا ، وهم اليهود حيث حرم الله عليهم طيبات أحل لهم ، قال أسعد حومد (وَيَذْكُرُ تَعَالَى : أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَى اليَهُودِ – عَلَى سَبِيلِ العُقُوبَةِ لَهُمْ لاَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أُصُولِ شَرْعِهِمْ الأصناف المذكورة في الآية)[1]

وهي نوعان :- "الأول" لَحْمَ كُلِّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ البَهَائِمِ وَالطُّيُورِ أَيْ (مَا لَيْسَ بِمَشْقُوقِ الأَصَابِعِ كَالإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالإِوَزِّ وَالبَطِّ) قال ابْنِ عَبَّاسٍ : (هُوَ الَّذِي لَيْسَ بِمُنْفَرِدِ الأَصَابِعِ، يَعْنِي : لَيْسَ بِمَشْقُوقِ الأَصَابِعِ، مِنْهَا الإِبِلُ وَالنَّعَامُ)[2]

"الثاني" وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَ البَقَرِ وَالغَنَمِ الخَالِصَةَ ، وَهِيَ الثُّرْبُ (الشَحْمُ الذِي يَلُفُّ الأَمْعَاءَ) .

[1]) تفسير حومد ج1 ص 936
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 424

واستثنى من التحريم ثلاثة الأول (مَا عَلَى الظَّهْرِ مِنْ شَحْمٍ) – وَمِنْهُ الإِلْيَةُ –

الثاني : (وَمَا وُجِدَ فِي الحَوَايَا) وَهِيَ المَبَاعِرُ وَالمَرَابِضُ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ : " " أَوِ الْحَوَايَا " هُوَ الْمَبْعَرُ"[1]

الثالث : (وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ مِنَ الشَّحْمِ وَالعِظَامِ) .

(فَإِنَّهُ حَلالٌ ، وَهَذَا التَّحْرِيمُ فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى اليَهُودِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ ، وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ)[2].

يلاحظ مما تقدم أن **عقوبة بني إسرائيل كانت التعسير عليهم في معرفة الحلال والحرام** ، فلكي يتعرفوا على حكم الله فيما أحله وما حرمه لابد لهم من **دراسة المسألة تفصيلا** ، والتفرقة بين أنواع الشحوم المختلفة وأنواع الدواب المختلفة ، وهو ما يعني **التعسير عليهم في العلم بها** ، ورجوعهم إلى علمائهم ليفصلوا لهم **الأمر** ، **فبعد أن كان طريق معرفة الحلال من الحرام يسير بالتفرقة بين ما هو طيب وما هو خبيث ، أضحت المسألة غير ذلك ، عقوبة لهم** ، وذلك أنهم تساهلوا في أمر التحليل والتحريم ظلما منهم ، فعسر الله عليهم .

قال ابن عجيبة (يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصي تضيق على العبد لذائذ متعته ، وتقتر عليه طيب رزق بشريته ، وتضيق عليه آيضًا حلاوة المعاملة في قلبه)[3] ، بهذا نفهم أن الشارع لم يحرمها إلا لأجل ظلمهم عقوبة لهم ، فمن تساهل في المحرمات يشدد عليه ليبحث هو إن أراد توبة عما حرمه الله مما أحله له

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج5 ص 426
[2]) تفسير حومد ج1 ص 936
[3]) ابن عجيبة ج2 ص 216

وكذلك العكس بالعكس فمن ضيق على نفسه فحرم ما أحله الله فقد شدد على نفسه ، فيشدد الله عليه ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)[1] ، وقال رسول الله ﷺ (إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ)[2] ، قال الخطابي (هذا فيمن سأل تكلفا وتعنتا فيما لا حاجة له إليه لافيمن سأل لضرورة وقعت له)[3]، (وذلك لأن الله تعالى قال ما فرطنا في الكتاب من شيء أي ما نفرط لأن القرآن كان ينزل بعد ذلك كما كان ينزل قبله فكانوا ممنوعين عن الاستعجال بالسؤال عما أخبر الله تعالى أنه لا يفرط فيه)[4].

وإشكالية اليهود لم تقتصر على مجرد السؤال تكلفا ، وإنما كذلك التحايل على شرع الله ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ فَقَالَ لَا هُوَ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ)[5]، قال العلماء في الحديث (تنبيه على تعليل تحريم بيع هذه الأشياء فإن العلة تحريمها ، ووجه اللوم على اليهود في تحريم أكل الثمن بتحريم أكل الشحوم استدل المالكية بهذا على تحريم الذرائع من حيث إن اليهود توجه عليهم اللوم بتحريم أكل الثمن من جهة تحريم أكل الأصل وأكل الثمن ليس هو أكل الأصل بعينه لكنه لما كان تسببا إلى أكل الأصل بطريق المعنى استحقوا اللوم به)[6]،قال النجمي (يؤخذ من هذا الحديث أيضاً تحريم الذرائع التي توصل إلى الحرام كما حصل لليهود)[7]، قال السيوطي (وَأَجْمَله أَذَابَهُ أَيْ اِسْتَخْرَجُوا دُهْنه قَالَ الْخَطَّابِيُّ مَعْنَاهُ أَذَابُوهَا حَتَّى تَصِير وَدَكًا فَيَزُولُ عَنْهَا اِسْم الشَّحْم ، وَفِي هَذَا إِبْطَال كُلّ حِيلَة يُتَوَصَّل بِهَا إِلَى مُحَرَّم وَأَنَّهُ يَتَغَيَّر حُكْمه بِتَغْيِيرِ هَيْئَته وَتَبْدِيل اِسْمه)[8]، قال العلماء (المراد بقوله هو حرام أي البيع لا الانتفاع)[9] .

قوله (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (147) أي (فإن لم يرعووا بعد هذا البيان وكذبوك في نفي تحريم الله ما زعموا أنه حرمه فذكرهم ..)[10] ، قال السعدي أي (فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب)[11] ، قال ابن الجزي في قوله (ربكم ذو رحمة واسعة) أي (**لا يعاجلكم بالعقوبة على شدة جرمكم**) [12] ، قال صاحب الظلال (وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من **الإرهاب بالبأس** ، والله الذي خلق قلوب البشر؛ يخاطبها بهذا وذاك؛ لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب)[13].

---

[1]) رواه أبو داود ج13 ص 57 رقم 4258
[2]) رواه البخاري ج22 ص 257 رقم 6745
[3]) جلال السيوطي : الديباج على مسلم ج5 ص 341
[4]) المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ج2 ص 153
[5]) رواه البخاري ج7 ص 484 رقم 2082
[6]) ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ج1 ص 362
[7]) أحمد بن يحيى النجمي : تأسيس الأحكام ج4 ص 42
[8]) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي ج6 ص 28 رقم 4183
9) بدر الدين العيني الحنفي : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج18 ص 202 والمسألة تكلمنا فيها في سورة المائدة
[10]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج7 ص 108
[11]) تفسير السعدي ج1 ص 278
[12]) الوجيز للواحدي ج1 ص 209 - التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 477
[13]) في ظلال القرآن ج3 ص 166

قوله (لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) أي (لا تغتروا بسعة رحمته ، فإنه لا يرد بأسه عن مثلكم إما في الدنيا أو في الآخرة) [1].

المسألة الخامسة : شبهة الجبر عند المشركين وحجة الله البالغة في الرد عليهم

قوله (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) (148) يحاجون النبي ﷺ في القدر ومشيئة الله ، قال الشنقيطي (ومرادهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراك، ولم يمنعهم منه أن ذلك دليل على رضاه بشركهم، ولذلك كذبهم هنا)[2]، قال ابن الجزي (**وتلك نزغة جبرية ، ولا حجة لهم في ذلك**)[3] .

وقد يتمسك البعض بأن القدر قد سبق العمل ليترك العمل ، ويجاب على ذلك بأن حرية الاختيار ثابتة بقوله تعالى ، قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس 10) ، فإذا ثبت أن الإنسان مختار ، لزم من ذلك أن يحاسب على ما يعمل .

قال ابن تيمية (وَهُوَ يُعَاقِبُ الْخَلْقَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ الشَّرْعِيَّةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِرَادَتُهُ الْقَدَرِيَّةُ، فَإِنَّ **الْقَدَرَ كَمَا جَرَى بِالْمَعْصِيَةِ جَرَى أَيْضًا بِعِقَابِهَا**، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ يُقَدِّرُ عَلَى الْعَبْدِ أَمْرَاضًا تُعْقِبُهُ آلَامًا فَالْمَرَضُ بِقَدَرِهِ وَالْأَلَمُ بِقَدَرِهِ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: قَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِرَادَةُ بِالذَّنْبِ فَلَا أُعَاقَبُ، كَانَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الْمَرِيضِ: قَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِرَادَةُ بِالْمَرَضِ فَلَا أَتَأَلَّمُ، أَوْ قَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِرَادَةُ بِأَكْلِ الْخَارِّ فَلَا يُحَمُّ مِزَاجِي، أَوْ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِالضَّرْبِ فَلَا يَتَأَلَّمُ الْمَضْرُوبُ، وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ جَهْلٌ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، بَلْ اعْتِلَالُهُ **بِالْقَدَرِ ذَنْبٌ ثَانٍ** يُعَاقَبُ عَلَيْهِ أَيْضًا، وَإِنَّمَا **اعْتَلَّ بِالْقَدَرِ إبْلِيسُ** حَيْثُ قَالَ: (بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) وَأَمَّا آدَمَ فَقَالَ: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ) فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ سَعَادَتَهُ أَلْهَمَهُ أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ آدَمَ، أَوْ نَحْوُهُ، وَمَنْ أَرَادَ شَقَاوَتَهُ اعْتَلَّ بِعِلَّةِ إبْلِيسَ، أَوْ نَحْوِهَا، فَيَكُونُ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنْ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ)[4].

وإنما أرادوا بهذا الزعم إبطال التكليف ، لأنهم لما قالوا (الكُلُّ بمشِيئَة اللَّه وتقديره) قال الشوكاني قالوا (كلمة حق يريدون بها باطلا)[5] ، ذلك أنهم انتهوا منها إلى أن « إن التَّكْلِيف عَبَثاً ، وينبني على ذلك أن دَعْوى الأَنْبِيَاء باطِلة ، ونُبُوّتُهم ورسالَتُهم باطلة ، ثم إن – تبارك وتعالى – بيَّن أن التَّمَسُّك بهذا الطّرِيق في إبْطَال النُّبُوة باطِلٌ)[6].

قال ابن تيمية (لَوْ كَانَ " الْقَدَرُ " حُجَّةً لِأَحَدِ لَمْ يُعَذِّبْ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ وَقَوْمَ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ وَلَا يَحْتَجُّ أَحَدٌ بِالْقَدَرِ إلَّا إذَا كَانَ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)[7].

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 477
[2]) الشنقيطي : أضواء البيان ج1ص 544
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 478
4) الفتاوى الكبرى ج4 ص 197
[5]) فتح القدير للشوكاني ج6 ص 298
6) أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني : اللباب في علوم الكتاب ج7 ص 223
[7]) مجموع الفتاوى ج11 ص 257

قال ابن عاشور (يحسبون أن تمكنهم من وضع قواعد الشرك ومن التحريم والتحليل ما هو إلا بأن خلق الله فيهم التمكن من ذلك ، **فيحسبون أنه حين لم يمسك عنان أفعالهم كان قد رضي بما فعلوه**، وأنه لو كان لا يرضى به لما عجز عن سلب تمكنهم، يحسبون أن الله يهمه سوء تصرفهم فيما فطرهم عليه، **ولو كان كما يتوهمون لكان الباطل والحق شيئا واحدا**، وهذا ما لا يفهمه عقل حصيف)[1]

وأجاب ابن عاشور فقال (فهذا من المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع)[2] ، أي أن الله لم يرد أن يشركوا شرعا ، ولكن شركهم به **وافق إرادته الكونية** ، وقدره وتقديره ، والعلم لا تأثير له في إرادتهم ومشيئتهم

قال الواحدي وقالوا : (إن الله رضي منا ما نحن عليه وأراده منا ، وأمرنا به ، ولو لم يرضه لحال بيننا وبينه)، (ولا حجة لهم في هذا؛ لأنهم تركوا أمر الله وتعلقوا بمشيئته ، **وأمر الله بمعزل عن إرادته؛ لأنه مريد لجميع الكائنات ، غير آمر بجميع ما يريد** ، فعلى العبد أن يحفظ الأمر ويتبعه ، وليس له أن يتعلق بالمشيئة بعد ورود الأمر)[3]

فقوله (**وأمر الله بمعزل عن إرادته**) (تعني أن الله سبحانه وتعالى قد **يأمر** العباد بأمر ما (لحكمة تشريعية، واختباراً لطاعتهم)، ولكن هذا الأمر ليس تلازماً حتمياً بأن الله قد **أراد** كونياً وقَدرياً وقوعه من كل فرد. فلو كانت الإرادة ملازمة للأمر دائماً، لآمن كل البشر لأن الله أمرهم بالإيمان)

وقوله (**مريد لجميع الكائنات**) **يعني** كل ما يقع في هذا العالم من حركة وقبض وبسط، إيمان وكفر، صحة ومرض، هو تحت إرادة الله وخلقه وتقديره، ولا يخرج شيء عن سلطانه

وقوله (**غير آمر بجميع ما يريد**) يعني أن الله أراد كَوْنًا وتقديرًا أن تقع المعصية والكفر من الإنسان (لأن الله أعطى الإنسان حرية الاختيار)، لكنه **لم يأمر بها ولم يرضَها دينًا**.

يعني أن الله يأمر فقط بما يحبه (كالإيمان)، وينهى عما يكرهه (كالكفر والظلم)، حتى وإن وقع الكفر بتقديره ومشيئته

قال الشعراوي (لو شاء سبحانه أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختيارا ، **وفي إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية** ،بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعي)[4]، قال تعالى (فمن شآء فليؤمن ومن شآء فليكفر...) [الكهف : 29] ،بذلك يكون الله تعالى قد أطلق للعبد مشيئته في الاختيار بين الإيمان والكفر،ولا جبر.

قوله (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا) (148) أي كذبوا بالقدر ، فحالهم أشبه بحال الذين من قبلهم في التكذيب بالقدر ، قال الزمخشري (فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله ، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره)[5].

---

[1]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج7ص 109
[2]) التحرير والتنوير ج6 ص 80
[3]) الوجيز للواحديج1 ص 210
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2767
[5]) الكشاف ج2 ص 187

قوله (..حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا) (148) قال ابن عاشور (غاية للتكذيب مقصود منها دوامهم عليه إلى آخر أوقات وجودهم، فلما ذاقوا بأس الله هلكوا واضمحلوا)[1]

قوله (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) (148) حاجهم الله في قولهم ذاك ، فبعد أن كذبهم أبان أن الإشكالية التي لديهم تكمن في **منهجية التفكير** ، وذلك أنهم لا يتثبتون مما يقولون ، ولا يتحققون مما يزعمون ، وإنما **يتبعون الظن** ويتخرصون ، وأمور العقيدة لا ينبغي فيها إلا الصدق واليقين

قال صاحب الظلال (إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات . . وهذا ما يملكون أن يعلموه علما مستيقنا . . فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه؟ وإذا لم يعلموه يقينا فكيف يحيلون عليه : إن لله أوامر ونواهي معلومة علما قطعيا ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه؟ هذا هو فصل القول في هذه القضية . . **إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه** . وإنما **كلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ، ليكيفوا أنفسهم على حسبها**)[2].

قوله (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (149) أي لا حجة لأحد على الله ، بل الحجة البالغة لله ، فالله سبحانه يجيب تفصيلا على الشبهة المتقدم ذكرها ، بأنه سبحانه –حقا – **لم يرد هدايتهم دون أن يختاروا هم الهداية ابتداءً** ، فإرادته سبحانه الكونية اقتضت أن يقع من عباده الذنب ، ولم يعاجلهم بالعقوبة بل ترك لهم وقتا لأن يتوبوا، فمن تاب غفر له ، قال رسول (**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ**)[3]، قال المناوي (لم يرد به قلة الاحتفال بمواقعة الذنوب بل أنه كما أحب أن يحسن الى المحسن أحب التجاوز عن المسئ)[4]، (فمراده لم يكن ليجعل العباد كالملائكة منزهين عن الذنوب بل خلق فيهم من يميل بطبعه إلى الهوى ثم كلفه توقيه وعرفه التوبة بعد الابتلاء فإن وفى فأجره على الله ، وإن أخطأ فالتوبة بين يديه فأراد المصطفى ﷺ أنكم لو تكونون مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة لجاء الله بقوم يتأتى منهم الذنوب ، فيتجلى عليهم بتلك الصفات على مقتضى الحكمة فإن الغفار يستدعي مغفورا والسر في هذا إظهار صفة الكرم والحلم والغفران)[5].

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 111

[2]) في ظلال القرآن ج3 ص 167
وقال (إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها ، وأسلوب التعبير عنها كذلك . الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعمل . والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن . والحقيقة التي وراء هذا المدى ، لا بد أن تتناول بمنهج آخر . . هو كما قلنا من قبل : منهج التذوق الفعلي لهذه الحقيقة في مجالها الفعلي . ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التي عولجت بها في كل ما جرى حولها من الجدل قديما وحديثا ، وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعا عمليا؛ تحدده أوامر ونواه واضحة . فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة ، يرتادها العقل بغير دليل ، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود).

[3]) رواه مسلم ج13 ص 299 رقم 4934

[4]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 611

[5]) المناوي : فيض القدير ج5 ص 436

قال ابن تيمية (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ حِينَ **أَرْسَلَ الرُّسُلَ** إلَيْهِمْ فَدَعَوْهُمْ إلَى تَوْحِيدِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَمَعَ هَذَا فَلَوْ شَاءَ هَدَى الْخَلْقَ أَجْمَعِينَ إلَى مُتَابَعَةِ شَرِيعَتِهِ، لَكِنَّهُ **يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَيَهْدِيهِ فَضْلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا**، وَيَخْرِمُ مَنْ يَشَاءُ ؛ لِأَنَّ الْمُتَفَضِّلَ لَهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ وَلَهُ أَنْ لَا يَتَفَضَّلَ، **فَتَرْكُ تَفَضُّلِهِ عَلَى، مَنْ حَرَمَهُ عَدْلٌ مِنْهُ وَقِسْطٌ**، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ)[1].

أما ما ورد عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ قَالَ قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ أَرَأَيْتَ **مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ** وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟

فَقُلْتُ بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ

قَالَ فَقَالَ أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا ؟

قَالَ فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْتُ **كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ** وَمِلْكُ يَدِهِ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ

فَقَالَ لِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟

فَقَالَ (لَا بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)**[2]فالمعنى أن الله تعالى ترك للنفس حرية الاختيار بين داعي الفجور وداعي التقوى ، ولم يخرج اختياره عما قدره الله له ، وتلك هي القدرة والمشيئة المطلقة لله تعالى

وما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ **بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ** ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ **بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ** ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) [3]

ويجاب بأن الحديث تضمن في رواية أخرى بإضافة **(فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ)** ما يعني أن الخاتمة تكشف عن إخلاصه في العمل أو أنه عمل ذلك من باب الرياء والسمعة ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) [4].

أما ما روي عَنْ عَلِيٍّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ **عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ **فَلِمَ نَعْمَلُ أَفَلَا نَتَّكِلُ** ؟ قَالَ "لَا" **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى إِلَى قَوْلِهِ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)[5]، ففيه دليل على أن **العمل يوافق قدر الله الكوني ، ولا عذر لأحد في الاتكال على ذلك دون عمل** .

---

1) الفتاوى الكبرى ج4 ص 197
2) رواه مسلم ج13 ص 109 رقم 4790
3) رواه مسلم ج13 ص 110 رقم 4791
4) رواه مسلم ج13 ص 111رقم 4792
5) رواه مسلم ج13 ص 106 رقم 4787

وفي رواية قَالَ رسول الله ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا **وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ** وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ فَقَالَ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ **فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ** وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ **فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ** فَقَالَ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ (**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)**[1] .

قال ابن البطال (**أخبر ﷺ أنه ميسر لأعمالها ومختار لا مجبر**)[2]، و(فيه دليل على **إبطال قول أهل الجبر** ؛ لأن التيسير غير الجبر ، واليسرى العمل بالطاعة ، والعسرى العمل بالمعصية) [3]

قال الطبري (في حديث عليّ أن الله **لم يزل عالمًا بمن يطيعه فيدخله الجنة ، وبمن يعصيه فيدخله النار** ، ولم يكن استحقاق من يستحق الجنة منهم بعلمه السابق فيهم ، ولا استحقاقه النار لعلمه السابق فيهم ، ولا اضطر أحدًا منهم علمه السابق إلى طاعة أو معصية ، **ولكنه تعالى نفذ علمه فيهم قبل أن يخلقهم** ، وما هم عاملون وإلى ما هم صائرون ، إذ كان لا تخفى عليه خافية قبل أن يخلقهم ، ولا بعد ما خلقهم ، ولذلك وصف أهل الجنة)[4].

قوله (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (150) حضهم على أن يكشفوا عن أدلتهم في تحريم ما أحله الله ، فإن عجزوا فليكشفوا من مصدر ظنهم ، ليروا بأنفسهم أنه **لا شهيد يشهد لهم إلا من كان على شاكلتهم في الظن** ، قال ابن عاشور في الاية (انتقال من **طريقة الجدل** والمناظرة في إبطال زعمهم، **إلى إبطاله بطريقة التبيين**)[5]، قال طنطاوي (والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم الحجة ، **وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين**) [6].

وقوله (..فَإِنْ شَهِدُوا..) (150) وهذا الفرض مستبعد ، ولكنه إذا حصل جدلا أي :(فإن أحضروا لك شهداء يشهدون أن الله حرم هذا الذي زعموه ، فكذِّبهم واعلم بأنهم شهود زور) [7]، فذلك دليل على منتهى الشقاق والمخاصمة بغير حق ، أن اصطنعوا أدلة مزيفة نصرة لمذاهبهم الباطلة ، بما يتعذر معه الاستمرار في مجادلتهم ومناظرتهم .

فالآية تشير **إلى أدلة الباطل دائما حاضرة رغم أنها فاسدة** ، فلا يستعصي عليهم أن يزيفوا الأدلة ،ويأتوا بشهود زور ، ويقدمون الرشى ليزيفوا الأدلة ، فهذه صناعتهم ، وهذا هو عملهم المعتاد ، يحاولون أن يزيفوا التاريخ ، ومعالم الحضارات ، يحاولون أن يطمسوا كتاب الله وحكم الله ، ويحرفوا الكلم عن موضعه.

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 105 رقم 4786
[2]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج10 ص 300
[3]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج10 ص 303
[4]) شرح صحيح البخاري لابن البطال ج10 ص 303
[5]) التحرير والتنوير ج7 ص 114
[6]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1562
[7]) التحرير والتنوير ج7 ص 115

قوله (..فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ..) (150) أي فلا تجاريهم في المناظرة وتدعوهم إلى الإتيان بالشهداء على افتراءاتهم تلك ، أي لا تستمر في مجادلتهم بهذه الطريقة ، ذلك أنهم سوف يغرقونك بالشهود الزور الكثر لديهم ، فإن أتوك بهم لتسمع شهادتهم ، فلا تسمعها حتى لا يدل موقفك على قبولك سماع الشهادة من أهل الفسق والفجور ، بل شهادتهم غير مقبولة [1] .

قال أبو السعود (**فإن تسليمَه موافقةٌ** لهم في الشهادة الباطلة)[2]، فالنهي تضمن وجوب تكذيبهم لا السكوت عن ذلك ، **فمجرد السكوت في هذا الموقف قرينة على الموافقة** ، ويعني مجاراتهم في الشهادة ، قال ابن عاشور في النهي (كناية عن تكذيبهم لأن الذي يصدق أحدا يوافقه في قوله ، **فاستعمل النهي عن موافقتهم في لازمه ، وهو التكذيب**) [3]

فالواجب عدم سماعها أصلا لأن سماعها يقتضي السكوت بعد سماعها لتقييم الشهادة ، وقد حمل بعض المفسرين السكوت بعد سماع الشهادة على معنى التسليم بها ، قال الزمخشري (يعني فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم : لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم) [4].

فلا تغتر بأدلتهم وأنت تعلم فسقهم وعدم عدالتهم ، ولا بد وأن تعلم أنهم سوف يفعلون ذلك في كل زمان ، فلا تقف إزاء هذه الأدلة المزيفة موقف المحايد ، واعلم أن الحق لجلج ، يعني واضح وظاهر للعيان مثل أشعة الشمس لا يحتاج لإثبات لوضوحه ، وأن الباطل لجلج (يعني مضطرب ولا يستقر ، فلا يصيب صاحبه منه مخرجا) [5]، وهو مأخوذ من التلعثم وعدم وضوح الكلام ، مثل الغيوم التي تنقشع ولا تستمر.

والعلة الشرعية في إبطال شهادتهم –مسبقا – أن القاعدة المعروفة في أصول الفقه الإسلامي أن **الأصل في الأشياء الإباحة** ، ولا تحريم إلا بدليل ، وهؤلاء القوم زعموا أنهم أتوا بمن يشهد لهم كدليل إثبات على أن الله حرم هذا ، وهؤلاء الشهود هم شهود زور ، فاقتضت السياسة الشرعية تجاهلهم وعدم الاستمرار في مجادلتهم ، أي لا تجاريهم في الإثبات بأن تأتهم بدليل على حله وأنه لم يحرمه ، لأنك بذلك تحتاج لأن تأتي بدليل على "واقعة سلبية" أي أن الله لم يحرم هذا ، وهؤلاء أدلتهم مهترئة ، ورغم ذلك هي أدلة ثبوت ، ونفي الوقائع السلبية متعذر كثيرا ، ولذلك عفاه الله عن أن يستمر في مجادلتهم متى استشهدوا بشهود زور على ذلك ، فالمقصد –إذن– ليس مناظرتهم بالإتيان بالحجة والدليل بقدر **إثبات عنادهم في الباطل حتى أتوا بشهود الزور** ليشهدوا لهم ، فكأن مقصود الخطاب –ابتداء– إثبات زيفهم وسوء نيتهم في معرفة الحق ، وتماديهم في الباطل حتى اصطنعوا أدلة مزيفة ، فإذا استبان لك ذلك بما فعلوه من شهادة الزور وجب عندئذ الإعراض عنهم

---

1) فلم يسلم الإنجيل المحرف من اختراع أدلة على معصية الأنبياء ، نذكر منها عدة أمثلة كما يلي
أولا : .افترائهم على نوح عليه السلام بأنه شرب الخمر وسكر وتعرى
سفر التكوين (9: 20-21) :«وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحاً وَغَرَسَ كَرْماً. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ.«
ثانيا : افترائهم على لوط عليه السلام بأنه شرب الخمر ووقع في الخطيئة الزنا مع ابنتاه
سفر التكوين (19: 32-35) :«هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْراً وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ... فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْراً فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِقِيَامِهَا وَلاَ بِسُقُوهَا.«
ثالثا : افترائهم على داود عليه السلام بأنه زنا وقتل
سفر صموئيل الثاني (11: 4) :«فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ فَاضْطَجَعَ مَعَهَا.« تعد قصة الملك والنبيّ داود مع "بثشبع" امرأة "أوريا الحثي" من أشهر القصص التي يُفصل فيها الكتاب المقدس وقوعه في المعصية، حيث زنى بها ثم تآمر لقتل زوجها في الحرب:
سفر صموئيل الثاني (12: 9) :(على لسان النبي ناثان موبخاً داود): «لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِتِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً.«

2) تفسير أبي السعود ج2 ص 446
3) التحرير والتنوير ج7 ص 115
4) الكشاف ج2 ص 188
5) الميداني : أبو الفضل : مجمع الأمثال ج1 ص 207

، فليس بعد الحق إلا لاضلال ، وهؤلاء استبان عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق حتى وصلوا إلى مرحلة تزييف الأدلة ، فعلام الاستمرار في مجادلتهم ومناظرتهم وهم على هذا الحال من النكران .

قوله (..وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (150) ذلك أن استمرار السجال بلا طائل استنزاف للجهد الدعوي ، يقول تعالى (**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (البقرة 120) ، فأهواء المكذبين أن ينشغل بهم وبمناظرتهم عن استكمال البلاغ للناس كافة ، فنبيه الله لذلك بذلك النهي .

قال سيد قطب (الذين يزاولون هذه التشريعات هم الذين يتبعون أهواءهم ، وهم الذين كذبوا بآيات الله ، وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فلو أنهم صدقوا بآيات الله وآمنوا بالآخرة واتبعوا هدى الله ما شرعوا لأنفسهم وللناس من دون الله . وما حرموا وحللوا بغير إذن من الله)[1] .

قوله (..وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (150) أي : (يجعلون لَهُ أنداداً يسوُّونهم به ، تعالَى اللَّه عن قولهم)[2] ، فمن أقبح وأشنع ما يتمناه أصحاب الأهواء **أن يعدلوا أنفسهم بربهم** ، يظنون أنهم قادرون بأن يصدروا أوامر وتشريعات تحظر هذا وتحرم هذا دون مستند من الشرع ، **ويضفون عليها شيء من القداسة والسمو حتى يحترمها الأفراد** ، فهم باتخاذهم مهنة التشريع في أمور نزل بها وحي من الله —بل وتخالف مقاصد الشرع– يعدلون أنفسهم بربهم ، وهو ذات التعبير الذي جاء في أول آية في السورة وصفا للذين كفروا.

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 153
[2]) تفسير الثعالبي ج2 ص 10

المطلب السابع

إرشاد الناس للصراط المستقيم الذي به تستبين مقاصد الإسلام الكبرى المعروفة في كل ملة

قال تعالى (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(153)

في ذات السياق الذي تضمن الحديث عن شبهة تحريم ما أحله الله ، والتشريع الوضعي الذي يعدل التشريع الإلهي بغير حق انتقلت الآيات إلى إجمال المحرمات عموما ، مبينة علة التحريم ، فشملت أوامر عشرة ، قال الشعراوي (هذه الأوامر متفق عليها في جميع الرسالات وفي جميع الأديان ، ويسمونها : «**الوصايا العشر**») [1] لقوله تعالى (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) [2]، أي أنها مرعية في كل ملة ، فعن عبد الله قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة أمره فليقرأ "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم.." الآيات الثلاث)[3] ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : **إن في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب** ثم قرأ (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) الآية [4]، قال ابن عاشور (**المحكم مالا تختلف فيه الشرائع** كتوحيد الله تعالى ، وتحريم الفواحش ، وذلك ما تضمنته الآيات الثلاث من أواخر سورة الأنعام)[5] .

قوله (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..) (151) قال الشعراوي (لفظ « تعال » –هنا – يأخذ بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فأنت **تقبل على أوامر الله لتعلوا وترتفع** عن حضيض تشريع البشرية)[6].

فتلك الوصايا العشر هي **المرعية في كل ملة** ، وبالعمل بها لا يصير أهل القرى في غفلة ، بل يأمنون من أن تنزل بهم المهلكة ، قال طنطاوي (والمتأمل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة فى توحيد الله – تعالى – وبنت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالأبناء ، وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض ، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التى هى منبع كل خير وسبيل كل فلاح)[7]، قال الشعراوي (ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، وهي جامعة لكل شيء)[8] ، وهي كما يلي : –

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2774
[2]) تيسير التفسير للقطان ج2 ص 23
[3]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج6 ص 207 رقم 7918
[4]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 347 رقم 3238 وقال صحيح الإسناد ، وصححه الذهبي في التلخيص
[5]) التحرير والتنوير ج3 ص 16
[6]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2771
[7]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 1572
[8]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2781

الوصية الأولى : عدم الشرك بالله

قوله (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا..) تضمن النهي عن الشرك أمرا جازما **بتوحيد العبادة لله** ، وإخلاص التوجه إليه ، ويقتضي **تجريد التوكل والاستعانة والاستعاذة** له سبحانه، دون التفات القلب إلى الأسباب أو الركون إليها أو الاعتماد عليها ؛ ركوناً يمحو الخوف من المخلوقين ، وبذلك يخلص الدين كله لله: خوفاً ورجاءً، وتوكلاً وإنابة، وتنقطع حبال الآمال عما سواه.

يقول سبحانه (يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) (النساء 48) ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ أيُّ الذنبِ أعظمُ عند اللهِ؟ قال(**أنْ تجعلَ للهِ نِدًّا وهو خلَقَكَ**)[1].

و عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رِدفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ فقال لي» :**يا معاذُ، أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟** «قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال» :**فإنَّ حقَّ اللهِ على العبادِ أن يعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئاً، وحقَّ العبادِ على اللهِ أن لا يُعذِّبَ من لا يُشرِكُ به شيئاً**) [2].

الوصية الثانية : الاحسان للوالدين

قوله (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) تضمن الأمر بالإحسان إليهما عدم الإساءة لهما بأي نوع من أنواع الإساءة المعنوية أو المادية ، والأمر بالرفق بهما ، والتذلل لهما ، كما في قوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا **فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا** وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (الإسراء 24)

وأداء هذا الواجب فيه دلالة على شكر الله تعالى لقوله تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ** إِلَيَّ الْمَصِيرُ)(لقمان14) ، وقوله ﷺ (**مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ**)[3] ، فأولى الناس بالشكر الوالدين ، ومن ليس فيه خير لوالديه ليس فيه خير لأحد من الناس ، ومن كان مقصرا معهما كان مع غيرهما أشد تقصيرا ، ومن أحسن إليهما فإنه يرجى منه الإحسان للآخرين ، قال

الوصية الثالثة : النهي عن قتل الاولاد

[1]) رواه البخاري ومسلم
[2]) رواه البخاري ومسلم
[3])) رواه الترمذي ج 7 ص 211 رقم 1878وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج4 ص 455

قوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) تضمن النهي القيام على نفقتهم ورزقهم ورعايتهم ، قال رسول الله ﷺ (**كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول**)[1] ، يضيعهم بالقتل أو يضيعهم بالإهمال في النفقة أو يضيعهم بالإهمال في التربية والرعاية أو يضيعهم بالشح والبخل العاطفي كما قال النبي ﷺ للأعرابي الذي تعجب من تقبيل النبي ﷺ للحسن والحسين ، فسأل متعجبا أتقبلون صبيانكم ؟ فوالله ما نقبلهم[2]وفي رواية (تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ **نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**)[3].

فتلك هي أول أمانة يسأل عنها العبد يوم القيامة ،وهي أمانة الولد ، لاسيما البنات (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (التكوير9) ، فقد انتشر في الجاهلية وأد البنات مخافة العار وعموما الأولاد مخافة الفقر ، قال تعالى (**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ** نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (الإسراء 31) ، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ** وَمَنَعَ وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ)[4] .

وتخصيص النهي عن القتل بالأولاد وإن كان النهي عن قتل النفس بوجه عام يغني ، إشارة إلى مدى بساطة هذه الجريمة عند من قست قلوبهم فلم يفرقوا بين قتل أولادهم أو قتل الناس عموما ، وإشارة من جهة أخرى إلى أن الأمر شاع بمكان حتى أضحى سهلا علي المجرم في الجاهلية أن يقتل أولاده دون أن يلتفت إليه أحد أو يطالب القود القصاص أو الفدية ، بخلاف ما لو اعتدى على غيره ، فإن أهل القتيل يطالبون بالدم انتقاما منه .

ومن جهة أخرى فإن القتل الأبناء له صور أخرى مستترة ، حيث يأمن الجاني من العقاب ، من ذلك إجهاض الجنين دون أن يتمكن أحد باتهامها تعمد ذلك ،كما قد يكون القتل بالإهمال ، وهو الأكثر شيوعا ، فثمة أفعال سلبية قد تؤدي إلى ذات النتيجة الاجرامية ، ومن أمثلة الجريمة السلبية التي تؤدي إلى القتل كما هو معروف في الفقه الجنائي القتل عن طريق الامتناع ، مثل امتناع الأم عن ارضاع الصغير حتى يموت ، أو امتناع الأب الانفاق على الصغار حتى الموت ، ففي هذين المثالين نجد أنه قد يتعذر إثبات الجريمة ، لاسيما وأن الطفل أو الرضيع لا يستطيع الشكوى ...، فمن يستطيع أن يثبت إهمال الأم في هذه الحالة ، وكذلك لو أهمل الأب في الانفاق على أبنائه حتى الموت جوعا .

قوله (..نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) قاطع الدلالة على أن سبب الفاقة ليس كثرة الولد ، فكل ولد يولد ومعه رزقه ، بل الحاصل هو العكس ، فقد ضمن الله رزق العباد برزق ضعفائهم ، فقال ﷺ (ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ)[5].

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 545 رقم 8526 وصححه على شرط الشيخين ، وقال الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 48 رقم 98
[3]) رواه البخاري ج18 ص 404 رقم 5539
[4]) رواه البخاري ج8 ص 251 رقم 2231
[5]) رواه أبو داود ج7 ص 162 رقم 2227

الوصية الرابعة : النهي الفواحش الظاهرة والباطنة

قوله (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) فعن ابن عباس (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه في العلانية ، فحرَّم الله الزنا في السر والعلانية)[1]، قال الرازي (وأجمعوا على أن الفاحشة ههنا "الزنا" ، وإنما أطلق على الزنا اسم الفاحشة لزيادتها في القبح على كثير من القبائح)[2] .

قال ابن عطية: قال بعض الناس الفاحشة متى وردت في القرآن معرفة فهي "الزنى" يريد أو ما يشبهه كما في قوله: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) [الأعراف:80] (ومتى وردت منكرة فهي المعاصي)[3] ، ولذلك قيل النظرة بريد الزنا ، وقيل (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس)[4]

وإذ تضمن النهي عن الاقتراب من الفواحش الحذر من أسباب المعاصي سواء أكانت صغائر أم كبائر ، فكل صغيرة قد تؤدي إلى كبيرة ، فالاقتراب من الصغائر وسيلة للوقوع في الكبائر

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

قال رسول الله ﷺ (**وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ** أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)[5]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ (**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**)[6] .

والتشريعات الوضعية تجرم الزنا إذا وقع في مكان عام بما يخدش الحياء ، ولا تجرمه إذا كان في مكان مغلق لا يطلع عليهما أحد ، بينما **الإسلام يجرم الزنا كفعل مجرد** بصرف النظر **عن مدى علاقة هذه الجريمة بخدش الحياء العام في** المجتمع من عدمه ، لأن الإسلام ينظر إلى الزنا علي أنه معول لهدم للأسرة التي هي اللبنة الأولى في المجتمع ، ومتى انهارت الأسرة تفكك المجتمع وفقدوحدته وبناءه القوى , ويصبح المجتمع مكون من أفراد لا نسب بينهم ولا علاقة قربى تربطهم ، فيفقد أهم مقوماته النفسية وهو الدفئ الأسري ، فإذا كان حال المجتمع لا يسر من التفكك ، فإن الجيوش التي جندها أبناء هذا المجتمع لن يكون حالها بأفضل منه ، ذلك أنه متى فقد الناس الشعور بالإنتماء للأسرة فإنهم كذلك يفقدون الشعور بالانتماء للمجتمع ثم الدولة والأمة بأسرها .

---

[1]) الدر المنثور ج4 ص 160
[2]) تفسير الرازي ج5 ص 102
[3]) التحرير والتنوير ج28 رقم 269
[4]) ابن القيم : الجواب الكافي ج1 ص 106 ، ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج15 ص 393
[5]) رواه البخاري ج4 ص 159 رقم 986
[6]) رواه البخاري ج14 ص 171 رقم 4268

الوصية الخامسة : النهي عن قتل النفس

قوله (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) فقد تضمن النهي عن القتل عموما النهي كذلك عن كل فعل إيجابي من شأنه التعدي على الآخرين بالإيذاء ، فالذي يسعى لإيذاء الناس ابتداءً يكون القتل أخر جرائمه ، قَالَ رسول الله ﷺ **(مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ** وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ)[1]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ)[2]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ فَقِيلَ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ قَالَ الْهَرْجُ الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ)[3]

وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)[4].

والاستثناء من (النفس التي حرم الله) الوارد بالآية في قوله (إِلَّا بِالْحَقِّ) يقصد به القصاص في القتلى وكذلك إقامة الحدود على مستحقي القتل حدا كالحرابة أو زنى المحصن وكذلك جهاد الصادين عن سبيل الله .

قوله (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (151) قال الشعراوي (نجد في هذه الوصايا خمسا منها قال فيها : "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" ، وأربعاً قال فيها "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" ، والعاشرة يقول "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ")، ذلك أن الأشياء الخمسة الأولى كانت موجودة في بيئة نزول القرآن ، حيث كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، فأوضح لهم أن النهي عنها ينزجر به من كان يعقل : فقال (لعلكم تَعَقَّلُوها) [5].

الوصية السادسة : النهي عن مال اليتيم

قوله (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) وهذه الصفة من مكارم الأخلاق عند العرب ، وكانوا يقومون بحفظ مال اليتيم من باب المروءة ، وتعزى هذه الوصية من الله لكي تستمر أخلاق الناس على ما سلف من خير ، ولكي ينتبهوا من المنافقين الذين تسول لهم أنفسهم العدوان على مال الضعفاء ، لأن اليتيم ضعيف ولا يستطيع أن يحافظ على ماله بنفسه ، والتغول على ماله أمر يسير ، فوصى الله أولياء اليتيم بأن يحسنوا في ماله ، فإن لم يكن بمقدارهم استثماره لتنميته والإنفاق عليه بالرشد دون إسراف ، تسقط ولايتهم عنه وتعطى لمن يقدر على الإحسان له ، والغاية في حفظ مال

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 42 رقم 4741
[2]) رواه مسلم ج13 ص 43 رقم 4742
[3]) رواه مسلم ج14 ص 115 رقم 5178
[4]) رواه البخاري ج1 ص 54 رقم 30
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2781 مع بعض التصرف

اليتيم حتى يبلغ الأشد أي حتى يقدر على إدارة ماله برشد وحكمة ، فعندئذ ترد إليه أمانته ، وتفصيل ذلك مذكور في سورة النساء .

أما من يتحايل علي ماله ليأكل منه لنفسه بغير حق فقد ظلم ، قال تعالى (إِنَّ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**) (النساء 10) .

كما يدخل في مقتضيات هذا النهي التوصية بحفظ جميع الأمانات عموما ، لاسيما وإن كانت هذه الأمانة تخص الضعفاء كاليتامى والنساء ، ولا رقيب عليهم غير الله ، قال رسول الله ﷺ (**كَافِلُ الْيَتِيمِ** لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ **أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ** وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى)[1] .

الوصية السابعة : الوفاء في الكيل والميزان

قوله (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ، الغاية من الأمر أن ينضبط الميزان التجاري ، ويسود العدل في الأسواق ، ويسلم المتعاملون من الغش التجاري والخداع والغبن ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَفْتَرِقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا **مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**)[2] ، وعن ابن عباس رضي الله عنه (**ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عليهم الرزق**)[3]

أما الاستثناء من التكليف الوارد في الآية في قوله (إِلَّا وُسْعَهَا) يرفع الإثم عما هو معفو عنه مما لا يمكن الاحتراز منه ، فقد يتفاوت الكيل أو الوزن شيئا غير ملحوظ بغير قصد لا يمكن جبره إلا بزيادة مفرطة ، فيعفى عنه لأن المشقة تجلب التيسير ، مثال ذلك تصفية اللحم من الدهون ... ودرجة نقاوة الزيت ... وتصفية العسل من الشمع ...الخ .

الوصية الثامنة : العدل في القول والشهادة

قوله (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) ، وذلك يتضمن الصدق في القول بإطلاق ، وعدم جواز كتمان الشهادة ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء 135) ، وقال تعالى (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (البقرة 283) .

---

[1]) رواه مسلم ج14 ص 247 رقم 5296
2) رواه النسائي ج13 ص 473 رقم 4381 وصححه الالباني صحيح وضعيف سنن النسائي ج10 ص 29 رقم 4457
[3]) رواه مالك ج3 ص 313 رقم 861 ، مشكاة المصابيح ج3 ص 165

الوصية التاسعة : الوفاء بعهد الله

قوله (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) إضافة العهد إلى الله للتشديد على وجوب الوفاء به ، وفي ذلك ضمان لأن يسلم المتعاملون مع المسلمين من أي غدر أو إيذاء معنوي أو مادي ، قال تعالى (**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**)(المائدة 8) ، قال رسول الله ﷺ (**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ** وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)[1]، قال العلماء (لأنه أصبح في الأحكام الذاتية والمالية كحكم المسلم؛ لأن ولي أمر المسلمين أعطاه أماناً، وعاهده على الأمن والحفظ، فأصبح في ذمة ولي أمر المسلمين، فمن اعتدى على معاهد يكون قد خفر ذمة ولي أمر المسلمين)[2] ، ومن لم يوف بذلك فقد خان وغدر ، وليس ذلك من الإسلام.

قَالَ النَّبِيَّ ﷺ (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)[3].

قال رسول الله ﷺ (**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**)[4]، ولذلك قال تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (58) أي يعلمهم أنه يريد أن يغزوهم وأن الصلح قد ارتفع فيكون الفريقان في علم ذلك سواء [5]، قال ابن حجر (أي اكشف لهم الأمر في نقض ما بينك وبينهم)[6]

قوله (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) قال الشعراوي (هذه « الأربع » ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها ، ففي التي كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء في الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد قال "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" أي إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على الاسلام) [7] ، ولذلك قال النبي ﷺ (خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)[8].

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ)[9]

الوصية العاشرة : (الاستقامة على صراط الأنبياء اتباعا لا ابتداعا)

---

1) رواه البخاري ج10 ص 423 رقم 2930
2) عطية محمد سالم ج22 ص 227
3) رواه البخاري ج1 ص 59 رقم 33
4) رواه أبو داود ج9 ص 414 رقم 3067
5) عون المعبود ج7 ص 313
6) فتح الباريج1ص 192
7) تفسير الشعراوي ج1 ص 2782 وقال الألباني حسن صحيح : السلسلة الصحيحة ج1 ص 783 رقم 423
8) رواه البخاري ج11 ص 164 رقم 3123
9) رواه البخاري ج5 ص 262 رقم 2346

قوله (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) فالمقصد التزام الشرع وعدم الحيد عما شرعه الله تعالى ، فعن سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيَّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ هَذَا)[1]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [2]

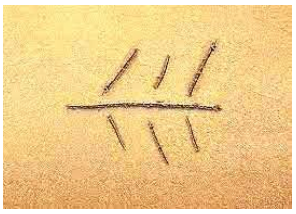

وعن رسول الله ﷺ قال : (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ، ولا تتفرجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والصراط الإسلام ، والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم)[3] .

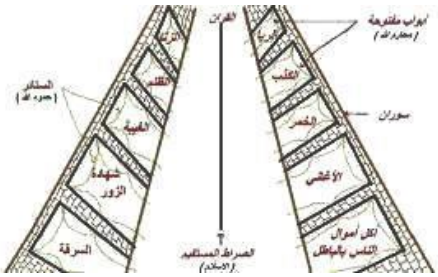

(ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)

قوله (ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[الأنعام : 153] ذكر هنا التقوى لأنها وصية جامعة ، قال الشعراوي (لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابًا وسلبًا ، نهيًا وأمراً) [4] .

---

[1]) رواه ابن ماجة ج11 ص 468 رقم 3962 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 358 رقم 3208
[2]) رواه ابن ماجة ج1 ص 13 رقم 11 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 7 رقم 11
3) رواه أحمد في مسنده ج4 ص 182 رقم 17671 ، تعليق شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح وهذا إسناد حسنوصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 734 رقم 7334
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2782

المطلب الثامن

استمرار توارث الدعوة على الصراط في ظل صدوف المكذبين وتشيعهم فرقا

قال تعالى (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159)

ألمح صاحب الظلال إلى أن (هذا المقطع بدأ بالحديث عن الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو "التوراة" تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم " وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وشرائعهم)[1]

والعلة في ذكر كتاب موسى دون عيسى ، أن التوراة اشتهرت بالتشريعات والأحكام التكليفية ، والإنجيل اشتهر بأن أحكامه جاءت لتخفف مما في التوراة ، كذلك فإن القرآن بعضه مكي وبعضه مدني ، فأما القرآن المكي كانت التشريعات فيه قليلة ، وأكثرها يتناول مسائل العقيدة بالتأصيل والتصحيح ، في حين تميزت السورة القرآنية في العهد المدني بأنها اشتملت على العديد من الأحكام العملية .

أما سورة الأنعام فرغم أنها كانت سورة مكية إلا أن الملاحظ أنها اشتملت على ربط العقيدة الصحيحة بحق الله تعالى في التشريع ، فأشارت إلى بعض الأحكام التشريعية إجمالا على سبيل التوصية ، ولم تكن هذه السورة من أول ما نزل في العهد المكي وإنما من أواخر ما نزل منه .

فكانت الحاجة ماسة لتهيئة المسلمين لاستقبال القرآن المدني والذي سوف ينزل في صورة لم يألفوها في العهد المكي حيث تكثر الأحكام التكليفية ، ومن ثم كان من المناسب نزول سورة الأنعام لتحقيق هذه التهيئة ، والإشارة إلى كتاب موسى ليعلم المخاطبون أن الأحكام التكليفية والعملية التي سوف تنزل في المدينة هي من شرع الله تماما مثل الأحكام الاعتقادية ، وكلاهما كلام الله ، ولمن يريد أن يتحقق فليطلع على التوراة حتى يتبين له ذلك[2]

---

[1]) في ظلال القرآن ج3 ص 176

2) جاء في الكتاب المقدس ما معناه ، مع مراعاة أنه طاله التحريف ، وبعضه لم يطله

الوصايا تجاه الله :-

- لا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.
- لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ.

وقد اطلع العلماء على ذلك فوجدوها بالفعل في العهد القديم على النحو التالي :-

الترتيب	آية سورة الإسراء	آية سورة الأنعام	الوصية	المقابل في التراث اليهودي المسيحي
الوصية الأولى	(22)	﴿151﴾	توحيد الله وعدم الإشراك به	لاَ يَكُنْ لَكَ اِلهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي
الوصية الثانية	(23-24)		الاحسان للوالدين والبر بهما	أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ
الوصية الثالثة	(26-31)		عدم قتل الأولاد خشية الإملاق	لا تقتل
الوصية الرابعة	(32)		اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن والبُعد منها	لا تزن , لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ، لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ
الوصية الخامسة	(33)		عدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق	لا تقتل
الوصية السادسة	(34)	﴿152﴾	الحفاظ على مال اليتيم وعدم القرب منه إلا للمصلحة	لا تسرق, لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ
الوصية السابعة	(35)		الإيفاء بالكيل والميزان بالقسط	غير موجودة و يوجد بدلاً منها أُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ
الوصية الثامنة	(36)		العدل وقول الحق	لا تشهد شهادة زور
الوصية التاسعة	(34)		الوفاء بالعهد	لا تحلف باسم الهك باطلا
الوصية العاشرة	(37-39)	﴿153﴾	اتباع صراط الله المستقيم وعدم اتباع سُبل أخرى	لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا...لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ

قال ابن عاشور (ومناسبة هذا الانتقال: ما ذكر من صراط الله الذي هو الإسلام، فإن المشركين لما كذبوا دعوة الإسلام ذكرهم الله بأنه آتى موسى عليه السلام الكتاب كما اشتهر بينهم ، قوله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى) [الأنعام 91] ، لينتقل إلى ذكر القرآن والتحريض على اتباعه فيكون التذكير بكتاب موسى عليه السلام تمهيدا لذلك الغرض)[1].

قوله (ثُمَّ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) (154) المراد بـ "ثم" (الترتيب الإخباري)[2] ، أي الانتقال إلى الحكاية عن التوراة بمناسبة ذكر الصراط المستقيم ، فهذا الصراط سار عليه الأنبياء من قبل .

قوله " تَمَاماً " أي (للنعمة)[3] على بني إسرائيل بأن أنزل فيهم التوراة ، قال تعالى (**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام 115) ، وأحاطهم برعايته وحفظه من عدوهم ، قال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) (الأعراف 137) .

- لا تحلف باسم الهك باطلا.
- أُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ.

الوصايا تجاه القريب

أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ..

الوصايا تجاه المجتمع

لاَ تَقْتُلْ - لاَ تَزْنِ - لاَ تَسْرِقْ - لاَ تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ - لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ.

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص131

[2]) تفسير السعدي ج1 ص 280

[3]) أحد التأويلات التي ذكرها ابن الجزي في التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 482

قوله (..عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ..) يعني موسى ، قال الخازن (**قيل الذي أحسن هو موسى** فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن ، وتقديره(وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر)[1]، قال ابن كثير أي: (جزاء على إحسانه في العمل،-يعني موسى- وقيامه بأوامرنا وطاعتنا)[2].

والمعنى على وجه العموم كذلك قال الزمخشري (يريد جنس المحسنين)[3]، كقوله "**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ**" [الرحمن :60].

وقوله (وتفصيلاً لكل شيء) أي التوراة جعلها الله (تبياناً لكل شيء ، وبين فيه حلاله وحرامه)[4] ، كما في قوله (**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ**) (الأعراف145)، ما يمهد لأن ينزل التشريع المدني قريبا فيه تفصيل الحلال والحرام ، والمنهج الذي يجب علي هذه الأمة اتباعه

فكذلك القرآن جعل الله فيه تفصيل لما اختلف فيه بنو إسرائيل ، قال سبحانه (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**) [النمل 76-77] ، فإنهم لما حرفوا التوراه أنزل الله القرآن مصدقا لها على وجه الإجمال ، فجعل في القرآن من الحجج والبراهين ما يشفي صدورهم ، وإجابة لكل أمر اختلفوا فيه ، هل طاله التحريف أم لم يطله .

وقوله (وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) أي (التوراة) ، فلو تلمس بنو إسرائيل الهدى والرحمة منها لآمنوا بلقاء الله ، ولكنهم لم يفعلوا فكفروا بلقاء الله وتمنى أحدهم لو يعمر ألف سنة في الدنيا ، ثم انتقل الحديث من التوراة إلى القرآن ليبين الله سبحانه أن مصدر التشريع هو الوحي ، وليس ثمة مصدر لذلك غير ذلك .

قوله (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ **فَاتَّبِعُوهُ** وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (155) هذا هو مضمون الخطاب ، بأن القرآن منهاج للمؤمنين ، قال تعالى (إِنَّ **هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**) ، فهو منهج قويم يصلح الله به حياة المؤمنين ، وعليه اتباعه لتحقيق تقواه ونيل رحمته ، ولكي يؤتي هذا الاتباع ثمرته لابد من اتباع أهل الحق الذي يرشدون إلى كتاب الله والعمل به

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ —يعني الموت- وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا **كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ** فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي)[5]، أي أرشد إلى اتباع الكتاب ، وهذا لا يتأتى إلا

---

[1]) تفسير الخازن ج2 ص 483
[2]) تفسير ابن كثير ج3 ص 369
[3]) الكشاف ج2 ص 192
[4]) الدر المنثور ج4 ص 164
[5]) رواه مسلم ج12 ص 134 رقم 4425

بتربية العلماء ، ولذلك أوصى النبي ﷺ بأهل بيته لأنهم أحفظ من غيرهم بالسنة القولية والعملية ، ومن هذه الذرية يخرج المهدي المنتظر ويحارب الدجال ، يقول النبي ﷺ (الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الْأَنْفِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ)[1] ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ**)[2].

وقيل عن كِتَابُ اللَّهِ (فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ) مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [3].

قال الطيبي (كتاب الله) أي طريق الخروج من الفتن التمسك بكتاب الله (فيه نبأ ما قبلكم) أي من أحوال الأمم الماضية (وخبر ما بعدكم) وهي الأمور الآتية من أشراط الساعة وأحوال القيامة وفي العبارة تفنن (وحكم ما بينكم) أي ما يقع بينكم من الوقائع والحوادث، قال القاري: أي (حاكم ما وقع أو يقع بينكم من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والحلال والحرام وسائر شرائع الإسلام ومباني الأحكام (هو الفصل) أي الفاصل بين الحق والباطل أو المفصول والمميز فيه الخطأ والصواب، وما يترتب عليه الثواب والعذاب (ليس بالهزل) أي جد كله وحق جميعه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والهزل في الأصل القول المعرى عن المعنى المرضي (من تركه) أي القرآن إيماناً وعملاً (من جبار) أي متكبر يدل على أن الحامل له على الترك إنما هو التجبر والحماقة ، قال الطيبي : من ترك العمل بآية أو بكلمة من القرآن مما يجب العمل به أو ترك قراءتها من التكبر كفر، ومن ترك عجزاً أو كسلاً أو ضعفاً مع اعتقاد تعظيمه فلا إثم عليه ، أي بترك القراءة، ولكنه محروم ، (قصمه) أي أهلكه أو كسر عنقه (ومن ابتغى الهدى) أي طلب الهداية من الضلالة (في غيره) من الكتب والعلوم التي غير مأخوذة منه ولا موافقة معه (أضله الله) أي عن طريق الهدى وأوقعه في سبيل الردى (وهو) أي القرآن (حبل الله المتين) أي المحكم القوي، والحبل مستعار للوصل، ولكل ما يتوصل به إلى شي أي الوسيلة القوية إلى معرفة ربه وسعادة قربه (وهو الذكر) أي ما يذكر به الحق تعالى أو ما يتذكر به الخلق أي يتعظ (الحكيم) أي ذو الحكمة (هو الذي لا تزيغ) أي لا تميل عن الحق (به) أي بإتباعه (الأهواء) أي الهواء إذا وافق هذا الهدى حفظ من الردى، وقيل: معناه لا يصير به مبتدعاً وضالاً، يعني لا يميل بسببه أهل الأهواء والآراء، وإنما زاغ من اتبع المتشابهات وترك المحكمات والأحاديث النبوية التي هي مبينة للمقاصد القرآنية. وقال الطيبي: أي (لا يقدر أهل الأهواء على تبديله وتغييره وإمالته) ،كفعل اليهود بالتوراة حين حرفوا الكلم عن مواضعه، لأنه تعالى تكفل بحفظه قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر: 9] (ولا تلتبس به الألسنة) أي لا تتعسر عليه ألسنة المؤمنين ولو كانوا من غير العرب قال تعالى: (فإنما يسرناه بلسانك) [الدخان: 58] (ولقد يسرنا القرآن للذكر) [القمر:17] وقيل: (لايختلط به غيره بحيث يشتبه الأمر ويلتبس الحق بالباطل فإن الله تعالى يحفظه أو يشتبه كلام

---

[1]) رواه أبو داود ج11 ص 356 رقم 3736 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج9 ص 285

[2]) رواه أبو داود ج11 ص 355 رقم 3735 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1168 رقم 11680

[3]) رواه الترمذي مرفوعا ج10 ص 147 رقم 2831 والبيهقي في سننه ج2 ص 325 رقم 1935 ،والصحيح أنه موقوف على علي وارتأى بعض الباحثين أن للحديث شواهد ومتابعات ، وأنه حسن لغيره : د عبد الواسع بن يحيى المعزبي الازدي : عضو هيئة التدريس بجامعة نجران : حديث علي كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم (دراسة وتحليل) ص 159 http://www.andalusuniv.net/magazine/16/4.pdf

الرب بكلام غيره لكونه كلاماً معصوماً دالاً على الإعجاز) ، (ولا يشبع منه العلماء) أي لا يصلون إلى الإحاطة بكنهه حتى يقفوا عن طلبه وقوف من يشبع من مطعوم ، بل كلما اطلعوا على شي من حقائقه اشتاقوا إلى آخر، أكثر من الأول، وهكذا فلا شبع ولا سآمة (ولا يَخلَق) ، من خلق الثوب إذا بلى (عن كثرة الرد) أي لا تزول لذة قراءته وطراوة تلاوته واستماع أذكاره وأخباره من كثرة تكراره وترداده ، (ولا ينقضي) بالتأنيث والتذكير (عجائبه) أي لا تنتهي لطائفة ودقائقه وغرائبه التي يتعجب منها (هو الذي لم تنته الجن) أي لم يقفوا ولم يلبثوا (إذ سمعته) أي القرآن (حتى قالوا) أي لم يتوقفوا ولم يمكثوا وقت سماعهم له عنه بل اقبلوا عليه لما بهرهم من شأنه فبادروا إلى الإيمان على سبيل البداهة لحصول العلم الضروري وبالغوا في مدحه حتى قالوا (إنا سمعنا قرآناً عجباً) أي شأنه من حيثية جزالة المبني وغزارة المعنى (يهدي إلى الرشد) أي يدل على الصواب أو يهدي الله به الناس إلى طريق الحق (فآمنا به) أي بأنه من عند الله ويلزم منه الإيمان برسول الله (من قال به) أي من أخبر به (صدق) أي في خبره أو من قال قولاً ملتبساً به بأن يكون على قواعده ووفق قوانينه وضوابطه صدق (ومن عمل به) أي بما دل عليه (أجر) بضم الهمزة أي أثيب في عمله أجراً عظيماً وثواباً جسيماً، لأنه لا يحث إلا على مكارم الأخلاق والأعمال ومحاسن الآداب (ومن حكم به) أي بين الناس (عدل) أي في حكمه لأنه لا يكون إلا بالحق (ومن دعا إليه) أي من دعا الخلق إلى الإيمان به والعمل بموجبه (هدى إلى صراط مستقيم)[1].

قوله (**أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ**) (156) المخاطب بهذه الآية أهل مكة[2] ، والمقصود بالطائفتين (أهل التوراة) و(أهل الإنجيل)[3]، قال ابن كثير أي: (وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك في شغل وغفلة عما هم فيه)[4] .

وفي ذلك نفي للأعذارهم وقطع لها لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فكان الواجب عليهم أن يكونوا أول المتبعين للنبي المبلغين لكتاب الله الذي نزل بلسانهم ، وهو ما يعني أن القرآن الكريم وقد نزل على أمة أمية إلا أنه من اليسر أن تدرسه هذه الأمة دون حاجة لأن تتعلم القراءة والكتابة ، قال تعالى (**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**) (القمر 17) .

قال الشعراوي (**إذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل**؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذي أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى ، وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم)[5]

فدراسة القرآن تعتمد في الأساس على التلقي من عالم يكرس وقتا بالمسجد لدراسته وتدبره مع الناس ، قال رسول الله ﷺ (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[6]، قال المباركفوري (التدارس قراءة بعضهم على بعض تصحيحا لألفاظه أو كشفا

[1]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج7 ص 214
[2]) تفسير الخازن ج2 ص 484
[3]) الكشاف ج2 ص 192
[4]) تفسير ابن كثير ج3 ص 370
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2790
[6]) رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867

لمعانيه ، وأصل الدراسة الرياضة والتعهد للشيء ، والأظهر أنه شامل لجميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم)[1]، و(فيه الحثُّ على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه، ويكون ذلك بقراءة أحد المجتمعين والباقون يسمعون، وبقراءتهم بالتناوب ليقوِّم بعضُهم بعضاً في القراءة، ويستفيد كلُّ واحد منهم من غيره ما يحصِّل به إجادة القراءة وتدارك الخطأ إن وُجد، وإذا كان فيهم عالم بتفسيره علَّمهم، وإن كانوا من أهل العلم فيه تدارسوا معانيه، ورجعوا في ذلك إلى كتب التفسير في الرواية والدراية المبنية على ما كان عليه سلف هذه الأمَّة، والجزاء على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه أربعة أمور، هي: نزول السكينة عليهم والطمأنينة، وأنَّ الرحمةَ تغشاهم، أي تشملهم وتغطِّيهم، وأنَّ الملائكة تحفُّهم أي: تحيط بهم، وأنَّ الله تعالى يذكرهم عند الملائكة) [2].

ولدراسة القرآن لابد من التحري عن أهل القرآن كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنْ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا)[3]، وقال ﷺ (ولم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي و اسم أبيه اسم أبي **يملأ الأرض قسطا و عدلا** كما ملئت ظلما و جورا)[4] .

قوله (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ **لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ** فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) لما كان مع اليهود التوراة ، ومع النصارى الإنجيل ، ولم يكن مع العرب شيء ، فإنهم لما نظروا إلى أهل الكتاب ، ولم يجدوهم قد استمسكوا بكتاب الله بحق **تمنوا لو أن الله أنزل إليهم الكتاب** لكانوا (أسرع منهم إجابة للرسول وأصوب ديناً)[5] ، فآتاهم الله ما كانوا يتمنون ، **فكان منهم من هو أسرع في الإجابة للرسول** ومنهم أبو بكر وعلي وعمر وغيرهم من الرعيل الأول من الصحابة ، قَالَ رسول الله ﷺ (إِنَّ **اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**)[6] ، **ومنهم من استبطئوا في الإجابة وأسلموا بعد فتح مكة** ، فرفع الله شأنهم أجمعين وكانوا خير القرون عما يليهم ، وكانوا كذلك خير من أهل الكتاب في الإجابة فمكنهم الله منهم .

وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا قَالَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَا قَالَ فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ)[7].

---

[1]) تحفة الأحوذي ج8 ص 216
[2]) عبد المحسن بن حمد العباد البدر: فتح القوى المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين ج1 ص 110
[3]) رواه الترمذي ج12 ص 258 رقم 3720 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج 3 ص 227 رقم 2980
[4]) تخريج السيوطي : جامع الأحاديث ج18 ص 161 ، ج24 ص 242 ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط ج10 ص 135 ، ج2 ص 55 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الجامع الصغير ج20 ص 7 رقم 9325 وهو مروي في سنن أبي داود ج11 ص 353 رقم 3733 والترمذي ج8 ص 175 وابن حبان في صحيحه ومسند أحمد
5) ابن عباس : تنوير المقباس ج1 ص 160 جمعه محمد بن يعقوب الفيروز آبادى
[6]) رواه مسلم ج4 ص 252 رقم 1353
[7]) رواه البخاري ج2 ص 393 رقم 524

قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ **وَصَدَفَ**[1] عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ **يَصْدِفُونَ** عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ[2]) (157) حكاية عن الصنف الثالث الذين لم يسرعوا في الاستجابة ولم يتأخر عنها ، وإنما صدفوا عنها بالكلية ، فلم يكن حاله بأهدى ممن قبلهم ، قال الشعراوي (« **صدف** » فعل يأتي متعديا ويأتي لازما ، وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين؛

الغرض الأول : أن تكون « صدف » **بمعنى انصرف وأعرض** فكانت لازمة أي ضل في ذاته

والأمر الثاني : أن تكون صدف متعدية فهي تدل على أنه **يصرف غيره عن الإيمان** ، أي يضل غيره ، ويقع عليه الوزر؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً .

ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذي يصلح للاثنتين « صدف عنها » أي انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أي جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره)[3] ، **فهذا الصنف من الناس أظلمهم** ، لصدوده عن سبيل الله، **فجعل من نفسه عائقا أمام الدعوة** ، ولا سبيل للمضي في سبيل الله إلا بإزالته ، طالما لا يزال يصدف الناس عن الحق ويقطع عنهم الطريق إلى الله .

قوله (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) (158) تهديد لمن يتأخرون عن الاستجابة للإيمان ، بأنهم متى ظلوا على هذا الحال من البطئ في الاستجابة فقد تكون عاقبته أن ينقضي الأمر ولا ينفع إيمان بعد ، وذلك بأحدى ثلاث ، إما "**الموت" أو "الهلاك العاجل**" بجنود الله التي يرسلها لاستئصالهم أو أن تأتي إحدى علامات "**الساعة الكبرى**" .

ففي قوله "إلاَّ أن تأتيهم الملائكة" أي (عند الموت لقبض أرواحهم)[4] ، قال ابن عباس والضحاك في قوله (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ): (أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره)[5]، أي : (بالعذاب) [6] ، وفي قوله (أو يأتي بعض آيات ربك) يعني : (طلوع الشَّمس من مغربها)[7]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَاكَ حِينَ(لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ)[8] ، ذلك أن الإيمان عندئذ لن يكون شيء غيبي ، وإنما بواقع مادي مشهود ، وليس ذلك هو الإيمان المطلوب الذي أراده الله من المكلفين ، قال تعالى (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) (يس 11).

---

1) قوله صدف أي أعرض وقوله الصدفين أي الجبلين (فتح الباري : ابن حجر ج1 ص 143)
الصُّدُوفُ المَيْلُ عن الشيء (لسان العرب ج9 ص 187) (إذا مر بصدف مائل أسرع المشي (النهاية في غريب الحديث والأثر ص17)
2) عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ : يَصْدِفُونَ : يُعْرِضُونَ صَدَفَ عَنِّيَ بِوَجْهِهِ : أَعْرَضَ (غريب الحديث للحربي ج2 ص 711) إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق
3) تفسير الشعراوي ج1 ص 2790
4) الوجيز للواحدي ج1 ص 211
5) القرطبي ج7 ص 144
6) أبو سراج الدمشقي : اللباب في علوم الكتاب ج7 ص 246
7) الوجيز للواحدي ج1 ص 211
8) رواه البخاري ج14 ص 174 رقم 4269

قوله (إِنَّ الَّذِينَ **فَرَّقُوا دِينَهُمْ** وَكَانُوا شِيَعًا **لَسْتَ مِنْهُمْ** فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(159) تضمن **إخراج أهل البدع والنفاق من الدين** ، فلا يجوز اتباعهم ، بل يجب الحذر منهم ، ولذلك تبرأ النبي ﷺ من كل بدعة في الدين ، قال رسول الله ﷺ (خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ **وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**)[1]قال المناوي أي (كل فعلة أحدثت على خلاف الشرع ضلالة أي توصف بذلك لإضلالها والحق فيما جاء به الشارع فماذا بعد الحق إلا الضلال)[2].

قال ابن تيمية (لَفْظُ الشَّرْعِ قَدْ صَارَ لَهُ فِي عُرْفِ النَّاسِ " ثَلَاثُ مَعَانٍ " الشَّرْعُ الْمُنَزَّلُ وَالشَّرْعُ الْمُؤَوَّلُ وَالشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ .

فَأَمَّا **الشَّرْعُ الْمُنَزَّلُ** : فَهُوَ مَا ثَبَتَ عَنْ الرَّسُولِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهَذَا الشَّرْعُ يَجِبُ عَلَى الْأَوَّلِينَ والآخرين اتِّبَاعُهُ وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَكْمَلُهُمْ اتِّبَاعًا لَهُ وَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ هَذَا الشَّرْعَ أَوْ طَعَنَ فِيهِ أَوْ جَوَّزَ لِأَحَدِ الْخُرُوجَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ .

وَأَمَّا **الشَّرْعُ الْمُؤَوَّلُ** فَهُوَ مَا اجْتَهَدَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ مِنْ الْأَحْكَامِ فَهَذَا مَنْ قَلَّدَ فِيهِ إمَامًا مِنْ الْأَئِمَّةِ سَاغَ ذَلِكَ لَهُ وَلَا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ الْتِزَامُ قَوْلِ إمَامٍ مُعَيَّنٍ .

وَأَمَّا **الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ** فَهُوَ الْأَحَادِيثُ الْمَكْذُوبَةُ وَالتَّفَاسِيرُ الْمَقْلُوبَةُ وَالْبِدَعُ الْمُضِلَّةُ الَّتِي أُدْخِلَتْ فِي الشَّرْعِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ وَالْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . فَهَذَا وَنَحْوُهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدِ اتِّبَاعُهُ . وَإِنَّمَا حُكْمُ الْحُكَّامِ بِالظَّاهِرِ وَاَللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ وَحُكْمُ الْحَاكِمِ لَا يُحِيلُ الْأَشْيَاءَ عَنْ حَقَائِقِهَا)[3].

وقد أخبر رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بتفرق الأمة فقَالَ (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ **افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً** وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)[4] ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) [5]

فالحديث أشار إلى السنة المتبعة عن النبي ﷺ والتي يرثها عنه أصحابه ، **ومن هنا سماهم أهل العلم بأهل السنة والجماعة** [6]، وقد بوب البخاري بابا بعنوان (بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ **وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ**) وأورد تحته حديث رسول الله ﷺ قال (لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)[7]،

---

[1]) رواه مسلم ج4 ص 359 رقم 1435
[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 466
[3]) الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ج1 ص 264
[4]) رواه ابن ماجة ج11 ص 494 رقم 3983 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 364 رقم 3227
[5]) رواه الترمذي ج9 ص 235 رقم 2565 وحسنه الألباني : صحيح وضعيف الترمذي ج 6 ص 141
[6]) عبد المحسن العباد : شرح سنن أبي داود ج13 ص 282
[7]) رواه البخاري ج22 ص 286 رقم 6767

ومستنده في تخصيصهم بأهل العلم الحديث الذي أورده بعده ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ **وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ**) [1].

فبالجمع بين الأحاديث يتبين أن **العلم من صفات أهل الحق** ، أولئك الذين يستمسكون بالكتاب وإن اختلفت آراءهم في تأويل ما يسوغ الاختلاف فيه ، كما في حديث ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنْ الْأَحْزَابِ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ)[2] ، فأقر بذلك مذهبين في التفسير ، مذهب أهل الظاهر ، ومذهب أهل المقاصد ، من هنا نفهم أن النبي ﷺ أجاز اختلاف الصحابة في المسائل الفقهية طالما أن المسألة تحتمل هذه الأوجه المختلف فيها سواء لغة أو عرفا أو بحسب المصلحة المعتبرة شرعا .

قال الحويني (**ولو جمعنا المسائل الفقهية التي اختلف الصحابة فيها لكانت بالألوف**، وحسبك كتاب: الإجازة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، لبدر الدين الزركشي رحمه الله، وهذا الكتاب أورد فيه مصنفه ما استدركته عائشة ، وتعقبته على الصحابة رضي الله عنهم –يعني الاعتراض منها على الصحابة– فجمع كتاباً ، فلو أردت أن تجمع كتاباً لكل صحابي اعترض على الباقين لطال الأمر، **ومع اختلافهم في المسائل الشرعية لا نعلمهم قط اختلفوا في مسائل الإيمان**، إلا في مسائل يسيرة ومحكمة، وكان يراجع بعضهم بعضاً في النقل في المسائل الفقهية، لكن في المسائل الاعتقادية لا، وهذا من أكبر الأدلة على أنهم لم يختلفوا في مسائل الإيمان، أو في مسائل التوحيد)[3] .

فالمسلمون بحاجة إلى من يقودهم ويرشدهم ويهديهم لطريق الحق ،ولذلك فإنه عندما تزيغ الأهواء وتتضارب الآراء ويضحى كل ذي هوى متبع لرأيه وهواه وليس متبع لشرع ربه ، يأتي الله بالمهدي المنتظر ليقود الناس للحق ، ويملأ الأرض عدلا بعدما ملئت ظلما وجورا ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ**)[4]، وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث الدالة على أن كتاب الله وأهل البيت لن يفترقا حتى يردا على الحوض .

---

[1]) رواه البخاري ج22 ص 287 رقم 6768
[2]) رواه البخاري ج3 ص 499 رقم 894
[3]) شرح كتاب العلم من صحيح البخاري ج1 ص 48
[4]) رواه ابن ماجة ج12 ص 103 رقم 4075 وصححه الألباني والشيخ أحمد شاكر

خاتمة سورة الأنعام

إخلاص التوجه لله

قال تعالى (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ **فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى **صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا** مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ **صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ** رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ **رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ **خَلَائِفَ الْأَرْضِ** وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ **لِيَبْلُوَكُمْ** فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

اختتمت السورة ببشرى للمؤمنين ، حيث بين الحق سبحانه **كيف يزن أعمال** المؤمنين ، ليعلم المؤمن أن الله لا يزن أعماله بعدله وإنما يزنها **بكرمه ولطفه** فيبارك في الحسنة لتكون بعشر أمثالها ، ولا يجازي على السيئة إلا مثلها ، وليعلم الناس أنه يمتنع الظلم في حقه سبحانه ، فإذا كان ميزان الأعمال على ذلك النحو ، فمن المفترض أن يكون الكل ناج ، ولكن ثمة شرط لهذه القسمة ، وأي لوزن الأعمال بهذا الميزان ، وهو تحقيق **التوحيد الخالص لله** ، ولذلك أمر الله نبيه أن يبين للناس كافة أن صراط الله المستقيم هو دين الله ، وهو ملة إبراهيم حنيفا مائلا عن الشرك ، بكل صوره ، فهذا هو الدين القيم عند الله ، ولن يقبل الله دين غيره .

ولهذا فلابد وأن يعي المسلم كذلك أن العبادة في الإسلام ليست قاصرة على مجرد الشعائر التعبدية التي يؤدي المسلم ويحافظ عليها بل تشمل كل عمل يعمله ابن آدم سواء أكان عبادة محضا أم كان فيه حظ المكلف ، فحياته كلها لله ومماته لله ، كما أن صلاته لله ، بهذا يبتعد المسلم عن الشرك ، ويخلص عمله من حظوظ نفسه

وعلامة الإخلاص أن يسير المسلم على صراط ربه مستقيما ولا يبالي بمن سار على نهجه ممن خالفه ، بل يكفيه أن يكون هو أول المسلمين ، وهكذا يتحرر المسلم من كل معبود سوى الله سبحانه ، فلا يعبد غير الله ، رب كل شيء ومليكه ، فالمسلم موقن بعدل الله في خلقه ، ويعلم أنه لن يحمل وزر غيره ممن خالفه طالما أدى ما عليه من البلاغ ، فكل واحد يسأل عن عمله ، ولا يسأل عن عمب غيره إلا بقدر تقصيره في البلاغ عن الله .

والحقيقة الذي يجب أن يعيها كل الموحدين أن الناس في الدنيا لا يزالون مختلفين ، ومتفرقين إلى شيع وأحزاب ، كل فريق ينتصر لحزبه وجماعته ويحارب غيره ، ولسوف يظل حالهم على هذا المنوال حتى يفصل الله بينهم يوم القيامة ، فيعلم كل فريق من كان على الحق ومن كان على الباطل ، ما يعني أن الخلاف بينهم لن يحسم في دار الدنيا ، بل في دار الحق سبحانه .

وليعلم الإنسان أنه لم يخلق في الدنيا إلا لكي يختبر بواجب الاستخلاف في هذه الأرض ، فقد كلفه الله بالعبادة وإقامة دينه ، وقد جعل الله التفاوت بين الناس لأجل الاختبار والابتلاء ، فعلى الإنسان أن يكرث جهده لأجل هذا الابتلاء قبل أن يرجع لربه ، فيحاسبه على ما عمل ، يعاقبه إن أساء أو يعفو عنه ويغفر له ويرحمه برحمته .

قال القطان (**هذه السورة أجمعَ السور لأصولِ الدين ، مع إقامة الحجج عليها ودفع الشبهة عنها ، وإبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم**- جاءت هذه الخاتمة **بقول جامعٍ لجملة** ما فُصّل فيها ، وهو أن الدين القيّم والصراطَ المستقيم هم ملةُ إبراهيم دون ما يدّعيه المشركون ، وما حرّفه أهلُ الكتاب ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام **مستمسكٌ** به ، معتصِمٌ بحَبْله ، يدعو إليه قولاً وعملا وأنه هو الذي أكد الدينَ بعد ان انحرفت الامم السابقة عنه ثم بيّن الجزاء عند الله على الأعمال ، لا يؤاخَذ أحدٌ بذنْب غيره ، وأن المرجعَ إلى الله ، فهو الذي يستخلف في الارض من يشاء ويختبر البشر بالنِعم والنِقَم ، يتولّى عقاب المسيئين ورحمةَ المحسنين ، فلا واسطة بينه وبين عباده)[1].

قوله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (160) استظهرت هذه الآية كيف يزن الله تعالى أعمال العباد بما يقطع بامتناع الظلم لهم في حقه سبحانه ، فالإتيان بالحسنة أو السيئة محض اختيار للعبد وليس بمسير فيه ، قال الإمام البقاعي (ولما أخبر أن أمرهم ليس إلا إليه ،كان كأنه قيل : فماذا يفعل بهم حينئذ ؟ فأجيب بقوله (**من جاء**) [2].

فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ قَالَ (**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ **عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ** وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ **سَيِّئَةً وَاحِدَةً**)[3]، فالله يضاعف الحسنات كيف يشاء ، فيزيدها أضعافا مضاعفة ، قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ **وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ** وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة 261)

قال الحافظ : (ظاهر الحديث حصول الحسنة بمجرد الترك سواء كان ذلك لمانع أو لا ، ويتجه أن يقال يتفاوت عظم الحسنة بحسب المانع ، فإن كان خارجيًا مع بقاء قصد الذي هم بفعل الحسنة فهي عظيمة القدر ، ولاسيما إن قارنها ندم على تفويتها واستمرت النية ، وإن كان الترك من الذي هم من قبل نفسه فهي دون ذلك إلا إن قارنها قصد الإعراض عنها جملة ، والرغبة عن فعلها ، ولاسيما إن وقع العمل في عكسها كأن يريد أن يتصدق بدرهم مثلاً فصرفه بعينه في معصية ، فالذي يظهر في الأخير أن لا يكتب له حسنة أصلاً وأما ما قبله فعلى الاحتمال)[4] .

---

[1]) القطان ج2 ص 29
[2]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج2 ص 751
[3]) رواه البخاري ج20 ص 140 رقم 6010
[4]) أبو الحسن عبيد الله الرحماني المباركفوري : مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج8 ص 98

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ **يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ** قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا **الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ** يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)[1] .

وأعظم حسنة هي **حسنة التوحيد** ، فهو الحسنة التي ترجح على كل السجلات ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ **تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا** كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ **فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ**)[2].

قوله (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (161) عن عبد الرحمن بن أبزى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال (**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما أنا من المشركين**)[3] .

قال تعالى (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ** وَفِي هذا لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة واعتصموا بالله هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير) [الحج : 78])[4].

قال الشعراوي (« نحن مسلمون » أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط ، نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله في كتابه المسلمين ، فهذا من إعجازات التسمية التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه) [5].

قال ابن عاشور (هذا استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين، وما تخللها، إلى ما أمر به الرسول ﷺ في هذا الشأن غلقا **لباب المجادلة مع المعرضين** ، وإعلانا بأنه قد تقلد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلدوه وأنه ثابت على ما جاءهم به، وأن إعراضهم لا يزلزله عن الحق ، وفيه **إيذان بانتهاء السورة** لأن الواعظ والمناظر إذا ما أسبع الكلام في غرضه ، ثم أخذ يبين ما رضيه لنفسه وما قر عليه قراره ، علم السامع أنه قد أخذ يطوي سجل المحاجة ، ولذلك غير الأسلوب ، فأمر الرسول ﷺ بأن يقول أشياء يعلن بها **أصول دينه** ، وتكرر الأمر بالقول **ثلاث مرات** تنويها بالمقول)[6] .

---

[1]) رواه مسلم ج6 ص 18 رقم 1945
[2]) رواه الترمذي ج9 ص 232 رقم 2563 وابن حبان في صحيحه ج1 ص 461 رقم 225 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ج1 ص 261 رقم 135
[3]) رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص 3 رقم 9829 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج7 ص 190 رقم 2989
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 879
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 879
[6]) التحرير والتنوير ج7 ص 146

قال ابن عاشور (ومعنى كون الإسلام ملة إبراهيم: أنه **جاء بالأصول** التي هي **شريعة إبراهيم** وهي: التوحيد، ومسايرة الفطرة، والشكر، والسماحة، وإعلان الحق) والحنيف: المجانب للباطل، فهو بمعنى المهتدي)[1]

وقال (**المناسبة بين الهداية وبين الصراط تامة**، لأن حقيقة الهداية التعرف بالطريق، قد صح أن تستعار الهداية للإرشاد والتعليم، والصراط للدين القويم، فكان **تشبيها مركبا** قابلا للتفكيك وهو أكمل أحوال التمثيلية)[2].

إذن قد جاء ذكر نبي الله إبراهيم احتجاجا به وتوصيفا لدعوته ، للتأكيد على تبرؤ النبي ﷺ من أهل الشرك وإن كانوا قومه ، كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من قومه ، وقد أشار ابن كثير إلى نظير هذه الآية في قوله (**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**) [البقرة : 130][3]

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ قَالَ أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ "**الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ**" بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا)[4] .

قال ابن الجزري (**يعني مِلَّة إبراهيم ﷺ التي غَيَّرَتْها العَرَبُ عن اسْتِقامَتِها**) [5]، قال الحافظ (أي ملة العرب ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام والمراد باقامتها أن يخرج أهلها من الكفر إلى الإيمان)[6] .

قوله (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (163) أوضحت هذه الآية المفهوم الشامل للعبادة في الإسلام ، بعدما بينت أن شرط قبولها إخلاص النية لله تعالى ، فبها تصير العادات إلى عبادات ، وذلك باقترن العمل بتوجه القصد لله تعالى بإخلاص ، وهذه هي حقيقة الإسلام ، والذي يعني استسلام القلب والأعضاء والجوارح لله تعالى ، من هنا تكن كل حركة وكل سكنة لله تعالى ، فتكون النومة لله كما أن القومة لله .

فعن أَبِي بُرْدَةَ قال (قَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَى كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَالَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى رَاحِلَتِي وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا قَالَ أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ **فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي**)[7]، فقوله فاحتسب من الاحتساب من باب الافتعال أي اطلب الثواب في نومتي وطلب الثواب في القومة ظاهر وأما في النومة **فلأنه من جملة المعينات على الطاعة** من القراءة ونحوها)[8]

---

[1]) التحرير والتنوير ج7 ص 149
[2]) التحرير والتنوير ج7 ص 148
[3]) تفسير ابن كثير ج3 ص 380
[4]) رواه البخاري ج7 ص 321 رقم 1981
[5]) أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري : النهاية في غريب الأثر ج3 ص 600
[6]) ابن حجر : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج4 ص 343
[7]) رواه البخاري ج13 ص 241 رقم 3998
[8]) بدر الدين العيني الحنفي : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج26 ص 223

قال النووي (والنائم على طهر محتسبا يكرم فإن نفسه تعرج إلى الله فإذا كان طاهرا قرب فسجد تحت العرش ، وإن كان غير طاهر سجد قاصيا فلذلك يندب النوم على طهر والروح والنفس قرينان لكن الروح تدعو إلى الطاعة لأنه سماوي والنفس تدعو إلى الشهوة لأنها أرضية فبالنفس يأكل ويشرب ويسمع ويبصر وبالروح يعف ويستحي ويتكرم ويتلطف ويعبد ربه ويطيع والنفس هي الأمارة بالسوء ، فإذا نام خرجت بحرارتها فعرج بها إلى الملكوت والروح باق معلق بنياط القلب وأصل النفس باق مقيد بالروح وقد خرج شعاعها ومعظمها وحرارتها ولذلك إذا استيقظ النائم يجد في أعضائه بردا فذلك لخروج حرارة النفس)[1].

كذلك فإن سعي المرء لطلب الرزق لاسيما على عياله فإنه كذلك في يكون سبيل الله لأنه من الواجبات ، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ)**[2]

وعن أبي هريرة قال بينا نحن مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا شاب من الثنية فلما رميناه بأبصارنا قلنا لو أن ذا الشاب جعل نشاطه وشبابه وقوته في سبيل الله فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ فقال وما سبيل الله إلا من قتل ؟ **من سعى على والديه ففي سبيل الله ، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله ، ومن سعى مكاثرا ففي سبيل الطاغوت)**[3].

ففعل كل ما يشمله معنى الخير والتطوع يكون عبادة لله متى اقترن بالنية الصالحة ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ** كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ قَالَ تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ قَالَ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)[4].

قال ابن الأثير (السُّلامَى : جمع سُلامِيَة وهي الأُنْمُلَة من أنامِل الأصَبع . وقيل واحدهُ وجمعهُ سواء . ويُجمَع على سُلامَياتٍ وهي التي بين كُلِّ مَفْصِلَين من أصابع الإنْسانِ . وقيل السُّلامى : كل عَظْم مُجَوَّف من صِغَار العِظَام : المعنى على كُلِّ عظم من عِظَام ابن آدم صدقة)[5]

كما أن الإمساك عن الشر مجردا عن فعل المزيد من الخير في ذاته عبادة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ** قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ **يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ** قَالَ قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ قَالَ قِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ **يُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ)**[6].

بل إن إتيان المرء شهوته في الحلال عبادة ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قَالَ أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ

---

[1]) فيض القدير ج4 ص 381
[2]) ج1 ص 96 رقم 54
[3]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج4 ص 284 رقم 4214 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج26 رقم 51
[4]) رواه مسلم ج5 ص 180 رقم 1677
[5]) النهاية في غريب الأثر ج2 ص 985
[6]) رواه مسلم ج5 ص 179 رقم 1676

وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ** قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا)[1].

حتى إن لهو العبد ومرحه إذا كان بغرض الترويح عن النفس لكي تنشط بعد ذلك في طاعة الله فهو عبادة ، قال تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ **وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص 77)

فعن عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ **فِي دِينِنَا فُسْحَةً** إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ)[2]

وعن عُرْوَةَ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي **وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ** وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ أَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ ، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْحَبَشَةُ **يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ**)[3]

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامِ مِنًى تُدَفِّفَانِ وَتَضْرِبَانِ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَغَشٍّ بِثَوْبِهِ فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ **دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ** وَتِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامُ مِنًى وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْهُمْ أَمْنًا بَنِي أَرْفِدَةَ يَعْنِي مِنْ الْأَمْنِ)[4]، قال المباركفوري في شرح سنن الترمذي (وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً) أَيْ سَاعَةً كَذَا وَسَاعَةً كَذَا يَعْنِي لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُنَافِقًا بِأَنْ يَكُونَ فِي وَقْتٍ عَلَى الْحُضُورِ وَفِي وَقْتٍ عَلَى الْفُتُورِ, فَفِي **سَاعَةِ الْحُضُورِ تُؤَدُّونَ حُقُوقَ رَبِّكُمْ, وَفِي سَاعَةِ الْفُتُورِ تَقْضُونَ حُظُوظَ أَنْفُسِكُمْ**)[5] .

قوله (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) وذلك يعني وجوب تبرؤ المسلم من شرك المشركين ورياء المرائين ، والحذر مما يداخل النفس مما لا يبتغي به وجه الله ، فشرط قبول العبادة تجريد العمل من حظوظ النفس ، حتى لا تصير النفس إلها مع الله ، وتلك أعلى درجات الشرك بالله ، قال تعالى (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (الجاثية 23)

فإن أجاز الشرع أن يراعي العبد حق نفسه ، فذلك من باب الامتثال لقول النبي ﷺ قول سلمان (**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**)[6]، لا من أجل تسلطها عليه بأن تكون هي **الباعث القوي** للإقبال على العمل ، وإن جاز القول بأن باعث النفس قوي لما جلبت عليه من حب الشهوات ، فإن علامة صحة نيته أن **يأخذ حظ نفسه بالقدر الذي قدره الشرع** ، أي بلا إسراف ولا تقتير ، وبالطريقة التي أحل الله بها

---

[1]) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674
[2]) رواه أحمد في مسنده ج43 ص 115 رقم 25962 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 443 رقم 1829 – وحسن الرواية التي في مسند أحمد في السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 423 رقم 2924
[3]) رواه البخاري ج2 ص 247 رقم 435
[4]) رواه البخاري ج4 ص 66 رقم 934
[5]) إحياء علوم الدين ج2 ص 30
[6]) رواه البخاري ج7ص 76 رقم 1832

مراعاة حق نفسه ، ونصب عينيه على مقاصد الشرع ، كقوله ﷺ (**حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ** فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ)[1].

قال أبو حامد الغزالي (اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا ؟ أم يقتضي عقابا ؟ أم لا يقتضي شيئا أصلا؟ فلا يكون له ولا عليه ؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب ، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب ، وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له) [2]

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ **يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا** فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **لَا أَجْرَ لَهُ** فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ **يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا** فَقَالَ **لَا أَجْرَ لَهُ** فَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ لَهُ **لَا أَجْرَ لَهُ**)[3] .

كذلك يحبط العمل الصالح لو شاركه حب الرياء والسمعة ، حتى ولو لم يقصد صاحبه حصول منفعة مادية منه ، وإنما قصد نفعا معنويا بأن يذكره الناس بالثناء الحسن ، فليس ذلك مما يبتغي به وجه الله ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا **يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ** مَالَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ)[4].

قال أبو حامد الغزالي (والعلم عند الله أن **ينظر إلى قدر قوة الباعث**، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب) [5].

إذن إذا كان الثناء الحسن لا يؤثر في قوة الباعث للعمل الصالح ، فبها ونعم وإن كان الرجل يفرح لذلك ، لما روي عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ **أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ** قَالَ تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ)[6].

قوله (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (164) جاءت هذه الآية ردا على **المعارضين** للنبي ﷺ ، الذين أرادوا أن يتبعهم النبي على أن يحملوا خطاياه ، فقررت الآية أن كل نفس بما كسبت رهينة ، قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا **اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (العنكبوت 12)

---

[1] رواه ابن ماجة ج10 ص 105 رقم 3340 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 237 رقم2704/ 3340
[2]) إحياء علوم الدين ج4 ص 384
[3]) رواه أبو داود ج7 ص 38 رقم 2155 وصححه الالباني : صحيح أبي داود ج7 ص 276 رقم 2272
[4]) رواه النسائي ج10 ص 204 رقم 3089 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج7 ص 212 رقم 3140
[5]) إحياء علوم الدين ج4 ص 384
[6]) رواه مسلم ج13 ص 97 رقم 4780

قال أبو حيان الألوسي (أي ولا تكسب كل نفس شيئاً يكون عاقبته على أحد إلا عليها ، أي لا تذنب نفس مذنبة ذنب نفس أخرى ، والمعنى لا تؤاخذ بغير وزرها فهو تأكيد للجملة قبله وهو جواب لقولهم (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم)[1]، والله تعالى يقول (**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ** وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (العنكبوت 13) .

قوله (..وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (164) استكمالا للبيان بشأن ميزان قياس الحسنات والسيئات ، فإن ثمة أعمالا تجري لابن آدم أو تجري عليه في هذه الدنيا ، وذلك بحسب ما إذا نمي خيرا أو نمي شرا ، فإن نمى خيرا فله أجر من عمل من خير ، وإن نمى شرا فله وزر من عمل به .

فهذه هي القاعدة "ولا تزر وازرة وزر أخرى" ولا استثناء عليها[2] ، اللهم إلا إذا قيل بأن من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عملها بها ، والعكس كذلك صحيح ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ **عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**)[3] ، ولذلك قال تعالى (**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ** أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (النحل 25) ، قال مجاهد (حمَّلهم ذنوب أنفسهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم شيئا)[4] .

قوله (..ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (164) أي إلى هنا انتهى الجدل وأغلقت صفحة المناظرة ، ولم يبق غير انتظار أن يفصل الله بين المسلمين وغيرهم ممن صرفوا الناس عن دين الحق .

قال ابن كثير كما قال تعالى (قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ**) [سبأ : 25 ، 26] ، فالدنيا ليست محلا للقصاص ، وإن كان القصاص فيها شرع من الله ، ولكن الآخرة هي دار الحكم في كل قضية اختلف عليها الناس ، والقضاء في كل مظلمة بينهم ، فمن لم يقتص حقه في الدنيا فعزاؤه أن ثمة آخرة سوف يقضي الله له فيها ممن ظلمه .

قوله (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) قال رسول الله ﷺ (الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ **مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا** فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[5]، (مستخلفكم فيها) أي (يجعلكم خلفا من القرن الذي قبلكم)[6]، (**فإنها لم تصل إلى قوم إلا بعد آخرين**)[7]، (والمراد مستخلفكم فيما كان بأيدي من قبلكم

---

[1]) البحر المحيط ج5 ص 315

[2]) فإن قيل : كيف يجني الجاني وتؤخذ عاقلته بجريرته والله تعالى يقول : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا } [الأنعام : 164] ويقول : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } [الأنعام : 164] ؟ فالجواب : أن هذا ليس من باب تحميل الرجل وزر غيره ، لأن الدية على القاتل ، وتحميل (العاقلة) إيّاها من باب المعاونة والمواساة له ، وقد كان هذا معروفاً عند العرب وكانوا يعدونه من مكارم الأخلاق ، والنبي صلى الله عليه وسلم بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ، والمعاونة والمواساة والتناصر وتحمل المغارم ، كل هذا ممّا يقوّي الألفة ويزيد في المحبة فلذلك أقره الإسلام) تفسير آيات الأحكام ج1 ص 231 ، هذا وللعاقلة أن ترجع على الجاني بما دفعته من مقدار الدية ، فهي تضامنت معه في تحملها ولها أن ترجع عليه .

[3]) رواه مسلم ج13 ص 163 رقم 4830

[4]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 302

[5]) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925

[6]) جلال الدين السيوطي : الديباج على مسلم ج6 ص 84

[7]) محمد بن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج1 ص 311

بتوريثكم إياهم)[1]، أي (جاعلكم خليفة) أي (وكيلا ففيه أن **أموالكم ليست لكم بل الله سبحانه جعلكم في التصرف فيها بمنزلة وكلاء** أو جاعلكم خلفاء للأرض ممن كان قبلكم وأعطاكم ما كان في أيديهم)[2].

قوله (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) وذلك هو مناط الابتلاء في هذه الدنيا ، حيث ثمة **تفاوت وتباين في الأرزاق والمراتب بين الناس** ، وهذا التفاوت قد يحملهم على الحسد أو الحقد ، وقد يحملهم على السخط ، وقد يحملهم على التعاون والتكامل وتحقيق النماء الجمعي والرقي الحضاري ، فالمسلمون لا يحقدون ولا يحسدون ولا يسخطون ، وإنما يرضون بما قسمه الله لهم من رزق ، قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **(إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ)**[3] ، قال المناوي (أي من هو دونه فيهما ليرضى فيشكر ولا يحتقر ما عنده)[4] ، (فإنه أجدر ألا يزدري نعمة الله... لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدا ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعيا إلى الشكر)[5]

قال الشاعر : –

إذا شئت أن تحيا غنيا .... فلا تكن على حالة ....إلا رضيت بدونها[6]

قال النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ **الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ)**[7]، قال السيوطي (أي الغنى المحمود العظيم النافع شبع النفس وقلة حرصها)[8] ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ **يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ** ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ **وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ)**[9].

قوله (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (165) وذلك خير ختام للسورة ، حيث يؤكد الله تعالى أنه جمع بين صفات القوة والبطش بالظالمين ، والمغفرة والرحمة للمؤمنين .

---

[1]) المناوي ج2 ص 226
[2]) شرح سنن ابن ماجة ج1 ص 288
[3]) رواه البخاري ج20 ص 138 رقم 6009
[4]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 262
[5]) تحفة الأحوذي ج5 ص 388
[6]) أبو الفرج ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 1001
[7]) رواه البخاري ج20 ص 79 رقم 5965
[8]) الديباج على مسلم ج3 ص 130
[9]) رواه البخاري ج5 ص 318 رقم 1376

الفهرس

مقدمة سورة الأنعام 4
(الحمد على نعمة الإيجاد وتعريف الله نفسه)..... 4
المحور الأول 11
صبر الرسل علي المستهزئين المكذبين 11
المطلب الأول 12
مدى عناد المعرضين عن الدعوة أول الأمر 12
المطلب الثاني..... 16
تلقين النبي ﷺ كيف يحاج قومه بعد أن كذبوه 16
المطلب الثالث 33
مواساة النبي ﷺ في تكذيب الكافرين له ، وكثرة المنافقين والمرائين ، باستظهار حالهم يوم القيامة..... 33
المطلب الرابع 44
تثبيت الرسول إزاء مجادلة قومه له..... 44
المطلب الخامس 54
سنن الله في المشركين 54
المحور الثاني..... 60
تحديد مهمة الرسل إزاء قومهم..... 60
المطلب الأول 61
أسس المنهج الدعوى 61
المسألة الأولى : (البلاغ العام) من خلال البشارة والنذارة :..... 61
المسألة الثانية : تنزيه الرسالة عن مطامع الدنيا المزينة للمشركين ، وتوضيح مكانتها الراقية عن ذلك..... 63
المسألة الثالثة : الإحاطة بالمؤمنين والحفاظ عليهم من مكر الماكرين 66
المسألة الرابعة : تبرؤ النبي من عبادة أصحاب الأهواء حتى حد المفاصلة 72
المطلب الثاني..... 76
فحوى الخطاب الدعوى ومنهجيته..... 76
المطلب الثالث 99
محاججة النبي ﷺ قومه..... 99
المحور الثالث 123
تصحيح العقيدة وتأصيل حق الألوهية بمنهج دعوى بليغ 123
المطلب الأول 140
سرد ضلالات المشركين في الاعتقاد إجمالا..... 140
المطلب الثاني..... 143
تصحيح التصور عن الله..... 143
المطلب الثالث 152

ترشيد الجهد الدعوى إزاء عناد المشركين ومجادلتهم 152
المطلب الرابع 175
إظهار شعار الإسلام أبلغ الوسائل لتصحيح التصور الاعتقادي في الله 175
المطلب الخامس 182
الرسل حجة الله علي قومهم 182
المطلب السادس 201
مناظرة المشركين في أن التشريع حق خالص لله دون غيره 201
المطلب السابع 230
إرشاد الناس للصراط المستقيم الذي به تستبين مقاصد الإسلام الكبرى المعروفة في كل ملة 230
المطلب الثامن 238
استمرار توارث الدعوة على الصراط في ظل صدوف المكذبين وتشيعهم فرقا 238
خاتمة سورة الأنعام 247
إخلاص التوجه لله 247
الفهرس 256